تزكية النفس اشراقة ربانية

وسعادة قلبية

تأليف\ أبي الحسن علي بن محمد المطري

تخريج \ أبي عبد الله محبوب بن عبد الله البطيحي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣). أما بعد:

التزكية مقصد من مقاصد بعثة الرسل عموما، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" انتهى (٤).

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء ، الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيات ٧٠ -٧١ ،

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٠) .

وهي غاية من غايات بعثة النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص كما قال تعالى: (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)[1]، فهو يزكيهم بمعنى: يدلهم على ما تزكو به نفوسهم، وليس هو فاعل التزكية فيهم، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)[2].

وقد حاز النبي صلى الله عليه وسلم على التزكية الربانية في إيمانه وعبادته وخلقه، فأرسله الله لتزكية هذه الأمة، وتطهير النفوس من دسائسها وأمراضها، وملئها بكل خصال الطهر والنقاء، وقد كان ذلك في أصحابه رضوان الله عليهم، الذين تحقق فيهم هذا المقصد العظيم بأبهى صوره، حيث عمل فيهم النبي صلى الله عليه وسلم على مسارات التزكية الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، فكانوا صفوة لا تتكرر، وبقيت الأمة تتوارث منهجهم في التزكية، وعلى قدر قرب الأمة وبعدها من هذه القدوات يكون موقعهم من هذا المقصد العظيم (التزكية).

ومفهوم التزكية كما يرى ابن تيميه في الفتاوى: (تكون بعمل الصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير)[3].

ويمكن القول بأن تزكية النفس: عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل، والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا، والفلاح والنجاة في الآخرة.

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

(2) سورة النور ، الآية ٢١ .

(3) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨) .

وإذا كانت التزكية أحد مقاصد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فإننا سنجد ذلك مبثوثا في صفحات السنة النبوية، وهذه بعض الإشارات التي تبرز هذا المقصد لا على جهة الاستيعاب:

مقصد التزكية في الدعاء النبوي:

مطلب التزكية ظاهر في دعائه المأثور، فكان من دعائه صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها[1].

التخلية قبل التحلية:

من قواعد التزكية المشهورة التي تجلت في النصوص النبوية قاعدة: (التخلية قبل التحلية)، بمعنى: تخلية النفوس من العيوب والآفات، ومن ثم تحليتها بالفضائل، والخصال الحسنة، وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على تخليص أصحابه من أدران الجاهلية، وهذا يعتبر الركن الأول من أركان التزكية، ويدل على ذلك على سبيل المثال:

---

(1) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨).

حديث المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها. فسألته عن ذلك؟ فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعيره بأمه، فأتى الرجل النبي – صلى الله عليه وسلم – فذكر ذلك له. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[1].

والمعنى: قد بقي فيك من اخلاق القوم شيء ، كما قال ابن هبيرة في الإفصاح[2]، وقد وصل أبو ذر إلى هذا المقام من التخلي عن كل أمر يمكن أن يوصف بأنه جاهلية، حتى أنه ألبس غلامه حلة كحلته، وهذا يدلنا على الأثر البالغ الذي تركته عبارة التزكية في نفسه، حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

ومن التخلية: النهي عن الغضب، فهو بوابة للشرور، ومفتاح للظلم والعدوان، كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: لا تغضب فردد مرارا، قال: لا تغضب[3].

ومن التخلية: نزع حب الفواحش، وما اعتادوا عليه من مقارفة الآثام من نفوسهم، كما في مسند أحمد بإسناد صحيح، عن عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: " ادنه، فدنا منه قريبا "، قال: فجلس قال: " أتحبه لأمك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم "، قال: " أفتحبه

---

(1) رواه البخاري (١/ ١٥)مسلم (٣/ ١٢٨٣) .

(2) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/ ١٦٨) ل يحيى بن (هُبَيْرَة بن) محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين (المتوفى: ٥٦٠هـ) .

(3) رواه البخاري (٨/ ٢٨) .

لابنتك؟ " قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: " ولا الناس يحبونه لبناتهم "، قال: " أفتحبه لأختك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأخواتهم "، قال: " أفتحبه لعمتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال: " أفتحبه لخالتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لخالاتهم "، قال: فوضع يده عليه وقال: " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه " قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

فهذا وغيره مما يعزز الركن الأول من التزكية، وهو التخلية من الآفات والأمراض والخبائث، وتطهير النفس من العيوب والآفات المدنسة، وهذا في السنة مما لا يقع تحت الحصر، ومن أبرز ما ورد في السنة المطهرة تخلية النفس عن: (الشرك، والرياء، وحب الجاه، وحب الدنيا، والهوى، والحسد، والكبر، والشح، والغرور، وحب الرياسة، والحمية للنفس، والغضب، والتسويف، والإسراف، والغيبة، والعلو، والطمع، والهلع، والتقصير)، ولا تخفى النصوص النبوية الواردة في النهي عن هذه الآفات، والحث على تطهير النفس منها، وسبل الهدي النبوي في تخليص الناس منها.

الركن الثاني: التحلية بالفضائل، والسمو بالنفس إلى كل خير وعمل صالح، فيدخل في هذا النصوص النبوية الآمرة بكل خير مما يتصل بالإيمان، والعبادة، والأخلاق، فكل هذا هو سلم التزكية، والوصول بالنفس إلى منازل المخلصين، وملكوت الطائعين.

---

(1) رواه أحمد (٣٦/ ٥٤٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(١/ ٧١٢).

ومن جوامع هذا الباب: حديث أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة، فاعمل حسنة تمحها رواه الترمذي وغيره وحسنه الألباني، وقول النبي الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: " إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة[1] " .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم آثار الذنوب على القلوب والنفوس في تدسيتها، وآثار الطاعات والفضائل في تزكيتها، بمثل مضروب يقرب المعنى بألطف عبارة، كما في صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه[2].

أليات التزكية:

وأما طرق التزكية فإننا نلمح من النصوص النبوية المبثوثة آليات يستعملها المسلم في تزكية نفسه، مثل: مجاهدة النفس، وإصلاحها، ومحاسبتها، والاجتهاد في العبادات، ودوام مراقبة الله، وتذكر الموت، وقصر الأمل، وترك المحرمات، وفعل الواجبات، والمبادرة إلى التوبة، والاستغفار وغيرها .

وفي هذا البحث ، اثر العبادات في تزكية النفس .

---

(1) رواه مسلم (١/ ٤٨) .

(2) رواه مسلم (١/ ١٢٨) .

لعلك أيها القارئ تجد بغيتك إن شاء الله

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ان يوفقنا وإياكم لتزكية نفوسنا .

وقفة مع النفس

الا يا نفس ويحك ساعديني بسعي منك في ظلم الليالي

لعلك في القيامة ان تفوزي بطيب العيش في تلك العلالي

لابد من جهاد النفس في لزوم الحق والثبات على التوبة؛ لأن النفس تحتاج إلى جهاد،

يقول الله تعالى :(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)[1]

ويقول عز وجل : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[2] ومعنى قوله سبحانه : جَاهَدُوا فِينَا أي جاهدوا أنفسهم وجاهدوا الكفار وجاهدوا المنافقين وجاهدوا العصاة وجاهدوا الشيطان، فالآية عامة تشمل أنواع الجهاد، ومن ذلك جهاد النفس؛ لأنه سبحانه حذف المفعول ولم ينص عليه في الآية، حتى تعم جميع أنواع الجهاد، فالنفس تحتاج إلى تربية وعناية وصبر وجهاد، كما يقول الشاعر:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت

ويقول الآخر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال الآخر:

---

(1) سورة العنكبوت ، الآية ٦ .

(2) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هذه ثلاثة أبيات جيدة مطابقة لأحوال النفس.

فالمؤمن الحازم هو الذي يجاهد نفسه لله حتى تستقيم على الطريق وتقف عند الحدود، وبذلك يهديه الله سبيله القويم، وصراطه المستقيم، ويكون المؤمن بذلك من المحسنين، الذين قال فيهم سبحانه:(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[1] وقال فيهم عز وجل :(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)[2]؛

والله ولي التوفيق .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تزكية النفس اشراقة ربانية وسعادة قلبية

التزكية فلاح وراحة بال

والتزكية في اللغة : مصدر زكى الشيء يزكيه[1]، ولها معنيان:

المعنى الأول: التطهير، يقال: زكيت هذا الثوب تزكية، أي: طهرته، ومنه الزكاء، أي الطهارة.

والمعنى الثاني: الزيادة، ويقال: زكا المال يزكو إذا نما وزاد[2]، ومنه الزكاة، لأنها تنمية للمال وزيادة له.

وعلى أساس المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي في تزكية النفوس، فتزكية النفس شاملة لأمرين: الأمر الأول: تطهيرها من الأدران والأوساخ.

والأمر الثاني: تنميتها بزيادتها بالأوصاف الحميدة.

أما المعنى الأول فهو تخليتها من الأخلاق الذميمة

السعادة في التزكية:

إن من أعظم فوائد التزكية وعواقبها على أصحابها أنها تهبهم سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، قال ابن الجوزي: من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال: قال تعالى

---

(1) انظر المعجم الوسيط (١/ ٣٩٦)وتهذيب اللغة (١٠/ ١٧٥) .

(2) انظر الصحاح (٦/ ٢٣٦٨) نما، وانظر اللسان نما والقاموس (٤/ ٣٣٩) ، والمصباح المنير (١/ ٢٥٤) «زكا» . والنظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب (١/ ١٣٩)و الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ١٧٦) .

: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)[١] .

وقال الداراني: "من صفى صفي له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله[٢].

وكان بعض المشايخ يدور على المجالس يقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله"[٣].

وصدق الله تعالى إذ يقول: " (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [٤]" .

إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان مؤلفاً من ثلاثة عناصر، هي: العقل والبدن والروح.

وأشرف هذه العناصر الثلاثة الروح التي هي نفخة غيبية من عند الله "(يسألونك عَن الرّوح قل الرّوح من أَمر رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ من الْعلم إِلَّا قَلِيلا)[٥] ".

وقد رتب الله على هذه العناصر الثلاثة عناصر الدين فجعل الإسلام لمصلحة البدن، والإيمان لمصلحة العقل، والإحسان لمصلحة الروح، وجعل التكامل بين هذه العناصر والتوازن بينها مطلوباً، فلا يكون الإنسان سوياً مستقيماً إلا بالاعتدال والتوازن بين هذه العناصر، فلا بد من العناية بها جميعاً والسير بها في خط متواز، حتى لا يحصل ميل أو اعوجاج في هذه النفس البشرية، فإن من مال إلى أحد هذه العناصر دون غيره وأولاه عناية على حساب الجوانب الأخرى كان إنساناً معوجاً غير مستقيم.

---

(١) سورة الجن ، الآية ١٦.

(٢)انظر صفة الصفوة (٢/ ٣٨٤) وذم الهوى (ص: ١٨٥).

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة الشمس ، الآيات ٩ - ١٠ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٨٥.

وأهم هذه الجوانب وأشدها خطراً هو عنصر الإحسان الذي لا يكمل إيمان المسلم إلا به، وعنصر الإحسان إنما يتعلق بتزكية النفس .

من مقاصد القران الكريم تزكية النفس البشرية

ومن مقاصد القرآن: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاح في الأولى والآخرة لها إلا بالتزكية، كما قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[١] ، فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسيها، استعدادها للتقوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أي الطريقين: طريق التزكية أو طريق التدسية.

ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح. قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى)[٢] وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: (وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى)[٣] .

ورسالات الأنبياء جميعا كانت دعوة إلى التزكية. ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أرسل إليه من ربه: (هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[٤] .

---

(١) سورة الشمس ، الآيات ٧-١٠ .

(٢) سورة الأعلى ، الآية ١٤.

(٣) سورة طه ، الآيات ٧٥- ٧٦ .

(٤) سورة النازعات ، الآيات ١٨- ١٩ .

وكان من الشعب الأساسية لرسالة مُحَمَّد ﷺ: التزكية، كما جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله: منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ)[1]

ومنها قوله عز وجل: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[2] .

وقال سبحانه: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)[3] .

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) [4]

والتزكية مشتقة من: زكا يزكو زكاة. وهي كلمة تتضمن معنيين أو عنصرين: الطهارة والنماء.

ولذا كانت مهمة النبي ﷺ مع العرب الأميين ذات شقين:

الأول: تطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله، وتطهير القلوب من قسوة الجاهلية وغلظتها، وتطهير الإرادات من الشهوات البهيمية، والنزوات السبعية، وتطهير السلوك من رذائل الجاهلية.

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٢٩ .

(2) سورة البقرة ، الآية ١٥١.

(3) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤.

(4) سورة الجمعة ، الآية ٢.

والثاني: هو تنمية العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والإرادات بالتوجه إلى عمل الصالحات، والسلوك بالتزام العدل والإحسان ومكارم الأخلاق.

وهذا ما فعله النبي ﷺ، فقد علم العرب الكتاب والحكمة، وزكاهم أعظم تزكية، بما هدم فيهم من أفكار الوثنية وانحرافات الجاهلية، وما بنى فيهم من معارف التوحيد، وفضائل الإيمان، فكانوا بحق: (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[1] .

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ)[2] كما لا بد من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: (وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) [3] .

وقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم لعبوسه في وجه المسلم الأعمى، الذي جاءه يسعى، وهو يخشى، ولكنه عنه تلهى. وإنما تلهى بدعوة كبراء القوم، رجاء أن يشرح الله صدورهم للإسلام.

بيد أن الله تعالى عاتب رسوله واشتد في عتبه، لإعراضه عن الأعمى الذي يرجى أن يكون مجيئه إليه طلبا للتزكية، قال تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)[4] .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١١٠.

(2) سورة النور ، الآية ٢١.

(3) سورة فاطر، الآية ١٨.

(4) سورة عبس ، الآيات ١-٣.

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[١] .

كما بين أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه الزكاة المنشودة للأنفس، كما قال تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)[٢] .

وقال في أدب الاستئذان: (وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)[٣] .

بل بين القرآن أثر الالتزام بالأحكام الشرعية التي فرضها الله تعالى في شئون الأسرة وغيرها في هذه التزكية، كما قال تعالى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[٤] .

إن الذي لا ريب فيه: أن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى: بتزكية هذه الأنفس، حتى تنتقل من (النفس الأمارة بالسوء) إلى (النفس اللوامة) ثم (النفس المطمئنة) . وهذا يحتاج إلى جهاد، ولكنه جهاد غير ضائع كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[٥] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٣.
(٢) سورة النور ، الآية ٣٠.
(٣) سورة (النور ، الآية ٢٨.
(٤) سورة (البقرة ، الآية ٢٣٢
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

وأهم ما يجب أن تتحلى به النفس الزكية هو: أخلاق المؤمنين، التي جلاها القرآن، ولا سيما في أوائل سور الأنفال والمؤمنين، وأواسط الرعد والذاريات، وأواخر الفرقان والحجرات وغيرها، والتي تمثلت في الخلق النبوي، حتى كان خلقه – عليه الصلاة والسلام– القرآن، كما وصفته أم المؤمنين عائشة ﵂.

وأهم ما يجب أن تتطهر منه النفس الزكية هو: أخلاق النفاق، ورذائل المنافقين، التي جلاها القرآن أبلغ تجلية، وخصوصا في سور التوبة والبقرة والنساء والمنافقون وغيرها.

تزكية النفس في أدعية النبي ﷺ

أخبرنا الحقُّ سبحانه عن طبيعة النفس فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[1] وأن الفلاح في تزكيتها، فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[2].

وموضوع تزكية النفس موضوعٌ عريض، وقد كتب فيه العلماءُ الكثيرَ الطيب، ومما ينفع في هذا الباب التوجُّه إلى الله سبحانه، والاستعانة به في تزكية النفس وصلاح القلب.

وقد لاحظت اهتمام كثيرٍ من الناس بالاستعاذة من شرور الآخرين، وهذا حقٌّ، فقد علَّمنا الحقُّ سبحانه أن نستعيذ من خمسةِ شرور في سورتي المعوذتين، هي:

١- شر المخلوقات كلِّها.

٢- والشرور التي تحدثُ في الليل عندما يُقبِل بظلامه.

٣- وشر النفوس الخبيثة من السواحر.

---

(١) سورة الشمس، الآية ٧-٨.

(٢) سورة الشمس، الآية ٩- ١٠.

٤- وشر الحاسدين الذين يتمنَّون زوالَ النِّعم عن أصحابها.

٥- وشرِّ شياطين الجن والإنس.

ولكن بعض الناس ربما لا يعلمون خطورة شرِّ النفس، وأثر ذلك على دينه ودنياه.

وقد ورَد أن النبي ﷺ قد خص النفس بدعوات مباركة لإصلاحها وتزكيتها، والاستعاذة بالله سبحانه من شرورها.

وهذه الأدعية هي:

١- ((اللهمَّ إني أعوذ بك من العجْزِ والكَسَلِ، والجُبنِ والبُخْلِ، والهَرَمِ وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها، أنت وَلِيُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشَع، ومن نفْسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تستجاب))[١].

٢- قال أبو بكر الصديق: يا رسولَ الله، مُرني بكلماتٍ أقولهن إذا أمسيتُ وإذا أصبحت، قال: ((قل: اللهمَّ فاطر السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيب والشَّهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفْسي، وشرِّ الشيطان وشركه، قال: قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك))[٢].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨) ورواه البخاري مختصرا (٤/ ٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٢) وأبو داود (٤/ ٣١٧) والنسائي (٧/ ١٣٧) وصححه الالباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١١) وقال ابن حجر في تخريج الأذكار: "هو حديث صحيح"..

٣- وقال رسول الله ﷺ: ((يا فلان، إذا أويتَ إلى فراشك، فقل: اللهمَّ أسلمتُ نَفْسي إليك، ووجَّهْتُ وجهي إليك، وفوَّضْتُ أمْري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت، فإنك إن متَّ في ليلتك متَّ على الفطرة، وإن أصبحتَ أصبتَ خيرًا))[١].

وفي رواية قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((إذا أتيتَ مَضْجعكَ فتوضَّأ وُضُوءك للصلاة، ثم اضطَجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، وقل - وذكر نحوه - وفيه: واجعلهن آخر ما تقول))، فقلتُ أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، فقال: ((لا، وبنبيِّك الذي أرسلت))؛[٢] هذه رواية البخاري، ومسلم.

٤- عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ﷺ قال: وقال لي رسولُ الله ﷺ دَعَوات المكروب: ((اللهم رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنت))[٣]

٥- قال ابن عباس: "بِتُّ ليلة عند خالتي ميمونةَ بنتِ الحارث، فقلت لها: إذا قام النبيُّ ﷺ فأيقظيني، فقام رسولُ الله ﷺ، فقُمتُ إلى جنبه الأيسر، فأخذ بيدي فجعلني من شِقِّه الأيمن، فجعلت إذا أغفيتُ يأخذ بشحمة أُذُني، قال: فصلَّى إحدى عشرة ركعة، ثم احتبى، حتى إني لأسمع نَفَسَه راقدًا، فلما تبيَّنَ له الفجرُ صلَّى ركعتين خفيفتين"[٤].

---

(١) رواه البخاري (٩/ ١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٦٨)ومسلم (٤/ ٢٠٨٢).

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٣٢٤)والنسائي (٩/ ٢٤١) وأحمد (٣٤/ ٧٥)والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢١٢) وابن حبان (٣/ ٢٥٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٣٨).

(٤) رواه البخاري (٦/ ٤١)ومسلم (١/ ٥٢٨).

وفي رواية: فدعا رسولُ الله ﷺ ليلتئذٍ بتسع عشرة كلمة، قال سلمةُ: حدَّثَنيها كريب، فحفظتُ منها ثنتَي عشرة، ونسيتُ ما بقي، قال رسول الله ﷺ: ((اللهمَّ اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يديَّ نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعظم لي نورًا))[1].

٧- قال رسول الله ﷺ: ((كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبَّك، وحبَّ من يُحِبُّكَ، وحبَّ العمل الذي يبلِّغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفْسي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد))[2].

إن الدعاء له شأنٌ عظيم في إصلاح النفس، ويلاحظ أن النبي ﷺ كان يكثر من قوله: "والذي نفسي بيده"، وهو قسَم يدلُّ عل أهمية النفس البشرية، ويشير إلى أنها مملوكةٌ لله سبحانه، وأن العبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا بإذنه تعالى.

دُعَاءُ تزكيةِ النَّفْسِ

روى مسلم[3] عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه[4]،قَالَ: «لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالجبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ

---

(1) رواه البخاري (٨/ ٧٠)مسلم (١/ ٥٢٩).

(2) رواه الترمذي(٥/ ٤٠٠) وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ..

(3) مسلم: هو مسلم بن الحجاج القُشَيري النيسابوري، صاحب الصحيح، ولد سنة أربع ومائتين، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور.

(4) زيد بن أرقم الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه نزيل الكوفة، شهد غزوة مؤتة، وغيرها، مات بالكوفة سنة ثمان وستين.

خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[1].

معاني الكلمات:

أَعُوذُ: أي أعتصم وأستجير.

العَجز: أي عدم القدرة على العمل.

الكسل: أي التثاقل عَن العمل.

الجُبن: أي الخوف بلا مبرِّر.

البُخل: أي حب المال وجمعه بلا فائدة.

الهَرَم: الضعف بعد الكِبَر.

زَكِّهَا: أي طهِّرها.

خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا: أي لا مزكِّي لها إلا أنت.

وليُّها ومولاهَا: أي أنت الذي تتولاها بالحفظ والرعاية.

لا يخشعُ: أي من سماع الآيات القرآنية، ومن رؤية الآيات الكونية.

لا تشبعُ: أي لا تقنع برزق الله.

منْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ: أي أعوذ بك من الطمع.

[1] تقدم تخريجه صفحة ١٧.

المعنى العام:

كان النَّبِي ﷺ يدعو الله عز وجل قائلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»؛ أي: عَن الطاعة والعمل، «وَالجبْنِ»؛ أي: الخوف من لقاء العدو، «وَالْبُخْلِ»؛ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، «وَالهَرَمِ»؛ أي: الضَّعف بعد الكبر، «وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا»؛ أي: اجعَل نفسي في مَعزِلٍ عَن المعصية، «وَزَكِّهَا»؛ أي: طهِّرها من الذنوب والمعاصي.

«أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا»؛ أي: لا مزكِّي لها إلا أنت، «أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»؛ أي: أنت الذي تتولاها بالحفظ والرعاية، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»؛ لأنه سيكون حُجَّة عليَّ، «وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ» من سماع الآيات القرآنية ومن رؤية الآيات الكونية، «وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ» في هذا استعاذة من الحرص والطمع والشرَّه، وتعلُّق النفس بالآمال البعيدة، «وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»؛ أي: لا يستجيب الله لها.

فائدة:

قال الإمام النووي: «هذا الحديث وغيره من الأدعية المسجوعة دليلٌ لِما قاله العلماء: إن السجع المذموم في الدعاء هو المتكلَّفُ، فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الخشوع والخضوع والإخلاص، وَيُلْهِي عَن الضَّرَاعَةِ وَالِافْتِقَارِ وفراغ القلب، فأما ما حصل بِلَا تَكَلُّفٍ، ولا إِعْمَالِ فِكْرٍ لكمال الفصاحة، ونحو ذلك، أو كان محفوظًا، فلا بأس به، بل هو حسن»[1].

الفوائد المستنبطة من الحديث:

[1] انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي (٤١/١٧)

١- يجب على المسلم أن يكون مفتقِرًا إلى الله عز وجل دائمًا.

٢- قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يُقلبها كيف يشاء؛ وهذا يجعل المؤمن منكسِرًا إلى الله دائمًا.

٣- تقرير الإيمان بعذاب القبر.

٤- من الأشياء المذمومة التي ينبغي للمسلم أن يحذر منها: علْمٌ لا يعمل به، وقلبٌ لا يخشع لله، ونفسٌ لا تشبع ولا تقنع برزق الله.

٥- استحباب الدُّعَاء بهذا الذِّكْر الوارد عَن النَّبِي ﷺ.

٦- حرص الصحابة ﷺ على التأسي بالنَّبِي ﷺ.

٧- وجوب الاستعاذة بالله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

٨- الحديث فيه ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أفعاله التي يفعلها.

مقاصد السنة النبوية في تزكية النفس

التزكية مقصد من مقاصد بعثة الرسل عموما، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" انتهى[١].

(١)مدارج السالكين (٢/ ٣٠٠).

وهي غاية من غايات بعثة النبي ﷺ على وجه الخصوص كما قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)[1]، فهو يزكيهم بمعنى: يدلهم على ما تزكو به نفوسهم، وليس هو فاعل التزكية فيهم، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)[2] .

وقد حاز النبي ﷺ على التزكية الربانية في إيمانه وعبادته وخلقه، فأرسله الله لتزكية هذه الأمة، وتطهير النفوس من دسائسها وأمراضها، وملئها بكل خصال الطهر والنقاء، وقد كان ذلك في أصحابه رضوان الله عليهم، الذين تحقق فيهم هذا المقصد العظيم بأبهى صوره، حيث عمل فيهم النبي ﷺ على مسارات التزكية الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، فكانوا صفوة لا تتكرر، وبقيت الأمة تتوارث منهجهم في التزكية، وعلى قدر قرب الأمة وبعدها من هذه القدوات يكون موقعهم من هذا المقصد العظيم (التزكية).

ومفهوم التزكية كما يرى ابن تيميه في الفتاوى: (تكون بعمل الصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير)[3].

ويمكن القول بأن تزكية النفس: عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل، والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا، والفلاح والنجاة في الآخرة.

---

(1) سورة آل عمران، الآية ١٦٤ .

(2) سورة النور ، الآية ٢١.

(3) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨)

وإذا كانت التزكية أحد مقاصد بعثة النبي ﷺ، فإننا سنجد ذلك مبثوثا في صفحات السنة النبوية، وهذه بعض الإشارات التي تبرز هذا المقصد لا على جهة الاستيعاب:

مقصد التزكية في الدعاء النبوي:

مطلب التزكية ظاهر في دعائه المأثور، فكان من دعائه ﷺ كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»([1]). وهو من الأدعية التي يبرز فيها مقصد تزكية النفس.

خطوات عملية لإصلاح النفس الأمارة بالسوء

فإن ألد أعداء الإنسان هما الشيطان ونفسه التي بين جنبيه، قال الله تعالى:(إِنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)[2] وقال أيضا: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)[3]، وقال تعالى: وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)[4]، وقال تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

([1]) تقدم تخريجه صفحة ١٧ .

([2]) سورة فاطر ، الآية ٦ .

([3]) سورة يس، الآية ٦٠ .

([4]) سورة النساء، الآية ٦٠.

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)([1]) ، إلى غير ذلك من آيات كثيرة توضح عداوة الشيطان للإنسان وأنه له بالمرصاد.

وقال عن نفس الإنسان:(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] ولعظيم شأن النفس أقسم الله تعالى بها في أكثر من موضع في القرآن، فقال سبحانه: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[3] ،

وقال تعالى أيضا: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)[4] .

ولقد نهانا الله نهيا شديدا عن اتباع هوى النفس، فقال سبحانه وتعالى:(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)[5] ،

وقال أيضا:(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)[6]، وقال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)[7] .

واعلم أن النفس الأمارة بالسوء إنما كانت كذلك لاستجابتها لوسوسة الشيطان، قال السعدي رحمه الله عند قوله تعالى (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[1] قال: أي لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان ومنها يدخل على الإنسان. انتهى[2].

([1]) سورة المائدة ، الآية ٩١.
([2]) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .
([3]) سورة القيامة ، الآية ٢.
([4]) سورة الشمس ، الآية ٧.
([5]) سورة النجم ، الآية ٢٣.
([6]) سورة ص ، الآية ٢٦.
([7]) سورة الجاثية ، الآية ٢٣.

وأما الخطوات التي لو اتبعتها تصلح بها نفسك الأمارة بالسوء، فهي أولا المشارطة: وذلك بأن تشترط عليها أن تقلع عن السوء، وأن تلزم تقوى الله وطاعته وحبذا لو كان ذلك منك في كل صباح حتى تصل إلى ما تريد.

ثانيا: بالمراقبة: بأن تراقب نفسك هل هي فعلا قد أوفت بما اشترطته عليها أم لا.

ثم ثالثا: المحاسبة: بأن تحاسبها على الأفعال والأقوال.

ثم رابعا: المجاهدة بأن تقصرها قصرا على طاعة الله وتلزمها إلزاما بمخالفة الهوى والشيطان، وراجع تفصيل هذه الخطوات في كتاب (مختصر منهاج القاصدين)[٣]، والكتاب نافع كله، خاصة ربع (المهلكات) وربع (المنجيات)، ومع اتباع الخطوات الآنف ذكرها أكثر من دعاء الله أن يكفيك شر نفسك، والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويعيذنا من شر نفوسنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أكمل أحوال العبد اعتدال الخوف والرجاء مع غلبة محبة الله

الا يا نفـــــس ويحـــــك ســـــاعديني بســـــعي منـــــك في ظلـــــم الليـــــالي

لعلـــــك في القيامـــــة ان تفـــــوزي بطيـــــب العـــــيش في تلـــــك العـــــلالي

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠٠) .

(٣) ل تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) اختصره: الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان.

سياسية تهذيب النفس

والـــنفس كالطفـــل إن تهملـــه شـــب علـــى ... حـــــب الرضـــــاع وإن تفطمـــــه يـــــنفطم

وجاهـــــد الـــــنفس والشـــــيطان واعصـــــهما ... وإن همـــــا محضـــــاك النصـــــح فـــــاتهم

فاصـــــرف هواهـــــا وحـــــاذر أن توليـــــه ... إن الهـــــوى مـــــا تـــــولى يصـــــم أو يصـــــم

وراعهـــــا وهـــــي في الأعمـــــال ســـــائمة ... وغـــــن هـــــي اســـــتحلت المرعـــــى فـــــلا تســـــم

وكـــــم حســـــنت لـــــذة للمـــــرء قاتلـــــة ... مـــــن حيـــــث لم يـــــدر أن الســـــم في الدســـــم

وإخشـــى الدســـائس مـــن جـــوع ومـــن شـــبع ... فـــــرب مخمصـــــة شـــــر مـــــن الضـــــخم

وإســـتفرغ الـــدمع مـــن عـــين قـــد إمـــتلأت ... مـــــن المحـــــارم واللـــــزم حميـــــة النـــــدم!

وخـــالف الـــنفس والشـــيطان وإعصـــيهما ... وإن همـــــا محضـــــاك النصـــــح فـــــإتهم!!

ولا تطـــــع منهمـــــا خصـــــما ولا حكمـــــا ... فأنـــــت تعـــــرف كيـــــد الخصـــــم والحكـــــم!!

إســـــتغفر الله مـــــن قـــــول بـــــلا عمـــــل ... لقـــد نســـبت بـــه نســـلا بـــذي عقـــم!!:[1]

---

(1) القصيدة للبوصيري شرف الدين ٦٠٨ - ٦٩٦ هـ/ ١٢١٢ - ١٢٩٦ م محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبد الله. شاعر حسن الديباجة، مليح المعاني، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، أمّه منها. وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون. ومولده في بهشيم من أعمال البهنساوية ووفاته بالإسكندرية له (ديوان شعر -ط) ،وأشهر شعره البردة مطلعها: أمن تذكّر جيران بذي سلم شرحها وعارضها الكثيرون، والهمزية ومطلعها: كيف ترقى رقيك الأنبياء وعارض (بانت سعاد) بقصيدة مطلعها (إلى متى أنت باللذات مشغول) الأعلام للزركلي (٦/ ١٣٩)..

إن المسلم يحتاج في حياته إلى تهذيب النفس حتى تستقيم له فتكون نفساً مطمأنة طيبة تدعوه إلى الخير وتحببه فيه وتنهاه عن المنكر وتنفره منه وهذا التهذيب لن يكون إلا إذا عاد المرء إلى نفسه فعلمها و أدبها وذكرها بتقصيرها في حق ربها ثم جعل لها القرآن قائدا والرسول أسوةً وانظر إلى حال مالك بن دينار حينما يدعو إلى العبد الذي يرجع إلى نفسه فيهذبها ويذكرها بتقصيرها فيقول: "رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائداً [1]

وإذا كان المسلم العادي يحتاج إلى تهذيب نفسه حتى تقوى صلته بالله فما بالنا بالدعاة والمصلحين وأصحاب الهمم الذين يحملون همّ الدعوة والإصلاح ويسيرون بين الناس هنا وهناك لنشر دعوتهم فلهم أشد حاجة إلى تهذيب أنفسهم حتى يستطيعوا أن يهذبوا غيرهم ولهذا رأينا الأمام علي ﷺ ينصح الأئمة والدعاة والمصلحين فينادي عليهم قائلاً:" من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتهذيب نفسه قبل تهذيب غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم": – بالطبع إذا ترك تعليم نفسه وتهذيبها – فانظر أخي إلى هذا الكلام الراقي الذي يفتقده الكثير من الدعاة والمصلحين خاصة من طلبة العلم وأهل الألتزم الجدد الذين ينصبون أنفسهم في بعض الأحيان أئمة يريدون أن يهذبوا الناس على الرغم من أنهم لم يهذبوا أنفسهم وتجد أفعالهم وسلوكياتهم وأخلاقهم بعيدة كل البعد عن أقوالهم وأحاديثهم، فيامن تنصب نفسك إماماً وداعيا لهذا الدين راجع نفسك وهذبها وأعلم أنك مسؤول وأن الناس ينظرون إليك ويقتدون بأفعالك فاحذر أن تكون معول هدم دون ان تشعر

([1]) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص: ٢٦) والخرائطي في اعتلال القلوب (١/ ٢٨).

ولقد حذر الكثير من أهل العلم والصلاح من ترك الإنسان لتهذيب نفسه مع إقدامه على تهذيب غيره، واسمع إلى هذه النداءات التي نحتاج إلى فهمها والوقوف معها: " من لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب، ومن لم ينعشك عبيره من على بعد فاعلم أنه لا طيب له ولا تتكلف لشمه " من لم ينفعك لحظه لم ينفعك لفظه ".

وانظر إلى سير الصالحين لتدرك أنهم كانوا يدعون الناس بسلوكهم وجميل سيرتهم وحسن أخلاقهم فيكاد الناس ينتفعون بأدبهم وبرؤيتهم أكثر من انتفاعهم بعلمهم وأقوالهم وأضرب لذلك بمثالين فقط: أحدهما: للإمام مالك رحمه الله- صاحب المذهب العروف والكتاب المشهور- الذي يقول عنه صاحبه: "ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه[1]"

والثاني: للحسن البصري[2] رحمه الله – صاحب الأقوال الباهرة والكلمات الرقيقة المعبرة والمواقف القوية الرائعة – الذي قالوا عنه: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير علمه ولم يسمع كلامه"، فانظر إلى الأدب وحسن السيرة وجميل الخلق كيف يكون لهم الأثر الكبير في إحداث الإصلاح وقبول الدعوة

([1]) انظر جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٠٩) ومن هدي السلف في طلب العلم (ص: ٥٦) .

([2])هُوَ: الإمام المشهور المجمع على جلالته في كل فن، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار التابعي البصرى، بفتح الباء وكسرها، الأنصاري، مولاهم مولى زيد بن ثابت، ثقة فقيه فاضل مشهور كان علماً من أعلام السلف رحمة الله عليهم، وعالماً من علمائهم، وكان كلامه يشبه كلام الأنبياء، تشرب العلم حتى نطق بالحكمة، وصار حليف الخوف والحزن، وأليف الهم والشجن، وعديم النوم والوسن، وكان فقهاً زاهداً مشمراً عابداً رحمه الله تعالى. ولد في سنة إحدى وعشرين من الهجرة بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ومات سنة عشرة ومائة وقد قارب التسعين.. انظر سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٥٦٣)و تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٢٥)

ونشر الخير فعلينا أن نهذب أنفسنا ونلزمها الخير والسلوك الطيب حتى نتمكن بعدها من تهذيب الغير بيسر وسهولة فيتحقق الخير للأمة وينتشر الدين بين الناس فيسعد الجميع في الدنيا والآخرة.

كيفية التغلب على النفس

قال تعالى: ((قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))[1] فهذه الآيات تشرح صدرك وتزيل همك وغمك، وتجلب سعادتك، فلا تقنط ولا تيئس من المغفرة، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[2].

ولا تحزن من أذية الآخرين لك، واعف عمن أساء إليك، واعلم يا أخي أن هناك فتحاً مبيناً وفرجاً بعد الشدة ويسراً بعد عسر، وهناك أملاً مشرقاً ومستقبلاً حافلاً ووعداً صادقاً، إن لضيقك فرجة وكشفاً، ولمصيبتك زوائل، وإن هناك أنساً وروحاً وندى وظلاً.

أخي! داوِ شكك باليقين في كرم الله وعطائه، واطمئن يا أخي فإن العواقب حسنة والنتائج مريحة بإذن الله تعالى، فاصدق في توبتك ورجوعك إلى الله تعالى، وسيجعل الله لك بعد الفقر غنى، وبعد الظمأ رياً، وبعد الفراق اجتماعاً، وبعد الهجر وصلاً، وبعد الانقطاع اتصالاً، وبعد السهاد نوماً هادئاً ((لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا))[3].

---

(1) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(2) رواه مسلم (٤/ ٢١١٣).

(3) سورة الطلاق، الآية ١.

وحاول يا أخي في توبتك الصادقة، ورجوعك إلى الله تعالى أن تتبع الخطوات التالية:

١- اصدق نيتك في التوبة لله عز وجل.

٢- اقلع عن الذنب وعاهد الله أن لا ترجع إليه مرةً أخرى.

٣- أكثر من الصلاة والدعاء واللجوء إلى غافر الذنب وقابل التوب.

٤- ابعد عن الصحبة السيئة وخالط الرفقة الصالحة التي تذكرك بالحق وتعينك عليه.

٥- اترك باب الأمل والرجاء دائماً مفتوحاً، بأن الله سيبدل سيئاتك حسنات إذا أنت صدقت النية مع ربك.

خليك مع الله {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[١] يفتح لك ابواب كلها .

إن مسَّـــنا الضُـــرُّ، أو ضـــاقت بنـــا الحِيَـــلُ ... فلـــنْ يخَيـــبَ لنـــا في ربِّنـــا أمـــلُ

وإن أناخـــت بنـــا البلـــوى فـــإن لنـــا ... ربًّا يُحَوِّلُهـــا عنّـــا فتنتقـــلُ

اللهُ في كـــلِّ خَطـــبٍ حســـبنا وكفـــى ... إليـــه نرفـــعُ شـــكوانا ونبتهـــلُ

مـــن ذا نلـــوذُ بـــه في كشـــف كربتنـــا ... ومـــن عليـــه ســـوى الـــرحمن نتكـــلُ

وكيـــفَ يُرجـــى ســـوى الـــرحمن مـــن أحـــدٍ ... وفي حيـــاضِ نـــداهُ النهـــلُ والعَلـــلُ

لا يُرتجـــى الخـــيرُ إلا مـــن لديـــه، ولا ... لغـــيره يُتَـــوقّى الحـــادثُ الجلـــلُ

خـــزائنُ اللهِ تُغـــني كـــلَّ مفتقـــرٍ ... وفي يـــدِ الله للسُّـــؤَّال مـــا ســـألوا

(١) سورة المزمل ، الآية ٩.

وســـــائلُ اللهِ مـــــا زالـــــت مســـــائلُهُ مقبولـــــةٌ مـــــا لهـــــا رَدٌّ ولا مَلـــــلُ

فـــــافزع إلى الله واقـــــرع بابَ رحمتـــــهِ فهـــو الرجـــاءُ لمـــن أعيـــت بـــهِ السُـــبلُ

وأحْسِـــنِ الظـــنَّ في مـــولاكَ وارضَ بمـــا أولاكَ يخـــل عنـــك البـــؤسُ والوجـــلُ

وإن أصـــابكَ عُسْـــرٌ فـــانتظرْ فرجًـــا فالعســـرُ باليســـرِ مقـــرونٌ ومتصـــل

تزكية النفس لطالب العلم والبعد عن التعصب

نقل الإمام البهوتي من كلام الإمام ابن عقيل وصفا لحال الفقهاء وظلم بعضهم بعضا عند الخلاف فقال: "

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: رَأَيْتُ النَّاسَ لَا يَعْصِمُهُمْ مِنْ الظُّلْمِ إلَّا الْعَجْزُ وَلَا أَقُولُ الْعَوَامُّ بَلْ الْعُلَمَاءُ كَانَتْ أَيْدِي الْحَنَابِلَةِ مَبْسُوطَةً فِي أَيَّامِ ابْنِ يُونُسَ فَكَانُوا يَسْتَطِيلُونَ بِالْبَغْيِ عَلَى أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ فِي الْفُرُوعِ، حَتَّى مَا يُمَكِّنُوهُمْ مِنْ الْجَهْرِ بِالْبَسْمَلَةِ وَالْقُنُوتِ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ اجْتِهَادِيَّةٌ فَلَمَّا جَاءَتْ أَيَّامُ النَّظَّامِ، وَمَاتَ ابْنُ يُونُسَ وَزَالَتْ شَوْكَةُ الْحَنَابِلَةِ اسْتَطَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ اسْتِطَالَةَ السَّلَاطِينِ الظَّلَمَةِ، فَاسْتَعْدَوْا بِالسَّجْنِ، وَآذَوْا الْعَوَامَّ بِالسِّعَايَاتِ، وَالْفُقَهَاءَ بِالنَّبْذِ بِالتَّجْسِيمِ قَالَ: فَتَدَبَّرْتُ أَمْرَ الْفَرِيقَيْنِ فَإِذَا بِهِمْ لَمْ تَعْمَلْ فِيهِمْ آدَابُ الْعِلْمِ وَهَلْ هَذِهِ إلَّا أَفْعَالُ الْأَجْنَادِ، يَصُولُونَ فِي دَوْلَتِهِمْ، وَيَلْزَمُونَ الْمَسَاجِدَ فِي بَطَالَتِهِمْ"

قلت: هذه من آثار غياب التزكية المطلوبة لطالب العلم، إذ يظهر أثر هذا الغياب عند هذه الاختلافات[1].

(1) كشاف القناع (1/ 582).

قال ابن الجوزي في كتابه (رأيت جماعة من المنتسبين للعلم يعملون عمل العوام ، فإذا صلى الحنبلي في مسجد شافعي ولم يجهر غضبت الشافعية ، وإذا صلى شافعي في مسجد حنبلي وجهر غضبت الحنابلة، وهذه مسألة اجتهادية، والعصبية فيها مجرد هوى يمنع منه العلم)[1].

من تزكية النفس إخلاص الإخلاص

ذكر الذهبي في (السيَر) عن أبي حاتم الرازي قال: حدثنا عبدة بن سليمان المروزي قال: "كنا سريّة مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادَفَنا العدو، فلما التقى الصفان؛ خرج رجل من العدو، فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل من المسلمين فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل من المسلمين، فطارده ساعةً، فطعنه المسلم فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرتُ فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتم وجهه بكمّه، فأخذتُ بطرف كمّه فمددته، فإذا هو هو. فقال: وأنتَ يا أبا عمرو ممن يشنّع علينا!"[2].

. لا أجد عنوانًا يناسب هذه القصة إلا (إخلاص الإخلاص)، فهو من المعالم الواضحة فيها وفي حياة السلف عمومًا، والتي ينبغي الاسترشاد بها والسير على طريقها. فتأمل في القصة السابقة إخلاص هذا الإمام رحمه الله في هذا العمل الصالح، المتمثل في إخفاء نفسه عن أنظار الناس، في موقف يُتشوّف فيه لإظهار النفس، وتأمل إخلاصه في هذا الإخلاص، حيث غضب على مَن كشفه وأظهره للناس. سأتكلم بإذن الله عن هذا الموضوع من خلال نقاط غير مرتبة، تأملتها؛ علَّ الله أن ينفع بها راقمها وقارئها:

---

(1) منهج ابن الجوزي في الدعوة إلى الله (ص: ٥٢)

(2) سير أعلام النبلاء:(٨/ ٣٩٤) وتاريخ بغداد:(١٠/ ١٦٧).

١- إخلاص العمل لله سبحانه فيه مشقة وعسر، إلا مَن يسَّره الله تعالى عليه؛ لأن الإخلاص عمل قلبي خفي، لا يطّلع عليه البشر، وليس للإنسان فيه نصيب، ولأنه يحتاج إلى عناية مستمرة، فالنية تتقلب، وكذلك ارتباط الإخلاص بكل عمل يعمله المسلم، صغيرًا كان أم كبيرًا. قال يوسف بن الحسين: "أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر"[١] .

، ويقول سفيان الثوري: "ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي؛ لأنها تتقلب عليّ [٢]، ويقول يوسف بن أسباط: "تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد"[٣] .

٢- إخلاص الإخلاص قدر زائد على الإخلاص، فهو كالقيد لهذا العمل يحفظه من الضياع، وكالصندوق يحمي به المسلم عمله من أن يسرقه وسوسة شيطان أو ثناء إنسان. فالمسلم إذا أخلص في عمل، يجب عليه أيضًا أن يحافظ على هذا الإخلاص بإخلاص آخر يصاحبه ويستمر معه فيخلّصه من شوائب الرياء.

٣- من مظاهر عدم الإخلاص في الإخلاص إظهار النحول والتعب؛ ليدل به على صومه، بل والتحدث عن مشقة العبادات، فتجده مثلًا يقول: لقد لقينا من حجنا أو صومنا هذا نصبًا، وربما ذم نفسه أمام الملأ ليزيّن نفسه بذلك. يقول مطرف بن الشخّير: "كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه"[٤] .

---

(١) مدارج السالكين:٢/ ٩٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/ ٢٢٦).

(٢)جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٣١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/ ٢٦٤) بستان العارفين للنووي (ص: ٣٠) .

(٣)"جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/ ٢٥٧).

(٤) انظر كتاب شرح حديث ما ذئبان جائعان ص:٤٦ .

ومن تلك المظاهر: العُجْب بإخلاص العمل، بل تعدَّى الأمر ببعض الأفراد إلى نشر ما يقومون به من أعمال دعوية وخيرية على وسائل التواصل الاجتماعي، ونقش هذه الصور على توبيكاتهم وحساباتهم الشخصية، وكأنهم ينبهون الناس على فضيلتهم ومزيتهم، بل ترى بعض هؤلاء عندما تدخل إلى بيته كيف صفَّ الدروع والشهادات، وربما علق القصائد التي تشيد بجهوده وإنجازاته، وغيرها كثير من هذه المظاهر التي ينفر منها أهل الحق.

٤- كما تجتهد في أول العمل بمحاولتك الإخلاص فيه فاجتهد أيضًا بعد العمل إذا أخلصت فيه بكف صوارف الإخلاص من رياء وحب مدح وغيره، فالبعض يظن أن الإخلاص يكون في أول العمل فقط. جاء عن سليمان الهاشمي أنه قال: "ربما أُحدِّث بحديث واحد ولي نية، فإذا أتيت على بعضه تغيّرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات"[١].

٥- جاء ما يؤيد هذا المعنى في البخاري ومسلم[٢] مرفوعًا في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، حيث سألوا الله بصالح أعمالهم، والتي يجمع بينها الإخلاص، حيث إنهم لم يذكروا هذه الأعمال الخفية لأحد إلا في هذا الموضع الذي احتاجوا فيه لذكرها، والتوسل بها إلى الله؛ ليفرج عنهم كربتهم، ولذلك استجاب الله لهم دعاءهم؛ لعلمه بصدق إخلاصهم.

٦- إخلاص الإخلاص كما يكون في الفعل يكون في الترك أيضًا، ففعل الطاعة وترك المعصية كلاهما يحتاج إلى إخلاص الإخلاص فيهما، فكما تجتهد في إخلاصك في الطاعة؛ فاجتهد أيضًا في إخلاصك في ترك

---

(١)سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٢٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٧٣) ومسلم (٤/ ٢١٠١).

المعصية، فكم إنسان تحدّث عن صبره في مقاومة معصية من المعاصي، وكيف تركها مع توفُّر الدواعي لها، فهذا مما ينافي إخلاصه في ترك المعصية.

٧- استواء كتم الحسنات بكتم السيئات من علامات إخلاص الإخلاص، فإذا كان المسلم يتضايق ويتململ من انتشار حسنته بين الناس مثل تضايُقه من انتشار سيئته بينهم فهو على خير. جاء عن ابن حازم أنه قال: "اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك"[١] .

٨- ولا يدخل في هذا الموضوع مَن ترك العمل لأجل الناس ظنًّا منه أنه من الإخلاص، قال الفضيل: "ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما"[٢] .

٩- هذا الموضوع قد يمتد معك حتى بعد موتك، قال بشر بن الحارث: "قد يكون الرجل مرائيًا بعد موته، يحب أن يكثر الخَلْق في جنازته"[٣] .

فيعمل الأعمال الصالحة، وربما يخلص فيها، لكنه يتمنى أن يذكره الناس بعد موته بتلك الأعمال التي قام بها في حياته.

١٠- هنا مسألة مهمة ألا وهي: أنه إذا كان العمل لله وشاركه الرياء؟ إذا شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه، أما إذا كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فيبطل إذا كان العمل يرتبط أوله بآخره مثل الصلاة

---

(١) سير أعلام النبلاء(٦ / ١٠٠) وحياة السلف بين القول والعمل (ص: ٢٥٤) روضة الزاهدين (ص: ٨٢)

(٢)"مدارج السالكين (٢/ ٩٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨٢) سير أعلام النبلاء(٨/ ٤٢) شرح البخاري للسفيري = المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية (١/ ١٢٥) فتح المنان شرح وتحقيق كتاب الدارمي أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن (٢/ ٣١٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨٢)

(٣) سير اعلام النبلاء(١٠/ ٤٧٣).

والصيام، وأما ما لا يرتبط ببعضه مثل القراءة والذكر فإنه يبطل بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية[١]. ونختم هذا الموضوع ببستان جميل من قصص السلف الصالح في هذا الباب لعلها تُنبه غافلًا أو تذكِّر ناسيًا، فمن هذه القصص: تقول سُرِّيّة للربيع بن خثيم: "إنه كان يدخل على الربيع الداخل وفي حِجره المصحف فيغطيه")[٢].

وجاء عن الأعمش أنه قال: "كان عبدالرحمن بن أبي ليلى يصلي، فإذا دخل الداخل نام على فراشه"[٣] . وعن حماد بن زيد قال: "كان أيوب في مجلسه، فجاءته عَبرة، فجعل يمتخط، ويقول: ما أشد الزكام!"[٤] ، وعن ابن واسع أنه قال: "إن الرجل ليبكي عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم"[٥].

وجاء عن عاصم أنه قال: "كان أبو وائل إذا صلى في بيته ينشج نشيجًا، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه ما فعله"[٦] ، وعن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: "إذا كان المرء يحدّث في مجلس، فأعجبه الحديث؛ فليمسك، وإذا كان ساكتًا، فأعجبه السكوت؛ فليتحدث"[٧] وجاء عن سهل بن منصور أنه قال: قال: "كان بِشر يصلي، فيطوّل ورَجُل وراءه ينظر، ففطن له، فلما انصرف قال: لا يعجبك ما رأيتَ مني، فإن إبليس قد عَبَدَ الله دهرًا مع الملائكة"[٨] وكان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان

---

(١)جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٨٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٠).

(٣)الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٩٤) سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ٨٨٨)سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٤).

(٤)تلبيس إبليس (ص: ٢٢٨) صفة الصفوة (٢/ ١٧٥) الثقات لابن حبان (٨/ ١٤٦)سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠).

(٥)عدة المريد الصادق (ص: ١٥٠) صفة الصفوة (٢/ ١٦٠) روضة الزاهدين (ص: ٦٤)سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٧١) تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٥٢٩).

(٦)روضة الزاهدين (ص: ٣٤) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٩٠) تلبيس إبليس (ص: ١٢٨)موارد الظمآن لدروس الزمان (٦/ ٦٤١)سير أعلام النبلاء(٤/ ١٦٥).

(٧) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ٨٨) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٣٤٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٠).

(٨) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٦١).

كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[1].، وقال عون بن عبدالله في نصيحة للمتصدقين والمنفقين: "إذا أعطيت المسكين، فقال لك: بارك الله فيك؛ فقل أنت: بارك الله فيك، حتى تخلص لك صدقتك"[2] .

وجاء عن مقدم برنامج (صفحات من حياتي) الأخ فهد السنيدي أنه طلب لقاء من الشيخ مُحَمَّد بن سبيّل رحمه الله؛ ليتكلم عن سيرته فقال: "يا فهد، سيرتنا وأعمالنا الظاهرة هذه يعرفها الناس، وأما أعمالي الخفية لا يمكنني أن أتحدث عنها". وهذا غيض من فيض. نسأل الله تعالى الإخلاص في حركاتنا وسكناتنا، وأن يعاملنا بعفوه، ولا يَكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

ومن تزكية النفس معالجة النية

عن سفيان الثوري، قال: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَتِي، إِنَّهَا تَقْلَّبُ عَلَيَّ »[3] كثرة تقلب النية سببه سببه كثرة ما يغشى القلب ويهجم عليه من الصوارف والصواد، مما يتطلب دوام ملاحظة وعناية وإلا عطب وهلك، والله الحافظ

لقد كان السلف الصالح يحملون همّ الإخلاص قبل أي يعمل ينون القيام به، هذا أبو هريرة ﷺ

(1) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٩٩)صفة الصفوة (٣/ ٤٩٢) روضة الزاهدين (ص: ٦٤) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (١/ ٩٩) تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٦٢٠)) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٦/ ١٧).

(2)حلية الأولياء (٤/ ٢٥٣).

(3)الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٨٨).

كان إذا حدث بحديث الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار[١] يغشى عليه خوفا ووجلا أن يكون واحدا منهم.

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يقول: (ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيّتي أنها تتقلب عليَّ)[٢] .

وكان بعضهم إذا قيل له حدثنا، قال: لا.. حتى تأتي النية. وقال بعضهم: وددتُ أن عبادتي بيني وبين الله، لا تراها عين.

فانتبه لنيتك، وتفقد سريرتك واعلم {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}[٣].

حينها أبشر بالتوفيق إذا وطنت نفسك على الإخلاص: {إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ}[٤] .

ومن أمارات هذا الإخلاص ودلائله وعلاماته المشهورة أن تجد نفسك زاهداً في الدنيا، كثير الطمع في الآخرة، فلا تبحث عن سمعة، ولا تبحث عن رياء، ولا تلتمس رضوان أحد غير الله ﷻ.

تصبر وتكافح وتجاهد في طلب الإخلاص، لا تنثني لك عزيمة، ولا تنكسر لك شوكة، ولا تصرف وجهك عن الوجهة التي علمت فيها رضوان الله العظيم حتى تبلغ غايتك التي تريدها وتنشدها.

---

(١) الحديث رواه الترمذي (٤/ ٥٩٣) وابن حبان (٢/ ١٣٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٥٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في " الحلية " ٥/٧ و٦٢ وانظر ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٣١) وجامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٧٠) وحلية طالب العلم (ص: ١٤٢) .

(٣) سورة الرعد ، الآية ١١ .

(٤) سورة الأنفال، الآية ٧٠.

يروى أن معاوية ﷺ لما بلغه حديث أول من تسعر بهم جهنم المجاهد والعالم وقارئ القرآن الذين أقاموه للناس لا لله ،بكى حتى أغمي عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله؛ قال الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ}[1][2].

ولما كان الإخلاص بهذه المنزلة التي تقدم وصفها ،جاء الشرع المطهر في الحث عليه والترغيب فيه وبيان فضله في آيات كثيرة وأحاديث عديدة، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ}[3]، وقوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}[4] ، وقوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ}[5] الآية.. وقوله: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَه}[6] ، وقوله: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا}[7]، وقوله: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي}[8].

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ قوله لأصحابه في غزوة تبوك: "إن بالمدينة رجالا ما سرتم سيرا، ولا قطعتم واديا إلاّ كانوا معكم حبسهم المرض" وفي رواية: "إلاّ شاركوكم في الأجر"[9]:

---

(1) سورة هود ، الآية ١٥ .

(2) رواه الترمذي (٤/ ٥٩٣) والنسائي (١٠/ ٣٩٦) وابن حبان (٢/ ١٣٨) .

(3) سورة الزمر ، الآية ٢ .

(4) سورة البينة ، الآية ٥ .

(5) سور النساء ، الآية ١٤٦ .

(6) سورة الأنعام ، الآيات ١٦٢-١٦٣ .

(7) سورة الكهف الآية ١١٠ .

(8) سورة الزمر ، الآية ١٤.

الأجر"[1]: متفق عليه ومنها قوله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" [2]

من تزكية النفس عدم ترك الطاعة خوفا من الرياء

فلا شك أن الخوف من الرياء أمر محمود وهو من صفات المؤمنين، لأن الرياء نوع من الشرك ومحبط للعمل وموجب لسخط الله تبارك وتعالى، وقد خافه النبي ﷺ على أمته فقَالَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً."[3]

كما أن تعاهد النفس في الإخلاص ومحاسبتها على النية وتصحيح مسارها قبل العمل وأثناء العمل وبعد العمل كل هذا أمر مطلوب ومن دأب السلف الصالح، وقد سئل سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب[4].

وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي، إنها تتقلب علي[5].

وقال نعيم بن حماد: ضرب السياط أهون علينا من النية الصالحة.

وقال يوسف بن الحسين الرازي: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على ألوان أخر[1].

---

(1) رواه البخاري (٦/ ٨)ومسلم (٣/ ١٥١٨).

(2) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٦) .

(3) رواه أحمد (٩/ ٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٥)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٢٣) .

(4) انظر فتح المنان شرح وتحقيق كتاب الدارمي أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن (٢/ ٣١٢) وإحياء علوم الدين (٤/ ٣٨١) وصفة الصفوة (٢/ ٢٧٣).

(5) تقدم صفحة ٣٤.

ولكن الخوف من الرياء لم يحملهم على ترك الطاعات والانقطاع عن العبادة فلا ينبغي أن يترك المسلم الطاعة وينقطع عنها خوفا من الرياء وعليه المجاهدة لتصحيح النية لا أن يترك العمل، والذي نوصي به أختنا السائلة هو الاستمرار على ما هي عليه من الخير وحفظ القرآن وطلب ثواب ذلك من الله تعالى ومراقبة القلب وتعاهده في نيته بين الفينة والأخرى وتصحيح مسارها إن أحست بانحرافها عن الإخلاص وكثرة الاستغفار وهكذا حال المؤمن لا يزال مجاهدا لنيته على الإخلاص حتى يلقى ربه وهو على تلك المجاهدة والمصابرة، ونسأل الله أن يعيننا على الإخلاص له وأن يعيذنا من الرياء،

من تزكية النفس التذكير بالاخلاص الفينة بعد الفينة

الإخلاص منزلة عظيمة في دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[٢] وقال الله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [٣] وقال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٥] وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٦] والإخلاص كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هو حقيقة الإسلام[٧].

للسلف أقوال في الإخلاص، يسّر الله لي فجمعت بعضًا منها، أسأل الله أن ينفع بها.

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٨٤) وذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٦٦).

(٢) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١٤٦ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ١١٠.

(٦) تقدم تخريجه صفحة ٢٧ .

(٧) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤) وأمراض القلوب وشفاؤها (ص: ٤١) .

** قال عمر بن الخطاب ﷺ: أفضل الأعمال: أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله[١].

- وكتب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس[٢].

** قال عثمان ﷺ: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٣].

** قال أبو هريرة ﷺ: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل[٤].

** كتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهما الله: اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية، فمن

تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نقص بقدره[٥].

** كان معروف الكرخي رحمه الله يقول: يا نفس أخلصي تتخلصي[٦].

** قال يعقوب المكفوف رحمه الله: المخلص من يكتم حسناته، كما يكتم سيئاته[٧].

** عن سفيان الثوري رحمه الله:

- ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي، لأنها تتقلبُ عليّ[١].

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٢٦) والجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١/ ١٤٩) وذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٣٢) ومختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٦١)

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٠) وانظر إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ٤٤) وانظر الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٣٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٠).

(٤) انظر إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٤) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٢/ ١٧٤) لمحمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمي الحنفي (المتوفى: ١١٥٦هـ).

(٥) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (ص: ٢٤٤).

(٦) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٨).

(٧) المرجع السابق

- كانوا يتعلمون النية للعمل، كما تتعلمون العمل.

** قال ابن المبارك رحمه الله: رُب عملٍ صغير تُعظمه النية، ورُب عملٍ كبيرٍ تُصغره النية[٢].

** قال الربيع بن خثيم رحمه الله: كل ما لا يبتغي به وجه الله يضمحل[٣].

** قال الحسن رحمه الله: لا يزال العبد بخير ما إذا قال لله، وإذا عمل عمل لله عز وجل[٤]

** عن زبيد اليامي رحمه الله، قال: إني لأحبُّ أن تكون لي نية في كلِّ شيءٍ حتى في الطعام والشراب[٥] .

** قال سهل بن عبدالله رحمه الله: ليس على النفس شيء أشقَّ من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب[٦]

** قال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله: أعزُّ شيء في الدنيا: الإخلاص! وكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبتُ فيه على لون آخر[٧].

** قال مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية [٨].

---

(١) "تذكرة السامع والمتكلم" (٨٠) وبستان العارفين للنووي (ص: ٣٠) وحلية طالب العلم (ص: ١٤٢) .

(٢)انظر قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/ ٢٦٨) لمحمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) وإحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٤)و تزكية النفوس (ص: ١١) .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٩٠)وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٠٧)وأحمد بن حنبل في الزهد (ص: ٢٧٢)و الذهبي في تاريخ الإسلام (٦/ ١٩٥) .

(٤)رواه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق والزهد لنعيم بن حماد (٢/ ١٧)وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩٥)و ابن أبي شيبة (٧/ ١٩٦) .

(٥)قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (٢/ ٢٩٩) .

(٦) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٨٤) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٦٦).

(٧) انظر موارد الظمآن لدروس الزمان (٢/ ٤٢٠) وطريقك الى الإخلاص والفقه في الدين (ص: ٣٦) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٧٤/ ٢٢٦) .

(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٩٩) .

** قال الفضيل بن عياض رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة[2] .

** عن شداد بن أوس رحمه الله، أنه قال لما حضرته الوفاة: إن أخوف ما أخاف عليكم: الرياء [3].

** قال يحيى بن معاذ رحمه الله: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره باتباع السنة[4]

** قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله:

- الله يحب من عباده الإخلاص في عبادته، في التوحيد، وسائر الأعمال كلها التي يعبد بها، وفي الإخلاص طرح الرياء كله لأن الرياء شرك أو ضرب من الشرك[5].

- يدخل في الإخلاص التوكل على الله، وأنه لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع على الحقيقة غيره، لأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لا شريك له.

** قال الإمام الغزالي رحمه الله:

- قال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوى الخير فأنت بخير[6]

- يقال: العلم بذر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص.

([1]) سورة الملك ، الآية ٢.

([2]) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩٥)و ابن أبي الدنيا في كتابه الإخلاص والنية (ص:٥٠.٥١).

([3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥١) والبيهقي في الزهد الكبير (ص: ١٥٠)وابن المبارك في الزهد والرقائق والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٣٩٣)وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٤) .

([4]) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٧٥) .

([5]) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/ ٢٧٢) .

([6])إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٤) .

** قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله:

– ما أقلّ من يعمل لله تعالى خالصًا لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم[١].

– إذا عدم الإخلاص في الأعمال فهي تعب ضائع.

–الله الله في إصلاح النيات،... قال مالك بن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقًا لا يتعنى[٢]. وليعلم المرائي أن الذي يقصده يفوته، وهو التفات القلوب إليه، فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب، ولم يلتفت إليه أحد، والمخلص محبوب، فلم علم المرائي أن قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لما فعل.

** قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: النية للعمل كالروح للجسد[٣].

–وقال : الإخلاص فهو حقيقة الإسلام، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره، كما قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ)[٤] فمن لم يستسلم لله فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر[٥].

** قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

– المخلصُ لله إخلاصه يمنعُ غلَّ قلبه، ويخرجهُ ويزيلُه جملةً، لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه، فلم يبق فيه موضع للغل والغش[٦].

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٦٤).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٦٧).
(٣)مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩١).
(٤) سورة الزمر ، الآية ٢٩ .
(٥)مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤).
(٦) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٧٢).

- العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأُ جرابهُ رملًا يثقله ولا ينفعه.

-لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماءُ والنار، والضبُ والحوت.

- العامل... الذي يخلِّصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله بمشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾[1]

- إذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص وذبح الطمع يسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواهُ. والزهد في الثناء والمدح يسهله عليك علمُك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويزِين، ويضر ذمُّه ويشين إلا الله وحده

- الذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه، وما فيه من حظِّ النفس ونصيب الشيطان.

الثاني: علمه بما يستحقه الربُّ جلَّ جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها.

---

(1) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .

– العارف لا يرضى بشيءٍ من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله تعالى طرفة عينٍ، ويستحيي من مقابلة الله بعمله، فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله والرضا عن نفسه.

– قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيءٍ منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور[١].

** قال الإمام ابن مفلح رحمه الله: قال ابن عقيل في "الفنون ": للإيمان روائح ولوائح، لا تخفى على اطلاع مكلف بالتلميح للمتفرس، وقلَّ أن يضمر مُضمرًا شيئًا إلا وظهر مع الزمان على فلتات لسانه وصفحات وجهه[٢].

** قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: حُبُّ المساكين مستلزم إخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساسُ الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه، فإن حبَّ المساكين يقتضى إسداء النفع إليهم بما يمكن من منافع الدين والدنيا، فإذا حصل إسداءُ النفع إليهم حُبًا لهم والإحسان إليهم كان هذا العمل خالصًا[٣].

واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة. منها: أنها توجب إخلاص العمل لله عز وجل لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله عز وجل، لأن نفعهم لا يُرجى غالبًا.

** قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

---

(١) انظر موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ١٨٣)و إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك (ص: ١٩٣).

(٢)الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (١/ ١٣٦) .

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٩٠) مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٥٥) واختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص: ٩٥).

- الكف عن الشر داخل في فعل الإنسان وكسبه، حتى يؤجر عليه ويعاقب، غير أن الثواب لا يحصل مع الكف إلا مع النية والقصد، لا مع الغفلة والذهول، قاله القرطبي ملخصًا[1].

- العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى ينجي صاحبه، إذا قبله الله تعالى.

- من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه، ولهذا قال بعض أهل المعرفة: من صدق مع الله وقاه الله، ومن توكل على الله كفاه الله[2]

** قال العلامة السعدي رحمه الله:

- لا أنفع للعبد من جعل الإخلاص والمتابعة نصب عينيه في... كل ما يقول ويفعل حتى يكون الإخلاص له نعتًا، والمتابعة له وصفًا، وتضمحل عن قلبه جميع المقاصد والأغراض المنافية للإخلاص ويدع البدع الاعتقادية والبدع الفعلية إيثارًا للمتابعة فإن من صدَّق الرسول في كل ما يقول فقد برئ من بدع العقائد ومن اقتصر على ما أمر به الرسول من العبادات ولم يحرم ما أحل الله من الطيبات فقد سلم من بدع الأعمال.

-المخلص لله قد علق قلبه بأكمل ما تعلقت به القلوب من رضوان ربه وطلب ثوابه، وعمل على هذا المقصد الأعلى فهانت عليه المشقات وسهلت عليه النفقات، وسمحت نفسه بأداء الحقوق كاملة موفرة، وعلم أنه قد تعوض عما فقده أفضل الأعواض وأجزل الثواب وخير الغنائم

---

(1)فتح الباري لابن حجر (٥/ ١٤٩).

(2) انظر فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٠) و ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٣٢/ ٣٣٠).

- من ثمرات الإخلاص أنه يمنع منعًا باتًا من قصد مراءة الناس وطلب مُحَمَّدتهم، والهرب من ذمهم، والعمل لأجلهم، والوقوف عند رضاهم وسخطهم، والتقيد بإرادتهم ومرادهم، وهذا هو الحرية الصحيحة أن لا يكون القلب متقيدًا متعلقًا بأحد من الخلق.

ومن ثمرات الإخلاص أن العمل القليل من المخلص يعادل الأعمال الكثيرة من غيره، وأن أسعد الناس بشفاعة مُحَمَّد ﷺ من قال: ((لا إله إلا الله خالصًا من قلبه))[1] وأنه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: رجلان تحابا في الله اجتمعًا عليه وتفرقًا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه[2]،

وأن المخلص يصرف الله عنه السوء والفحشاء ما لا يصرفه عن غيره، قال الله سبحانه وتعالى عن يوسف: ﴿ كَذلِكَ لِنَصرِفَ عَنهُ السّوءَ وَالفَحشاءَ إِنَّهُ مِن عِبادِنَا المخلَصينَ ﴾[3] قرئ بكسر اللام وفتحها، وهما متلازمتان، لأن الله تعالى لإخلاصهم جعلهم من المخلصين. ومن ثمرات الإخلاص الطيبة أن المخلص إذا عمل مع الناس إحسانًا قوليًا أو فعليًا أو ماليًا أو غيره، لم يبال بجزائهم ولا شكرهم لأنه عامل الله تعالى، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

- المخلصون هم خلاصة الخلق وصفوتهم، وهل يوجد أكمل ممن خلصت إرادتهم ومقاصدهم لله وحده، طلبًا لرضاه وثوابه.

---

(1) رواه البخاري (١/ ٣١) .

(2) رواه البخاري (١/ ١٣٣)ومسلم (٢/ ٧١٥) .

(3) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .

** قال العلامة عبد الله بن مُحَمَّد بن حميد رحمه الله: ما يبقى للإنسان إلا ما قصد به وجه الله والدار الآخرة، هذا الذي يبقى، فإذا عمله لأجل وجه فلان، فهذا يخونك أحوج ما تكون إليه، بل تعاديه ويعاديك يوم القيامة، وكل منكم يتبرأُ من الآخر لأن المحبة لم تبنِ على أسسٍ من التقوى[1].

** قال العلامة العثيمين رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2] يشمل الفضل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الإنسان إذا عمل العمل الصالح مُخلصًا لله به حبب الله إليه العمل حتى يزيد في العمل، وهذا شيء مشاهد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فضله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[3] أي: يأتي بخلفه[4].

** قال العلامة عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله: علامة المرائي هي: أنه إذا عمل العمل أمام الناس زاد فيه، وحسنه، وإذا عمله خاليًا لم يحسنه، بل أساء فيه، والعياذ بالله... ويجب على الإنسان أن يتفقد نفسه، هل هو مراءٍ؟ وهل هو طالب لمصالح دنيوية أم لا؟ .

** قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك: المخلص هو الذي أراد بعمله وجه الله تعالى دون سواه، نعم الإخلاص يدفع إلى الجد في العمل، لكن ليس كل جاد في عمله يعد مخلصًا

** قال الشيخ عبدالعزيز بن صالح آل الشيخ:

([1]) فوائد من كتاب شرح كتاب التوحيد للعلامة عبد الله بن حميد (ص- ٤٨٤) .

([2]) سورة النساء ، الآية ١٧٣ .

([3]) سورة سبأ، الآية ٣٩ .

([4]) جلسات رمضانية للعثيمين (٢١/ ٤، بترقيم الشاملة آليا)

– العبد المؤمن إذا كان عمله على الصواب والإخلاص وإن كان قليلًا... فالله عز وجل يباركه وينميه للعبد، وأما إذا كان كثيرًا لكن يشوبه والعياذ بالله الرياء أو العجب أو التكبر....فإن العبد يؤتى من هذه الجهة[1].

– من كان قلبه خالصًا لله عز وجل، واطمأن بالله، وكان فيه من محبة الله عز وجل، وإجلاله، والتعلق به، والإقبال عليه أكبر، وأكثر نصيب، فإنه ينتفع بالآيات أيما انتفاع، ومن كان في قلبه شيء آخر ضعف انتفاعه بقدر هذا

– أثر الكلام اليوم في النفوس قليل لِمْ؟ لأنه كما قيل إذا صدر الكلام من موفق مخلص دخل القلوب بإذن الله، وأما إذا صار رياءً وسمعةً، فإنه للذة، ولا يجاوز الآذان يستلذ... ولكن هل أثر في حياة الناس؟ هل دخل القلوب؟

– المتقدمون بارك الله عز وجل لهم في أوقاتهم ولا شك أن هذا له أسباب، وأظن أن أعظم تلك الأسباب هو إخلاصهم لله عز وجل، وكثرة الرغب والدعاء إلى الله عز وجل بالمباركة.

ومما يختم به أن العلامة مُحَمَّد بن الأمين الشنقيطي رحمه الله له مجموعة من المؤلفات، منها: نظم في أنساب العرب، سماه: (خالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان) وقد ألفه قبل البلوغ، ثم دفنه بعد ذلك، معللًا هذا الصنيع بأنه كتبه على نية التفوق على الأقران.

نسأل الله الكريم أن يرزقنا الإخلاص والمتابعة في جميع أعمالنا وأقوالنا.

---

(1) انظر صيد الفوائد مقال لفهد بن عبد العزيز الشويرخ عبر الشبكة العنكبوتية .

من تزكية النفس معرفة أهمية النية

فإن النية محط نظر الله تعالى من العبد، وإن العباد يبعثون على نياتهم، وقال النبي ﷺ: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1] وحديث: إنما الأعمال بالنيات[2] يدور الدين عليه، وهو ثلث العلم، وهذه النية نواة الصلاح، وبذرة القبول، وأعمال العباد مرهونة بصلاح النوايا، وحظ العامل ونصيبه من العمل نيته، فإن كانت صالحة كان له الأجر، وإن كانت فاسدة فعليه الوزر، صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية.

هذه النية في أعمالنا كالأرواح في الأجساد، ومن خطير أمر النية أنها لا تدع قولاً ولا فعلاً إلا كانت أصله ومبدؤه، وداؤها وسوسها الرياء، وإذا كان التفات الرجل

إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، وقال: لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً[3]، فتصحيح النية يشق على النفس تحتاج القضية فيه إلى معالجة، حتى قال سفيان رحمه الله وهو من أئمة السلف: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي فإنها تتقلب عليَّ[4]، تتغير وتتحول، يحتاج إلى ردها، وإلى توجيهها، وإلى تحديدها.

---

(1) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٧).

(2) رواه البخاري (١/ ٦) ومسلم (٣/ ١٥١٥).

(3) رواه أحمد (٣٩/ ٢٣٩)والحاكم (٢/ ٣١٧)وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩١٥).

(4) انظر ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٣١)وجامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٧٠) والدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٩٤).

وقال رجل من العلماء: اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة: ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله عز وجل،[1] تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل، والخوف على العمل وحفظ العمل بعد أدائه أشد من العمل نفسه، تخليص النية من فسادها أشد من طول الاجتهاد؛ لأن قطاع الطرق كثيرون، وأنت في سيرك إلى الله يخرج عليك العدو من هاهنا وهاهنا، وأنت تقاوم، وتجاهد، وتصحح، وتوجه، وتذكر نفسك.

قال بعض العلماء: وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك[2]. ما ابتلوا، ما أتاهم إبليس إلا من هذا الباب.

روى ابن عساكر: أن أبا الحسين النوري رحمه الله اجتاز بزورق فيه خمر، فقال: ما هذا؟ ولمن هذا؟ فقال له الملاح: هذا خمر لأحد الكبراء وسماه، فصعد أبو الحسين إليها، فجعل يضرب الدنان -جرار الخمر- بعمود في يده حتى كسرها إلا واحداً، فجاءت الغلمان فأخذوه، فأوقفوه بين يدي صاحب الجرار، فقال له: ما الذي حملك على ما فعلت؟ قال: شفقة عليك، ولدفع الضرر عنك، وهذا جواب سديد حكيم في الدعوة، شفقة عليك ولدفع الضرر عنك، قال: ولأي شيء تركت منها واحداً؟ قال: لأني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالاً لله تعالى فلم أبالي أحداً، فلما انتهيت إلى هذا الأخير دخل في نفسي إعجاب من قبيل

---

(1) انظر حياة السلف بين القول والعمل (ص: ٢٢٩).

(2) انظر مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين (ص: ٥) وفصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٥/٣٠٨، بترقيم الشاملة آليا.

أني أقدمت على مثلك[1]. يعني: قد صارت عندي هذه القوة والجرأة فأعجبت فتركته، قال: اذهب قد أطلقت يدك فغيّر ما أحببت أن تغيره من المنكر.

كيفية تصحيح النية :

تصحيح النية هو تأهيل للعمل ليقبله الله عز وجل، وفساد النية يسبب حبوط العمل، وضياع الجهد، وفضيحة في الدنيا والآخرة، وتصبح الأعمال هباء منثوراً، ومثل فساد العمل إذا خالطته النية الفاسدة كشخص عنده سند بمليون ليس عنده إثبات إلا هو فكان مقلوباً على الوجه الآخر فظنه ورقة عادية مرة فأخذه فكتب عليه بعض الأرقام والحسابات، ثم مزقه، ثم اكتشف أن هذا سند المليون قد ضاع، فكيف يكون ندمه وحسرته وقد ذهب ماله أدراج الرياح؟ فهل يريد العبد أن يجهد نفسه في صوم، وصدقة، وتلاوة، وبر الوالدين.. ونحو ذلك ثم يذهب أجره هباء منثوراً بتسميع، أو رياء، أو إعلان، يقصد به المفاخرة، ورجاء ما في أيدي الناس؟ فلا تكن كمن يحرث في الماء، أو يبذر في الصحراء.

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى أن كثيراً من الاختلافات في المذاهب التي فيها تعصب، وتناحر، وتضارب بين أتباعها سببه فساد النية، إرادة العلو في الأرض، والبغي على الآخرين، وقل مثل ذلك الآن في مشكلات كثيرة عند الناس، لو صفت النوايا بين الزوجين لانتهت مشكلات زوجية كثيرة، لو صفت النوايا بين الشركاء لاكتفت المحاكم من قضايا كثيرة.

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧١/ ٢١١).

عباد الله : يطلب بعض الناس الدنيا بعمل الآخرة فيقول: أدخل شريعة لأجل شهادة، لماذا؟ محاماة، فقط هذه نيته، لماذا لا تكن النية تعلم الدين لله وما يأتي من المصالح بعد ذلك تبعاً لا يضر، إذا كان الأساس لله ما يحصل بعد ذلك تبعاً لا يضر، أنت تصوم لله فإن حصل بالصوم فوائد صحية فحيا هلا.

قال العلماء في تعلم العلم: يجب أن يحسن النية فيه، قال أحمد رحمه الله: طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته، قيل: فأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي أن يتواضع فيه، وينفي عنه الجهل[١].

قال أبو العالية: تعلمت الكتابة والقرآن فما شعر بي أهلي، ولا رؤي في ثوبي مداد قط[٢].

قال معمر: طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله [٣] .

من تزكية النفس احتساب الأجر عند الله في كل عمل

الحديث في " النيات " من أدق الأحاديث وأصعبها ؛ لارتباطها بخفايا النفوس وتعلقها بأفكار القلوب التي لا تنكشف إلا بالتفكر في مراحلها ودرجاتها، ولأن علم السلوك قائم عليها، يدور في فلكها، وهو من أدق العلوم وأرقاها، ولا تتم سعادة العبد ولا نجاته يوم القيامة إلا بالتوفيق إلى النية الصالحة.

لذلك نجد في صفحات تراث سلفنا الصالحين، وعلمائنا الأبرار المتقين الكثير من تجارب الخوض في هذه الأبواب، والكثير من العلوم التي بنيت لفهم حقيقة النية وطريقة الإخلاص ومعالجة الإرادة.

وكان مما قالوه أن كل عمل لا بد – كي يقوم ويتم – أن تتحقق فيه أركان ثلاثة:

١ – الداعية الباعثة على العمل (العلم) .

---

(١) انظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥١٩) .

(٢) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨/ ١٧٤) وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٢١٠) .

(٣)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١١) وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥١٩)

٢- والإرادة التي هي الانبعاث نحو العمل (القصد والنية) .

٣- والقدرة (العمل).

ولنمثل لذلك بمثال يتضح به المقال: إذا هجم على الإنسان سبع أو وحش مثلا، فإن معرفته بضرر السبع وأذيته له هي الداعية الباعثة على الهرب للتخلص من ذلك الضرر، فتحقق الركن الأول (الباعث)، ولذلك ستنبعث في قلبه إرادة الهرب وقصده، فيتحقق الركن الثاني (النية)، ثم تنتهض القدرة لتفعل فعل الهرب بسبب الإرادة، فيتم الفعل بذلك.

فالفعل هنا هو الهرب، والنية هي الفرار من السبع لا غير، والباعث الذي هو المقصد المنوي الذي دعا إلى الفعل هو التخلص من ضرر السبع وأذاه[١].

ثانيا: من أراد أن ينوي النية الصالحة في عمله، فلا بد أن يلتفت إلى الباعث الداعي الذي يزجره نحو ذلك العمل، فيحرص على أن يكون باعثه أمرا صالحا مشروعا، مما يحبه الله ويرضاه ويثيب عليه، فتنطلق النية والإرادة نحو ذلك العمل بسبب هذا الباعث الصالح، وبهذا تكون النية لله تعالى، ثم عليه بعد ذلك أن يحافظ على هذا الداعي الأصلي الخالص لله تعالى، فلا يتفلت منه أثناء عمله، ولا يتقلب، ولا ينصرف إلى غير الله، ولا يداخله شرك آخر.

ولهذا قال: سفيان الثوريّ رحمه الله : "ما عالجت شيئاً عليّ أشد من نيّتي، إنها تتقلب عليّ [٢]" !!

---

(١) ينظر: " إحياء علوم الدين "، للغزالي (٣٦٥/٤).

(٢) تقدم تخريجه صفحة ٣٤ .

فمن أراد أن يقوم بعمل " قراءة القرآن الكريم " مثلا، ويكون عمله خالصا متقبلا عند الله تعالى، فلا بد أن ينشأ الباعث في نفسه نشأة صحيحة شرعية، كقصد عبادة الله تعالى، أو يعلم فضيلة ثواب قراءة القرآن الكريم فتتشوف النفس لتحصيله، أو يعرف منفعة التدبر والتأمل في آيات الله تعالى، أو أن القرآن الكريم يأتي شفيعا لصاحبه يوم القيامة، أو يستحضر أن القرآن كلام الله، وهو من أحب ما يتقرب به إليه، ونحو ذلك من البواعث الشرعية التي تلقي في النفس الرغبة نحو هذا الفعل.

فإذا رغبت النفس به، وانطلقت الإرادة نحو تحقيقه لأجل تلك الأغراض: تحققت النية، ثم إذا توفرت القدرة لتحقيق التلاوة: اكتمل العمل المشروع الخالص لوجه الله عز وجل.

ثم يبقى عليه بعد ذلك أن يحافظ على ما حصله من النية الخالصة، والعمل الصالح، فعدوه إبليس يتلصص عليه، حريص على أن يخطف منه ما استطاع !!

ثالثا: البواعث التي بتعث المرء على العمل الصالح قد تتعدد، ولها درجات ومراتب، وإذا كانت كلها صالحة تضاعف أجر العمل أضعافا كثيرة، وكلما تعلقت بالدرجات العلى من اليقين والإيمان كان العمل أعظم عند الله عز وجل.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر.

ومثاله: القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين، ويبلغ به درجات المقربين:

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون في جملة انتظاره في الصلاة.

وثالثها: كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم.

ورابعها: عكوف الهم على الله، ولزوم السر للفكر في الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله، أو لاستماع ذكره وللتذكر به.

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته، أو يتعاطى ما لا يحل له، فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه، فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخا في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له، وتفكر فيه، فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات [١]

رابعاً: وأما الاحتساب فهو مرادف الإخلاص لوجه الله تعالى، لا فرق بينهما، فمن نوى بعمله نية صالحة فقد احتسبه عند الله تعالى، ولا يحتاج إلى مزيد استحضار قلبي لفكرة أخرى.

يقول الإمام النووي رحمه الله: معنى: (احتسابا): أن يريد الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس، ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص [٢] .

ويقول ابن بطال رحمه الله:

" وقوله: (احتسابًا) يعنى: يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى[٣]"

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله:

" الأجر الموعود به إنما يحصل لمن صنع ذلك احتسابا: أي: خالصا [٤]

---

(١)إحياء علوم الدين " (٤/٣٧٠-٣٧١) .

(٢) شرح النووي على مسلم " (٦/٣٩) .

(٣)شرح صحيح البخاري " (٤/١٤٦) .

(٤)فتح الباري " (١/١١٠) .

من تزكية النفس أن تكون الحياة كُلها لله

المسلم هو المستسلم لله سبحانه وتعالى، المنقاد لشرعه وأمره ونهيه، الذي يعبد الله عز وجل لأنه ربه وخالقه المستحق للعبادة، آمن بعظمة الله وقيوميته ووحدانيته، فملك عليه قلبه ونفسه، وجعل حبه لربه مقصد معاشه ومعاده، ورجا أن يتقبله في عباده الصالحين.

قال تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[1].

فمن استشعر هذه المعاني سعى في استحضار نية التقرب لله عز وجل في جميع شؤون حياته، فإذا نام احتسب نومه لله عز وجل كي يستعين براحة جسمه على العبادة حين يستيقظ، وإذا أكل أو شرب قصد بذلك التقوي للقيام بحقوق الله، وإذا تزوج أراد إعفاف نفسه والاشتغال بالحلال عن الحرام، وإذا طلب الذرية قصد الذرية الصالحة التي تعمر الأرض بمنهج الله، إذا تكلم فبالخير، وإذا سكت فإمساكاً عن الشر، يرجو بنفقته على نفسه وأهله الأجر والثواب أيضاً، وإذا تعلم وقرأ ودرس احتسب ذلك أيضاً...، وهكذا تكون مقاصده في أعماله كلها.

قال ابن تيمية رحمه الله: " ينبغي ألا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة [2] .

([1]) سورة الأنعام ، الآية ١٦١-١٦٣ .

([2]) مجموع الفتاوى" (١٠/٤٦٠-٤٦١).

هذا هو باختصار بيان كيف يمكن أن ينوي المسلم حياته وأعماله كلها لله، ويمكن أن نُجمِلَ ذلك بأمرين اثنين:

١- أن يلتزم في أعماله الشريعة، فلا يترك واجباً، ولا يقع في محذور.

٢- أن يلحظ في قلبه كيف يمكن أن يوصله هذا العمل - ولو كان في أصله دنيوياً - إلى الأجر والثواب والقربة من الله تعالى.

ويمكن تطبيق هذا الأمر على كل عمل يقوم به المسلم ولو مثلا خاص كتقليل الوزن، فمن أراد باجتهاده لتقليل وزنه المحافظة على صحته ليقوم بواجباته وحقوق الله عليه أكمل قيام، أو أراد بذلك التجمل لزوجته لتحقيق السعادة والمودة بينهما، أو أراد بذلك التجمل للخلق ليكون أكثر قبولاً بينهم فيحسن التواصل معهم، فهذا القصد قصد حسن مأجور عليه إن شاء الله تعالى.

كما أن هذا الفعل المباح إذا أراد به صاحبه التشبه ببعض الكفار، أو التجمل لفتنة الفتيات، ونحو ذلك من المقاصد الشيطانية فهذا يستحق الإثم والعقوبة.

وهكذا سائر الأمور المباحة، لا يؤجر عليها صاحبها إلا إذا احتسبها لتحقيق مقصد من مقاصد الخير والفضل والأجر.

قال ابن الحاج رحمه الله: " المباح ينتقل بالنية إلى الندب [١] .

([١])المدخل" (٢١/١).

وذكر ابن القيم أن خواص المقربين هم الذين انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل أعمالهم راجحة [١]

وقد صح عن الرسول ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص ﷺ:(إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك)[٢] .

قال الإمام النووي – رحمه الله – معلقاً على الحديث:

" وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه، وقد نبه ﷺ على هذا بقوله ﷺ: (حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك) ؛ لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولى بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالى.

ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئا أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً، والاستمتاع بزوجته وجاريته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام، وليقضي حقها، وليحصل ولداً صالحاً، وهذا معنى قوله ﷺ: (وفي بُضعِ أحدِكم صدقة)[٣] والله أعلم [٤] .

---

(١)مدارج السالكين" (١٠٧/١).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢١) ومسلم (٣/ ١٢٥١) .

(٣) رواه مسلم (٢/ ٦٩٧) .

(٤)شرح النووي على مسلم" (٧٧/١١).

وقال السيوطي رحمه الله:

"ومن أحسن ما استدلوا به على أن العبد ينال أجرًا بالنية الصالحة في المباحات والعادات قوله ﷺ: (ولكل امرئ ما نوى)، فهذه يثاب فاعلها إذا قصد بها التقرب إلى الله، فإن لم يقصد ذلك فلا ثواب له [1]

أثر التوحيد في تزكية النفوس

إن أساس بناء النفوس على الاستقامة والصلاح هو تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، والله تعالى هو المنعم على عباده بإرشادهم لما فيه تزكية نفوسهم: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[2].

ولذلك كان الأساس الأول لتزكية النفس هو تحقيق توحيد الله تعالى بإفراده بالربوبية والألوهية وإثبات الأسماء الحسنى وصفات الكمال التي لا تنبغي إلا له سبحانه.

ولقد أرسل الله جميع الرسل يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[3].

وفي الحديث: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟". قال: الله ورسوله أعلم، قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"[4].

---

(1) شرح السيوطي على النسائي" (١/١٩).

(2) سورة النور ، الآية ٢١.

(3) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(4) رواه البخاري (٩/ ١١٤)ومسلم (١/ ٥٩) .

قال ابن القيم رحمه الله: (التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى)[1].

ولقد كانت الآيات تتنزل في مكة لتثبيت عقيدة التوحيد في نفوس الموحدين وترد على المعاندين والمعرضين الذين أصروا على الشرك ومعاداة دعوة التوحيد.

كما أن القرآن قد أقام الحجة على هؤلاء المشركين بوجوب إفراده بالعبادة والطاعة بما أقروا به من كونه سبحانه هو وحده الخالق لهذا الكون وما فيه. وأظهر القرآن عجز هذه الآلهة المزعومة، وبين أنها لا تملك نفعا ولا ضرا. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)}[2]

وقال عز وجل في بيان استحقاقه وحده العبادة وبطلان عبادة ما سواه: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)}[3]

---

(1) مدارج السالكين (٣/ ٤١١).

(2) سورة البقرة ، الآيات ٢١-٢٢ .

(3) سورة النحل ، الآيات ١٩-٢٣ .

كما ركزت آيات الكتاب الكريم على إيقاظ الفطرة التي فطر الله الناس عليها وذلك لتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[1].

وقال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[2]

وهذه حقيقة يقررها القرآن أن بعض بني الإنسان في حال الرخاء قد ينسى خالقه، لكنه عند الشدائد ووقوع الضر به لا يجد أمامه إلا الله تعالى ملجأ، لأن هذه هي الفطرة، أما الشرك والإلحاد فهو غش وخداع ينكشف عند أول شدة تحيط بالإنسان.

ولا شك أن المؤمن الموحد الذي تيقظت فطرته يحيا حياة كريمة ويشعر أن لوجوده قيمة وغاية وأن له في هذه الدنيا رسالة، فيقوم بما أوجب الله تعالى عليه وينتهي عما نهى الله عنه فينعم بالراحة وسكينة النفس وطمأنينة القلب، بخلاف المشرك أو الملحد الذي تراه عديم الثقة بالحياة دائم الاضطراب والقلق لا يجد لحياته غاية وليس له في هذه الدنيا رسالة.

ولقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبين آثار التوحيد في تحقيق طمأنينة النفس وتزكيتها، وتأثير الشرك في اضطرابها وقلقها، ومن ذلك:

---

(1) سورة يونس ، الآية ١٢ .

(2) سورة الزمر ، الآية ٨ .

قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)}[1]

فقد بينت الآيات أثر التوحيد في النفس وكأنه شجرة طيبة ثابتة لا تعصف بها الرياح ولا تقتلعها الأعاصير، وهي مثمرة على مر الأيام لا ينقطع ثمرها.

أما كلمة الشرك فهي كالشجرة الخبيثة التي لا أصل لها ولا ثبات، وهذا هو حال الشرك في اضطرابه وقلقه وعدم رسوخه.

إن الآيات لتبين لنا بجلاء أن الشرك مقطوع الصلة بالفطرة السليمة التي خلق الله عباده عليها.

ويقول الله تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[2]

فيبين الله تعالى كيف شرح صدر المؤمن الذي استقامت فطرته ولم تتلوث ولم تحد عن التوحيد، شرح صدره للإسلام وتولاه سبحانه بالتأييد والتوفيق للخير.

أما من حاد عن الفطرة السوية التي فطر الله عباده عليها فأعرض عن الإيمان وسلك طريق الغواية والضلال فإن الله تعالى يزيده ضلالا ويجعل صدره ضيقا.

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات ٢٤-٢٧.

(2) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

ونفس المؤمن الموحد تنعم بالراحة والاستقرار ويتوجه بكل طاقته وجوارحه إلى سيده ومولاه ومالكه ومدبر أمره الذي له ما في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير، فينعم باليقين ويمشي على الأرض وقد اتضح له الطريق.

أما المشرك فتتنازعه الأهواء فيظل معذب القلب لا يعرف للراحة معنى، ولا للسعادة طريقا، وصدق الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1]

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه[2].

ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين.

فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه.

فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه ولا تتم عبوديته إلا بهذين...ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله).

---

(1) سورة الزمر ، الآية ٢٩ .

(2) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٨٩) .

ويقول ابن القيم رحمه الله: (فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ – صلى الله عليه وسلم – فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[1].

فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}[2]

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}[3] [4]

وقال رحمه الله: (يتحقَّق للعبد مقامُ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} علمًا وحالًا، فتثبت قدم العبد في توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهيَّة، فإنه إذا تيقَّن أن الضرَّ والنَّفع، والعطاء والمنع، والهدى والضّلال، والسَّعادة والشَّقاوة كلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنّه الذي يقلِّب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، وأنَّه لا

---

(1) سورة النَّحْلِ ، الآية ٩٧ .

(2) سورة النَّحْلِ ، الآية ٣٠ .

(3) سورة (هُودٍ ، الآية ٣ .

(4) الداء والدواء ط المجمع (١/ ٢٨٠) .

موفَّق إلّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا من خذله وتخلَّى عنه، اتَّخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، وأخوف عنده من كلِّ ما سواه، وأرجى له من كلِّ ما سواه، فتتقدّم محبَّتُه في قلبه جميع المحابِّ، فتنساق المحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسُّلطان، ويتقدَّم خوفُه في قلبه جميع المخاوف، فتنساق المخاوف كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرّجاء، فينساق كلُّ رجاءٍ له تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهيَّة، والبابُ الذي دخل إليه منه: توحيد الرُّبوبيَّة، كما يدعو سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النَّوع من التَّوحيد إلى النَّوع الآخر، ويحتجُّ عليهم به، ويقرِّرهم به، ثمّ يخبر أنّهم يَنقضونه بشِرْكهم به في الإلهيَّة.

وفي هذا المشهد يتحقَّق له مقام {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}[1] أي: فمِن أين يُصرَفون)[2].

وبتحقيق التوحيد يحيا المؤمن في هذه الدنيا حياة الأمن والسكينة والطمأنينة، مع ما يرجوه في الآخرة من الثواب الحسن والنعيم المقيم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[3]

---

(1) سورة الزخرف ، الآية ٨٧ .

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤١٣) .

(3) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

معية الله ولطفه مع مجاهدي نفوسهم من أجل صلاحها على طاعة الله ونيل رضاه

قال تعالي: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[1]{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} بالعون والنصر والهداية. دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

إن الحاجة شديدة إلى تزكية النفس وتطهيرها مما علق بها من الأدران والشهوات، إذ بالتزكية تسمو النفس، وتعلو الهمة، وتتجه الروح نحو خالقها. وذلك لا يأتي من فراغ وعبث، وإنما له أسباب توصل إليه، وطرق تدل عليه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة وسير السلف الصالح .

([1]) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

التزكية ربع الرسالة

إن تزكية النفوس مطلب عظيم من مطالب الرسالة، بل هي ربع الرسالة المحمدية، وهي وظيفة الأنبياء، قال الله تبارك وتعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[1].

وقال الله عز وجل: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[2] وقال الله تبارك وتعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[3].

ولقد دعا خليل الرحمن إبراهيم لنبينا ﷺ فقال: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[4] .

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح بمجموع طرقه كما رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد والحاكم والخرائطي في مكارم الأخلاق: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[5] صححه الحافظ ابن عبد البر.

الفلاح معلق بالتزكية

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٥١ .

(2) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤.

(3) سورة الجمعة ، الآية ٢ .

(4) سورة البقرة ، الآية ١٢٩ .

(5) رواه أحمد (١٤/ ٥١٣)والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٥٢)والبخاري في الأدب المفرد (ص: ١١٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٦٤).

ولقد أقسم الله تبارك وتعالى أحد عشر قسماً متتالياً ما أتت إلا في موضع واحد من كتاب الله عز وجل، على أن فلاح النفوس منوط بتزكيتها، فقال تعالى:(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))[١] .

وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد، فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون:(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩))[٢]

وتزكية النفوس يا إخوتاه! سبب للفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم،

قال الله عز وجل: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦))[٣]

الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بالتزكية

وقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[٤].

وتزكية النفوس عمل شاق، والأمر كله بيد الله عز وجل، وبعد فضله ومنته، فتزكية النفوس بالله لا بالنفس، قال الله تبارك وتعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ

---

(١) سورة الشمس ، الآيات ١-١٠ .

(٢) سورة النازعات ، الآيات ١٨-١٩.

(٣) سورة طه ، الآيات ٧٥-٧٦.

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨) .

يَشَاءُ)[1].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء)[2].

وقال رسول الله ﷺ: (اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي)[3].

وجعل رسول الله ﷺ تزكية النفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان، فإن للإيمان ذوقاً وحلاوةً، كما أن له فرحاً، قال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[4]

وقد قال أحد الزهاد: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف[5].

وقال الآخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طرباً وأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا العيش إنهم لفي عيش طيب."[6]،

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما ذهبت فهي معي، إنما هي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني عن بلدي فنفيي سياحة، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي[1].

---

(1) سورة النور ، الآية ٢١ .

(2) رواه ابن حبان (٣/ ٢٤٠) والطبراني في الدعاء (ص: ٤١٠) والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ١٩) والحاكم (١/ ٧١٤) وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ "وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٧٨) وجاء عند الترمذي بلفظ للَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ وَالأَهْوَاءِ» سنن الترمذي (٥/ ٥٧٥) .

(3) رواه أبو داود (١/ ٢٩١)و الطبراني في الدعاء (ص: ١٤٥)و ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص: ١٣٨) وصححه الالباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٨٠).

(4) سورة يونس ، الآية ٥٨.

(5) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٣٧١)

(6)مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٣٦).

إن المحبوس من حبس عن ربه، وإن الأسير من أسره هواه.

أَشَدُّ الجِهادِ جِهادُ الهَوى	وَما كَرَّمَ المرءَ إِلّا التُقى
وَأَخلاقُ ذي الفَضلِ مَعروفَةٌ	بِبَذلِ الجَميلِ وَكَفِّ الأَذى
وَكُلُّ الفُكاهاتِ مَملولَةٌ	وَطولُ التَعاشُرِ فيهِ القِلى
وَكُلُّ طَريفٍ لَهُ لَذَّةٌ	وَكُلُّ تَليدٍ سَريعُ البِلى
وَلا شَيءَ إِلّا لَهُ آفَةٌ	وَلا شَيءَ إِلّا لَهُ مُنتَهى
وَلَيسَ الغِنى نَشَبٌ في يَدٍ	وَلَكِن غِنى النَفسِ كُلُّ الغِنى
وَإِنّا لَفي صُنعٍ ظاهِرٍ	يَدُلُّ عَلى صانِعٍ لا يُرى[٢]

كيفية مجاهدة النفس

الإنسان في هذه الحياة الدنيا يعيش حالة من الصراع مع أعداء ظاهرين، وآخرين لا يراهم، وربما كانوا أشد فتكًا به من أعدائه المشاهدين؛ ولذا فإنه لا بد أن يكون دائمًا متيقظًا حذرًا.

وإن أعدى أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه فإنها تحثه على نيل كل مطلوب والفوز بكل لذة حتى وإن خالفت أمر الله وأمر رسوله، والعبد إذا أطاع نفسه وانقاد لها هلك، أما إن جاهدها وزمها بزمام الإيمان، وألجمها بلجام التقوى، فإنه يحرز بذلك نصرًا في ميدان من أعظم ميادين الجهاد. قال رسول الله ﷺ:

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٥٣).

(٢) انظر مجموعة القصائد الزهديات (٢/ ٣٥٢) لأبي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ).

"ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب"[1].

فجهاد النفس إذاً من أفضل أنواع الجهاد، قال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[2]. ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها في الآخرة"[3].

أنواع النفوس:

قرر المحققون من أهل العلم أن النفس واحدة، ولكن لها صفات وتسمى باعتبار كل صفة باسم، وبناء على ذلك ذكروا أن النفس باعتبار صفاتها ثلاثة أنواع، هي:

أولا: النفس الأمارة: وهي التي تأمر صاحبها بالشر وتميل به إلى اللذات والشهوات غير مبالية بالطريق الذي تنال به هذه الشهوات واللذات حراما كان أو حلالا، فهذه النفس مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

ثانيا: النفس اللوامة: وهذه النفس تكلم عنها الإمام ابن القيم رحمه الله بكلام جميل، قال: وأما النفس اللوامة، وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}[4] فاختلف فيها، فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة؛ أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب، وتتلون في الساعة الواحدة –فضلاً عن اليوم والشهر

---

(1) رواه أحمد (٣٩/ ٣٨١) والحاكم (١/ ٥٤) و ابن حبان (١١/ ٢٠٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٤٥٥)وصححه الألباني في الصحيحة (٢/ ٨٩) .

(2) سورة النازعات ، الآية ٤٠ .

(3) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢١٠) .

(4) سورة القيامة ، الآية ٢ .

والعام والعمر- ألوانًا عديدة؛ فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصي، وتتقي وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة، فهذا قولٌ. وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا، يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام[1].

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته[2].

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كل واحد يلوم نفسه، بَرًّا كان أو فاجرًا، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها. وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل واحد يلوم نفسه، إن كان مسيئًا على إساءته، وإن كان محسنًا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة. لكن النفس نوعان: - لوامة ملومة: وهي النفس الجاهلة الظالمة، التي يلومها الله وملائكته. - ولوامة غير ملومة: وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة[3].

ثالثا: النفس المطمئنة: وهذه قال عنها ابن القيم رحمه الله: فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها؛ بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به، والسكون إليه.

---

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٣٤٣)و إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧٧).

(2) كتاب الروح لابن قيم الجوزية (ص: ٢٢٥).

(3) المرجع السابق نفس الصفحة .

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة، تَرِد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وتَرُد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه؛ فتسري تلك الطمأنينة في نفسه، وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره: {الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[1][2].

مراتب مجاهدة النفس:

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن جهاد النفس أربع مراتب: حَمْلها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله، وقتال من خالف دينه وجحد نعمه.

عدة المجاهدة

والمسلم وهو يجاهد نفسه لابد له من عُدَّة يتسلح بها، وأقوى الأسلحة التي يستخدمها المسلم في مجاهدة نفسه، سلاح الصبر؛ فمن صبر على جهاد نفسه وهواه وشيطانه غلبهم وجعل له النصر والغلبة، وملك نفسه فصار ملكًا عزيزاً، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلب وقُهر وأُسر، وصار عبدًا ذليلاً أسيرًا في يد شيطانه وهواه كما قيل:

إذا المرء لم يَغْلِبْ هواه أقامهُ.....بمنزلةٍ فيها العزيز ذليلُ

([1]) سورة الرعد ، الآية

([2])كتاب الروح لابن قيم الجوزية (ص: ٢٢٠).

وليعلم العبد أن الجنة حُفت بالمكاره وأن النار حُفت بالشهوات كما ورد ذلك عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق اللهُ الجنةَ ؛ قال: يا جبريلُ ! اذهبْ فانظر إليها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها، ثم جاء فقال: أي ربِّ ! وعزتِك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها، ثم حفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريلُ ! اذهبْ فانظرْ إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي ربِّ ! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحدٌ، قال: فلما خلق اللهُ النارَ ؛ قال: يا جبريلُ ! اذهب إليها، قال: فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي ربِّ ! وعزتِك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، فحفَّها بالشهوات، ثم قال: يا جبريلُ ! اذهب فانظرْ إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: أي ربِّ ! وعزتِك لقد خشيتُ أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها"[1].. فعلَى مَن أرادَ دخول الجنة أن يَجتازَ تلكَ المكارِهَ بالامتِثالِ لتلكَ الأوامرِ والنواهي.

من أقوال الصالحين وأحوالهم في المجاهدة:

سأل أحدهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الجهاد فقال له: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها[2].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: ما عالجت شيئا أشد علي من نفسي، مرَّةً لي ومرة علي[3].

وقال الحسن رحمه الله: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام من نفسك[4].

---

(1) رواه أبو داود (٤/ ٢٣٦)والترمذي (٤/ ٦٩٤)وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»و النسائي (٧/ ٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٢٥) .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص: ٩٧)وانظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٤٨٩)

(3) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٥) .

(4) انظر إحياء علوم الدين (٣/ ٦٦) .

وقال يحي بن معاذ الرازي: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات[1].

وقال ابن المبارك رحمه الله: فقوله ﷺ: "إن النصر مع الصبر" يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر وجهاد العدو الباطن. فمن صبر فيهما نُصر وظفر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع قُهر وصار أسيرا لعدوه أو قتيلا له[2].

وكان زياد بن أبي زياد – مولى ابن عياش – يخاصم نفسه في المسجد يقول: أين تريدين؟ أين تذهبين؟ أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد؟ انظري إلى ما فيه، تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان؟ .

وكان يقول لنفسه: ما لك من الطعام غير هذا الخبز والزيت، وما لك من الثياب غير هذين الثوبين، وما لكِ من النساء غير هذه العجوز، أفتحبين أن تموتي؟ قال: فقالت: أنا أصبر على هذا العيش[3].

وانظر إلى مالك بن دينار رحمه الله، وهو يطوف في السوق، فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري؛ فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك عليَّ[4].

فهذه أمثلة من مجاهدة الصالحين لأنفسهم، يظهر فيها جليًّا استعانتهم بالصبر في هذا الميدان.

---

(1) المرجع السابق

(2) انظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (1/ 490).

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (7/ 471) وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص: 134) وانظر حفظ العمر لابن الجوزي (ص: 61)و صفة الصفوة (1/ 360).

(4) انظر إحياء علوم الدين (3/ 67).

سوء الظن بالنفس

ومما يعين على تهذيب النفس ومجاهدتها سؤ الظن بها، فإن الإنسان إذا عرف نفسه حقيقة لم يركن إليها، ولم ينقد لها، بل أساء بها الظن، وكيف يحسن الإنسان الظن بعدوٍ لدود يتربص به لينقض عليه: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}[1].

وقد كان من وصايا الصديق رَضي الله عنه للفاروق حين استخلفه: إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك[2].

وكان ابن القيم رحمه الله يقول: لا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن الظن بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه[3].

ومن أعظم أسباب الإعانة على المجاهدة: الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانة بالصلاة.

عن ربيعة الأسلمي رضَي الله عنه قال: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: "سَلْ". فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: "أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: "فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ[4]".

إن مجاهدة النفس باب عظيم من أبواب الخير، فإن وفق العبد فيه فاز وربح ربحًا لا خسارة بعده أبدًا، وإن عجز وغُلب خسر خسرانًا عظيمًا.

---

(1) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(2) انظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٤٩٠)

(3) مدارج السالكين (١/ ١٩١) .

(4) رواه مسلم (١/ ٣٥٣) .

قال الرسول ﷺ: "إنّ الشّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطّوَلِ [الحبل]؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقْتَلُ؛ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ".

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابّتُهُ كَانَ حَقّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنّةَ"[1].

فهيا أيها الأحبة نجاهد أنفسنا على تعلُّم دين الله والعمل به والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، لعلنا نكون من الفائزين.

وجاهد النفس والشيطان واعصهما

فمجاهدة النفس، تكون باستعمالها فيما ينفعها حالاً، ومآلاً مما يشقُّ عليها عادةً.

كما قال ابن علان الشافعي في دليل الفالحين: المجاهدة، مفاعلة من الجهد: أي الطاقة، فإن الإنسان يجاهد نفسه باستعمالها فيما ينفعها حالاً ومآلاً، وهي تجاهده بما تركن إليه بحسب طبعها وجبلتها من ضد ذلك، ولكون المجاهدة مع النفس التي بين جنبي الإنسان، وهي لا تخرج، ولا تنفك عنه كان هذا الجهاد الأكبر. اهـ[2].

وهذه النفس التي تجاهدها، هي النفس الأمارة بالسوء.

([1])رواه أحمد (٢٥/ ٣١٥)والنسائي (٦/ ٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٩).

([2]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٣٠٨).

ولهذا عرف الجرجاني في كتابه "التعريفات" المجاهدةَ بأنها: محاربة النفس الأمارة بالسوء، بتحميلها ما يشقُّ عليها مما هو مطلوب شرعاً. اهـ[1].

كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام، فيما حكاه عنه ربه في كتابه:(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2].

ومَن رحمه ربُّه، وفقه للعمل الصالح الذي به يدخله الجنة، وهو -في الغالب- مما يشق على النفس الأمارة بالسوء، ويثقُل عليها، وجنَّبَهُ المعاصيَ، واتباعَ الشهوات التي بها يدخله النار، وهي -في الغالب- مما تحبه النفس الأمارة بالسوء، وتميل إليه. ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات[3]..

فمن أرغم نفسه على فِعلِ تلك المكاره التي تثقل عليها، وتجنُّبِ تلك الشهوات التي تميل إليها، فقد جاهدها.

يقول ابن القيم في كتابه القيم"مدارج السالكين": فإن في النفس ثلاثةَ دواعٍ متجاذبة:

-داعٍ يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

- وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

- وداعٍ يدعوها إلى أخلاق المَلَك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة....

---

(1) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٠٤).

(2) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(3) رواه مسلم (٤/ ٢١٧٤).

كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكَة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائمَ شهوةً بلا عقول، وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته؛ التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله؛ التحق بالبهائم. اهـ[1].

مجاهدة النفس على ترك المعاصي والأخلاق السيئة

خَلِّ الذُنوبَ صَغيرَها وَكَبيرَها فَهوَ التُقى

واصنع كماش فوق أر ضِ الشَوكِ يَحذُرُ ما يَرى

لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصى

الإنسان كائن ضعيف، يتعرض لنوازع الخير والشر، وقد يضعف وينساق إلى طريق الرذيلة والانحراف، ويدفعه الشر إلى طريق الظلم والتعدي، ويزين له الشيطان فعل المنكرات.

لكن عنصر الخير يحرك فيه ضميره، ويُشعره بالندم، ويحثه على الرجوع إلى الحق، والاستجابة لنداء العقل.

وتختلف قدرات الناس، وقوة إرادتهم، وصفاء نفوسهم، وشفافية أرواحهم، فمنهم من يروض نفسه على السير على طريق الفضائل والمكرمات، ويربيها على المبادئ والأخلاق، ويقاوم الشهوات، والميول المنحرفة، ويلزم نفسه بالاستقامة والإنصاف، فهذا يستطيع أن يواجه الشر، ويحتمل في سبيل ذلك كل أمر عسير، ولا يفقد الأمل بتغلب الخير، واندحار الشر، وزواله.

---

[1] مدارج السالكين (٢/ ٣٣٤).

ومنهم من ينساق وراء الشهوات، ويعجز عن إلزام نفسه بالفضائل، ويتخلى عن كثير من أوامر الله ورسوله، ويضعف أمام المواجهة، ويفقد الأمل في تغلب الخير.

والسرّ في المسألة كلها أن يُجاهد العبد هواه، ونفسه الأمّارة بالسوء، لينال الهداية من الله، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[1].

وروى الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، عن فَضَالَةَ بْن عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)[2].

قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد".

" كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ، وَيُجَارِبَهَا فِي اللَّهِ: لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ، وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ: وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ، لَمْ يُجَاهِدْهُ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ ؛ بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ، حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ " انتهى[3].

والحاصل: أن المسلم إذا جاهد نفسه على تجنب المعاصي وفعل الطاعات ممتثلا لأمر الله تعالى ونهيه فإنه يثاب على ذلك -إن شاء الله- بقدر ما جاهد نفسه في الله.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

---

(1) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

(2) رواه أحمد (٣٩/ ٣٨١)و ابن حبان (١١/ ٢٠٤) والحاكم (١/ ٥٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٩٠) .

(3)زاد المعاد" (٣/ ٦).

" أَيُّمَا أَوْلَى مُعَالَجَةُ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنْ قَلْبِك مِثْلُ. الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالْغِلِّ وَالْكِبْرِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَرُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ. وَغَيْرِ ذَلِكَ. مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْقَلْبِ مِنْ دَرَنِهِ وَخُبْثِهِ؟ أَوْ الِاشْتِغَالُ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ: مِنْ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ: مَنْ النَّوَافِلِ وَالْمَنْذُورَاتِ مَعَ وُجُودِ تِلْكَ الْأُمُورِ فِي قَلْبِهِ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ." ؟

فَأَجَابَ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَاجِبٌ: وَأَنَّ لِلْأَوْجَبِ فَضْلًا وَزِيَادَةً. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيمَا يَرْوِيه عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ مَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ.

وَالْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ لَا تَكُونُ صَالِحَةً مَقْبُولَةً إلَّا بِتَوَسُّطِ عَمَلِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ وَالْأَعْضَاءُ جُنُودُهُ ؛ فَإِذَا خَبُثَ الْمَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ.

وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْقَلْبِ لَا بُدَّ أَنْ تُؤَثِّرَ فِي عَمَلِ الْجَسَدِ، وَإِذَا كَانَ الْمُقَدَّمُ هُوَ الْأَوْجَبُ، سَوَاءٌ سُمِّيَ بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا ؛ فَقَدْ يَكُونُ مَا يُسَمَّى بَاطِنًا أَوَجَبَ، مِثْلُ تَرْكِ الْحَسَدِ وَالْكِبْرِ ؛ فَإِنَّهُ أَوَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ نَوَافِلِ الصِّيَامِ.

وَقَدْ يَكُونُ مِمَّا سُمِّيَ ظَاهِرًا أَفْضَلَ: مِثْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ مُجَرَّدِ تَرْكِ بَعْضِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ، مِنْ جِنْسِ الْغِبْطَةِ وَنَحْوِهَا.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ عَمَلِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ يُعِينُ الْآخَرَ، وَالصَّلَاةُ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَتُورِثُ الْخُشُوعَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ: هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَالصَّدَقَةُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ." انتهى[1] .

ثانيا:

جاء في "الموسوعة الفقهية" :

" الْحِقْدُ مِنْ مَعَانِيهِ: الضَّغَنُ وَالاِنْطِوَاءُ عَلَى الْبَغْضَاءِ، وَإِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ، وَالتَّرَبُّصُ لِفُرْصَتِهَا، أَوْ سُوءُ الظَّنِّ فِي الْقَلْبِ عَلَى الْخَلاَئِقِ لِأَجْلِ الْعَدَاوَةِ، أَوْ طَلَبُ الاِنْتِقَامِ. وَتَحْقِيقُ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْغَضَبَ إِذَا لَزِمَ كَظْمُهُ لِعَجْزٍ عَنِ التَّشَفِّي فِي الْحَال رَجَعَ إِلَى الْبَاطِنِ وَاحْتَقَنَ فِيهِ فَصَارَ حِقْدًا..

يَخْتَلِفُ حُكْمُ الْحِقْدِ بِحَسَبِ بَاعِثِهِ، فَإِنْ كَانَ لِحَسَدٍ وَضَغَنٍ دُونَ حَقٍّ: فَهُوَ مَذْمُومٌ شَرْعًا، لِأَنَّهُ يُثِيرُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَالإِضْرَارَ بِالنَّاسِ لِغَيْرِ مَا ذَنْبٍ جَنَوْهُ.

وَقَدْ وَرَدَ ذَمُّهُ فِي الشَّرْعِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ سَاءَهُمُ ائْتِلاَفُ الْمُؤْمِنِينَ وَاجْتِمَاعُ كَلِمَتِهِمْ بِحَيْثُ أَصْبَحَ أَعْدَاؤُهُمْ عَاجِزِينَ عَنِ التَّشَفِّي مِنْهُمْ: وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ...

وَمِمَّا يُذْهِبُ الْحِقْدَ الإِهْدَاءُ وَالْمُصَافَحَةُ، كَمَا قَال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ. وَفِي رِوَايَةٍ: تَهَادَوْا تَحَابُّوا.

([1])مجموع الفتاوى" (١١/٣٨١-٣٨٢).

أَمَّا إِنْ كَانَ الْحِقْدُ عَلَى ظَالِمٍ لاَ يُمْكِنُ دَفْعُ ظُلْمِهِ، أَوِ اسْتِيفَاءُ الْحَقِّ مِنْهُ، أَوْ عَلَى كَافِرٍ يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ وَلاَ يُمْكِنُهُمْ دَفْعُ أَذَاهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَذْمُومٍ شَرْعًا، ثُمَّ إِذَا تَمَكَّنَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ، فَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ فَذَلِكَ مِنَ الإِحْسَانِ... وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ حَقَّهُ مِنْهُ، فَلاَ حَرَجَ فِيهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيل عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ.." انتهى، مختصرا[1].

التزكية ثمرة من ثمار العقيدة الإسلامية الصحيحة

إنَّ السلوك الصحيحَ وتزكيةَ النفوسِ من أعظم أمور الدين، حيثُ اهتمَّ سلفُنا الصالحُ بالسلوك الشرعي علماً وعملاً، ستأتي أعمالُهُم وأقوالُهُم أثناء هذا المقال، ومع شدَّةِ الحاجةِ إلى فقه السلوك وتزكيةِ النفوس علماً وعملاً فإننا لا نجدُ مَن يتكلَّم في هذا الموضوع إلا القليلَ من المحاضرين؛ ولأجل ذلك رغبتُ أن أسهمَ في هذا الموضوع بنصيب.

أهميةُ الموضوع:

تتجلَّى أهميةُ هذا الموضوع من خلال الأمورِ التالية:

١- اهتمَّ السلفُ الصالحُ بتزكية النفوس، واعتنوا بالأخلاق علماً وفقهاً، كما حقَّقوها عملاً وهدياً، فأفردوا كتباً مستقلةً في الزهد والرقائق، بل إنهم يوردون الصفات الأخلاقية في ثنايا كتب العقيدة:

---

(١) انظر الموسوعة الفقهية" (٥/١٨).

* قال الإسماعيليُّ[1] في اعتقاد أهل السنَّة (ت: ٣٧١ هـ): (يرون مجانبة البدعةِ والآثام والفخرِ والتكبُّرِ، ويرون كفَّ الأذى وتركَ الغيبةِ إلاّ لمن أظهر بدعةً وهوىً يدعو إليهما، فالقولُ فيه ليس بغيبةٍ عندهم)[2].

* ويقول شيخُ الإسلام أبو عثمان إسماعيل الصابونيُّ[3] (ت: ٤٤٩ هـ) في عقيدة السلف أهل الحديث: (يرون المسارعة إلى أداء الصلوات المكتوبات، ويتواصون بقيام الليل للصلاةِ بعد المنام، وبصلةِ الأرحام، وإفشاء السلام، وإطعامِ الطعام... والبدارِ إلى فعلِ الخيرات أجمع، ويجانبون أهلَ البدع والضلالات ...)[4].

* وقال قوّامُ السنّةِ إسماعيلُ الأصبهانيُّ[5] (ت: ٥٣٥هـ) في كتابه: الحجَّة في بيان المحجَّة: (ومن مذهب أهل السنَّةِ التورُّعُ في المأكل والمشارب، والتحرُّزُ من الفواحش والقبائح، ومجانبةُ أهل الأهواءِ والضلالة وهجرُهم، والمسابقةُ إلى فعل الخيرات، والإمساكُ عن الشبهاتِ)[6].

---

(١) أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن إِسْمَاعِيل بن الْعَبَّاس أَبُو بكر الْإِسْمَاعِيلِيّ الْفَقِيه الْحَافِظ أحد كبراء الشَّافِعِيَّة فقها وحديثا وتصنيفا رَحل وَسمع الْكثير وصنف الصَّحِيح والمعجم ومسند عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ فِي مجلدات أَجَاد فِيهِ وَأفَاد انظر طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (١/ ١٣٧) سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٢/ ٣١٤).

(٢) اعتقاد أهل السنة: (٥٣)

(٣) الأستاذ أبو عثمان إسماعيل الصابوني شيخ الإسلام، المفسر المحدث، الواعظ، أوحد وقته في طريقه، وعظ المسلمين سبعين سنة، وخطب وصلى في الجامع نحوا من عشرين سنة، وكان حافظا، كثير السماع والتصانيف، حريصا على العلم، سمع بنيسابور وهراة وسرخس والحجاز والشام والجبال، وحدث بخراسان والهند وجرجان والشام والثغور والحجاز والقدس، ورزق العز والجاه في الدين والدنيا، وكان جمالا للبلد، مقبولا عن الموافق والمخالف، مجمع على أنه عديم النظير، وسيف السنة، ودامغ البدعة، وكان أبوه الإمام أبو نصر من كبار الواعظين بنيسابور، ففتك به لأجل المذهب، وقتل، فأقعد ابنه هذا ابن تسع (٤) سنين، فأقعد بمجلس الوعظ، وحضره أئمة الوقت انظر سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٨/ ٤١)

(٤) عقيدة السلف أهل الحديث: (٩٧) .

(٥) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) انظر تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (٤/ ٥٠) الأعلام للزركلي (١/ ٣٢٣).

(٦) الحجة في بيان المحجة: (٢/ ٥٢٨) .

* وذكر ابنُ تيمية جملةً من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنّةِ، ومن ذلك قولُه: (يأمرون بالصبر عند البلاء والشكرِ عند الرخاء، ويدعون إلى مكارمِ الأخلاق ومحاسن الأعمالِ، ويعتقدون معنى قولِه -صلى الله عليه وسلم-: " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهُم خُلُقًا[1]، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها)[2].

فالسلفُ الصالح اهتمُّوا بهذا الموضوع، ونحنُ أتباعهُم كذلك يجب أن نَهتَمَّ بتزكية النفوس.

٢- وممَّا يُبيِّنُ أهميةَ الموضوع أن هناك تلازمًا بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحرافٍ في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن، قال ابنُ تيمية -رحمه الله-: (إذا نقصت الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ، كانَ ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يُتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تُعدم الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ)[3].

ويقول الشاطبيُّ رحمه الله: (الأعمالُ الظاهرةُ في الشرع دليلٌ على ما في الباطن، فإذا كان الظاهرُ منخرماً أو مستقيماً حُكم على الباطن بذلك)[4]، فالسلوكُ والاعتقادُ متلازمان، كذلك فإن من الأخلاقِ والسلوك ما هو من شُعَبِ الإيمان.

٣- وتأتي أهمية الموضوع إذا علمنا: ما يترتبُ على تحقيقِ الجانبِ الخُلُقي من الأجر الكثير والثوابِ الجزيل، قال الله تعالى: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾[5]، وقال -

---

[1] رواه الترمذي (٣/ ٤٥٨)و أبو داود (٧/ ٧٠)وأحمد (١٢/ ٣٦٤) وابن حبان (٢/ ٢٢٧)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٦٦).

[2] العقيدة الواسطية: (١٧٢)

[3] الفتاوى: (٧/ ٥٨٢، ٦١٦، ٦٢١)

[4] الموافقات: (١/ ٢٣٣)

[5] سورة آل عمران ، الآيات ١٣٣-١٣٤ .

ﷺ -: " أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهُم خُلقاً"[1]. وقال أيضًا: " إنَّ المؤمنَ ليُدركُ بحُسنِ خلُقه درجات الصائمِ القائمِ"[2]، وقال: "ما من شيءٍ يُوضعُ في الميزان أثقلُ من حسن الخُلُق"[3]، وقال ابنُ القيّم: (الدِّينُ كلُّه خُلُقٌ، فمَن زادَ عليك في الخُلُقِ زادَ عليك في الدِّين)[4].

فمن أجل هذه الأمور نتكلَّم في هذا الموضوع.

معالمُ في منهجِ السلوك والأخلاق عند السلف:

١- إنّ مصدر تلقي السلوك والأخلاق عند السلف الصالح هو الكتابُ والسنّة؛ لأنَّهم أهلُ اتباع، قال اللهُ تعالى: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5] ومن ذلك الأخلاقُ، قال ابنُ تيمية: (مسائلُ السلوكِ من جنس مسائل العقائد، كلُّها منصوصةٌ في الكتاب والسنّةِ)[6]، ولا يُؤخذُ السلوكُ من الخيالات أو القياسات أو الآراءِ والمنامات كما عند الصوفية،

قال ابنُ القيّم: (مَن أحالكَ على غيرِ (أخبرَنا) و(حدَّثنا) فقد أحالكَ إمَّا على خيالٍ صوفيٍّ، أو قياسٍ فلسفيٍّ، أو رأيٍ نفسيٍّ، فليس بعد القرآن و(أخبرَنا) و(حدَّثنا) إلاّ شبهاتُ المتكلمين، وآراءُ المنحرفين، وخيالاتُ المتصوفين، وقياسُ المتفلسفين، ومَن فارقَ الدليل ضلَّ عن سواءِ السبيل، ولا دليلَ إلى الله والجنّةِ سوى الكتابُ والسنّة)[7].

---

[1] رواه الترمذي (٣/ ٤٥٨)و أبو داود (٧/ ٧٠)وأحمد (١٢/ ٣٦٤) وابن حبان (٢/ ٢٢٧)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٦٦).

[2] رواه أبو داود (٤/ ٢٥٢) وأحمد (٤٢/ ٣٤٦)والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٦٤)وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٨) .

[3] رواه الترمذي (٤/ ٣٦٣) والبخاري في الأدب المفرد (ص: ١٤٢)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٩٨).

[4] مدارج السالكين: (٢/ ٢٩٤).

[5] سورة النحل ، الآية ٨٩ .

[6] الفتاوى: (١٩/ ٢٧٣)

[7] مدارج السالكين: (٢/ ٤٦٨)

فلا بد من الدليل على السلوك والأخلاق، ولا يجوزُ ابتداعُ طرقٍ لتزكية النفوس غير الطرق الشرعية.

٢- من معالم السلف في السلوك: موافقةُ النصوص الشرعيةِ لفظاً ومعنى؛ فيتأدبون مع المصطلحات الشرعية الدينية، ويستمسكون بألفاظها ومعانيها، ويحقِّقُون حدودَها وتعريفاتِها علماً وعملاً، قال ابنُ تيمية رحمه الله: (الألفاظ التي جاء بها الكتابُ والسنّةُ علينا أن نتبّع ما دلَّت عليه مثل: لفظ الإيمان والتقوى والإحسان والتوكل والحب لله)[١]، وقال أيضاً: (وأما الألفاظُ التي ليست في الكتاب والسنّة، ولا توافَقَ السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحدٍ أن يوافقَ مَن نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنًى يوافقُ خبرَ الرسول أقرَّ به، وإن أراد بها معنًى يخالفُ خبرَ الرسولِ أنكره)[٢]، إنَّ أربابَ الطرقِ الصوفيةِ قد أحدثُوا ألفاظاً مجملةً في السلوك كالتصوفِ والغناء والفقر ونَحوها، وهذه الألفاظُ عموماً لا تخلو من مخالفاتٍ للكتاب والسنّةِ، إضافةً إلى ما فيها من التكلُّفِ الشديد، والتعقيد في الألفاظ والمعاني)، قال ابنُ تيمية رحمه الله: (لفظُ الفقر والزهدُ والتصوفِ قد أُدخل فيها أمورٌ يحبُّها الله ورسولُه كالتوبة والصبر والشكر، وقد أُدخلَ فيها أمورٌ يكرهها اللهُ ورسولُه كالحلول والاتحادِ والرهبنةِ المبتدَعةِ)[٣]، والإمامُ الشاطبيُّ رحمه الله ذكر المعاني الصحيحةَ والفاسدةَ للتصوف في كتاب الاعتصام[٤].

٣- ومن معالم السلوكِ الشرعي: مراعاةُ تفاوتِ قدراتِ الناس في فعل الطاعات؛ وذلك بسبب اختلاف استعداداتهم، قال الإمامُ مالكٌ -رحمه الله-: (إنّ الله قسَّم الأعمالَ كما قسَّم الأرزاق، فَرُبَّ رجُلٍ فُتح له في

---

[١] الفتاوى: (٢٥/١١)
[٢] الفتاوى: (١١٤/١٢)
[٣] الفتاوى: (٢٨/١١)
[٤] الاعتصام: (٢٦٥/١)

الصلاة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخرُ فُتح له في الصدقةِ ولم يُفتَح له في الصوم، وآخرُ فُتح له في الجهادِ، فنشرُ العلم من أفضلِ أعمال البِرِّ، وقد رضيتُ بما فُتحَ لي فيه، أرجو أن يكون كِلانا على خيرٍ وبرٍّ)[١].

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله: (من الناس مَن يكونُ سيِّد عمله وطريقُة الذي يُعدُّ سلوكَه إلى الله طريق العلم والتعليم؛ حتى يصل إلى الله، ومن الناسِ مَن يكونُ سيِّد عملهِ الذكر، وقد جعله زادَه لمعاده، ورأسَ ماله لما له، ومن الناس مَن يكونُ سيِّد عمله وطريقُة الصلاة، ومنهم مَن يكون طريقُه الإحسان والنفع المتعدي كقضاء الحاجات وتفريج الكرباتِ وأنواعِ الصدقات، ومنهُم الواصلُ إلى الله من كلِّ طريق، قد ضرب مع كلِّ فريقٍ بسهمٍ، فأين كانت العبوديةُ وجدْتَه هناك، إن كانَ علمٌ وجدتَه مع أهله، أو جهادٌ وجدتَه في صفِّ المجاهدين، أو صلاةٌ وجدتَه في القانتين، أو ذكرٌ وجدتَه في الذاكرين، أو إحسانٌ ونفعٌ وجدتَه في زمرة المحسنين، لو قيل له: ما تريدُ من الأعمال؟ لقال: أريدُ أن أُنْفِذَ أوامرَ ربي حيثُ كانت)[٢]، وهذا الصنفُ الذي ذكره ابنُ القيم هم الصِّدِّيقون، وخيرُهُم أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " مَنْ أصبح منُكم اليومَ صائماً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن تبع منكم اليومَ جنازةً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن أطعم منكم اليومَ مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله: ما اجتمعْنَ في امرئٍ إلَّا دخلَ الجنّةَ "[٣].

---

[١] سير أعلام النبلاء: (١١٤/٨)

[٢] طريق الهجرتين: (١٧٨)، مدارج السالكين: (١٧/٣، ٨٨/١)

[٣] رواه مسلم (٧١٣/٢).

وأهم الصفات الأخلاقية عند السلف الصالح تزكيةُ النفوس:

في زحمةِ الحياةِ وكثرة المشاغلِ وتعدّد المتطلَّبات قد ننسى أن نتعاهد أنفسَنا بالتربية والتزكيةِ؛ ومن ثمَّ تقسو القلوب، ونتثاقلُ عن الباقياتِ الصالحاتِ، ونركنُ إلى متاع الدنيا، ولأجل ذلك نتحدَّثُ عن تزكيةِ النفوس من خلال النقاط التالية:

أ-أهمية الموضوع

ب- معنى التزكية

ج - وسائل تزكية النفس

أ- أهمية الموضوع: ممَّا يدلُّ على أهمية موضوع (تزكية النفس) أن الله تعالى أقسم أقساماً كثيرةً ومتواليةً على أن صلاحَ العبدِ وفلاحَه منوطٌ بتزكية نفسِه، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[١]، وتزكيةُ النفوس سببُ الفوزِ بالدرجات العُلى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾[٢]

قال ابنُ كثير: (أي؛ طهَّر نفسه من الدنسِ والخبَثِ والشركِ، وعبدَ اللهَ وحده لا شريك له)[٣]، وكانَ من

---

(١) سورة الشمس ، الآيات ٧-٩ .

(٢) سورة طه ، الآيات ٧٥- ٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير: (١٥٦/٣) .

دعائه –صلى الله عليه وسلم –: " اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكاَّها، أنت وليُّها ومولاها"[1]، فلا تزكيةَ إلا بتوفيق الله، قال تعالى: ﴿... بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[2]

ب–أما معنى التزكية: فهي إصلاحُ النفوسِ وتطهيرُها عن طريق العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وفعلِ المأموراتِ وتركِ المحظورات.

جـ – وسائلُ تزكية النفس: لا بد أن نعلم أن تزكية النفوس عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرُّسلِ.

قال ابنُ القيّم رحمه الله: (وتزكيةُ النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمَن زكَّى نفسه بالرياضةِ والمجاهدة والخلوةِ التي لم يجِئْ بها الرسل فهو كالمريضِ الذي يعالجُ نفسَه برأيِهِ، فالرسلُ أطباءُ القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم والتسليم لهم)[3]، ولا بد أن نعلم أنّ التزكيةَ فضلٌ من الله ورحمةٌ، لا تحصل للعبد إلاّ بمشيئة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿...وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿...بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[5]، ثم يأخذُ العبدُ بأسباب تزكية النفس.

---

(1) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨)

(2) سورة النساء، الآية ٤٩.

(3) مدارج السالكين: (٣/٣١٥).

(4) سورة النور ، الآية ٢١ .

(5) سورة النساء، الآية ٤٩.

وتزكيةُ النفوسِ تتحققُ بأمورٍ كثيرةٍ منها:

١- التوحيدُ: وهو أعظمُ وآكدُ طريقٍ إلى تزكية النفوس، فالتوحيدُ زكاةٌ، حيثُ يُنَمّي ثوابَ الأعمالِ الصالحةِ ويباركُ فيها، فإنَّ التوحيدَ إذا تمكَّن من طاعةٍ ما، وكانت هذه الطاعةُ خالصةً لوجه الله تعالى فإنَّ أجرها عظيمٌ، وثوابها جزيلٌ، أمَّا الشرك فهو محبطٌ لجميع القربات، وموجبٌ للخلود في نار جهنَّم، بل هو نجسٌ، ونجاسةُ الشرك ملازمةٌ لا تطهرّها المصائب المكفِّرةُ ولا الحسناتُ الماحية، ولا تزكو النفسُ بسائر أنواع العبادات حتى تزكو بالتوحيد أولاً، وهو الإيمانُ بالله وملائكتِه وكتُبه ورسُلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِه وشرِّه، فكلَّما قويَ الإيمانُ بذلك زكت النفسُ واطمأنَّت، وأثمرت الثمارَ اليانعةَ.

٢- الصلاةُ وفعلُ الواجبات والنوافل: وفي حديثُ الولي عنه -صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله تعالى: "وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممّا افترضتُه عليه"[(١)]، والصلاةُ أهم العبادات والواجبات بعد الشهادتين، فهي من أهم وسائل وأسبابِ تزكية النفوس، قال الله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[(٢)]، وفي الحديث المتفق عليه: (فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحُو اللهُ بهنَّ الخطايا)[(٣)]، فعملُ الصالحاتِ يطهِّر النفس ويُزكّيها من الذنوب السابقة، ومن تلك الأعمال بعد الصلاة: الصدقةُ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٠٥).

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٣) رواه البخاري (١/ ١١٢)ومسلم (١/ ٤٦٢).

سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] ، فالعملُ الصالح يحصلُ به التطهيرُ والتزكية، وكذلك جميعُ الطاعات من واجبات ونوافل تكون وسائلَ لتزكية النفوس.

٣- ومن وسائل تزكية النفس تركُ المحرَّمات عموماً: قال ابنُ تيمية رحمه الله: (النفسُ والأعمالُ لا تزكو حتى يُزالَ عنها ما يناقضُها، ولا يكونُ الرجلُ متزكياً إلاّ مع ترك الشرِّ، فإنَّه يُدنِّسُ النفس ويُدسِّيها، قال ابنُ قتيبة: دسَّاها أي: أخفاها بالفجور والمعصية)[2]، فالابتعادُ عن المحرَّمات كبيرةٍ أو صغيرةٍ يؤدِّي إلى تزكية النفس، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[3] وارتكابُ المحرَّماتِ والمعاصي يؤدي إلى موت القلب فلا تتزكى النفس.

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ *** وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوب حياةُ القلوب *** وخيرٌ لنفسك عصيانُها

٤- ومن وسائل تزكية النفس محاسبةُ النفس: قال ابن القيمّ -رحمه الله-: (زكاةُ النفس وطهارتُها موقوفةٌ على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهُر ولا تصلحُ البتَّةَ إلا بمحاسبتها، قال الحسنُ -رحمه الله-: إنّ المؤمنَ لا تراهُ إلا قائماً على نفسِه؛ ما أردتِ بكلمةِ كذا؟ ما أردتِ بأكلة كذا؟ ما أردتِ بمدخلِ كذا ومخرج كذا؟ ما أردتِ بهذا؟ ما لي ولهذا؟ واللهِ لا أعودُ إلى هذا، ونحو هذا من الكلام، فمحاسبةُ النفسِ يُطلعُ على عيوبها ونقائصِه، فيمكنُه السعيُ في إصلاحها)[4]، ثم قال أيضاً: (وأخير ما على المكلَّفِ الإهمالُ، وتركُ المحاسبةِ

---

(1) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(2) الفتاوى: (١٠/١٨٨- ١٠/٦٢٩)

(3) سورة النور ، الآية ٣٠ .

(4) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٧) .

والاسترسال، وتسهيلُ الأمورِ وتمشيتُها؛ فإنَّ هذا يؤولُ به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرورِ، يُغمضُ عينَه عن العواقب، ويتَّكلُ على العفو؛ فيهملُ محاسبةَ نفسِه والنظرَ في العاقبةِ، وإذا فعلَ ذلك سهُل عليه مواقعةُ الذنوب وأنِسَ بها، وعَسُر عليها فطامُها)[1].

قال ميمونُ بنُ مهران رحمه الله: (لا يكونُ الرجلُ من المتقين حتى يحاسبَ نفسَه أشدَّ من محاسبةِ شريكِهِ، حتى يعلمَ من أين مطعمُه، ومن أين ملبسُه، ومن أين مشربُه؛ أمِنْ حلالٍ ذلك أم من حرامٍ.)[2].

٥- ومن وسائل تزكية النفس الحرص على التأدُّب بآداب وأخلاق الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

٦- ومنها طلبُ العلم الشرعي، والعملُ به، والدعوةُ إليه، والصبرُ على الدعوة.

٧- ومنها مجاهدة النفسِ والهوى والشيطانِ والدنيا، والزهدُ فيها.

٨- ومنها التوبةُ والاستغفارُ إلى الله من كلِّ ذنبٍ في كلِّ وقتٍ.

٩- ومنها الرفقة الصالحةُ ومصاحبةُ الأخيار.

١٠- ومنها الحذر: الحذرُ من أمراض النفوس كالعُجب والغرور والكبرِ وغيرها.

١١- ومنها الصبرُ بأنواعه: على الطاعة، وعلى البلاءِ، وعن المعصية.

والخلاصةُ أن تزكية النفس سببٌ للفوز بالجنّة.

---

[1] إغاثة اللهفان: (١/١٣٦).

[2] رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٨٩)

قصص حول تزكية النفس

تزكية النفس تعني التَّطهُّر والابتعاد عن الذنوب، سواء الكبائر، أو الصَّغائر، وتتمثَّل أهمية تزكية النفس في نيل رضا المولى – عزَّ وجلَّ – والفلاح في الدنيا والآخرة، والتَّحلِّي بالصفات والأخلاق الحميدة في حد ذاته يُشعر الإنسان بسعادةٍ غامرةٍ، كما أن ذلك له تأثير سحري في التعامل المجتمعي بين بني البشر، ويجعل الجميع في وئام وسلام، وبعيدًا عن التَّشاحُن والبغضاء والكراهية.

ما طرق تزكية النفس؟

يوجد كثير من الوسائل أو الطرق التي يمكن عن طريقها تزكية النفس، ومن أبرزها:

المحافظة على العبادات:

من المهم أن يُحافظ المسلم على أداء العبادات والفرائض، فذلك من أبرز وسائل تزكية النفس.

قراءة وتدبُّر القرآن الكريم:

من المهم قراءة القرآن الكريم بشكل مُستديم، مع أهمية تدبُّر المعاني، والعمل بمُقتضاها، ويُعتبر ذلك من بين طرق تزكية النفس.

المداومة على الاستغفار:

يقول الله – سبحانه وتعالى – في مُحكم آياته، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[1].

([1]) سورة الأنفال ، الآية ٣٣ .

والاستغفار وسيلة محورية في تزكية النفس.

الدُّعاء للمولى عزَّ وجلَّ:

يُعَدُّ الدعاء إحدى الوسائل المهمة التي تُزَكِّي النفس. يقول المولى، سبحانه وتعالى: (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[1].

وسائل أخرى:

يُوجد وسائل أخرى لتزكية النفس؛ مثل: التحلي بالصدق، والأمانة، وحب الخير للناس، والصبر، واليقين بالله، ومحاسبة النفس ولومها عند القيام بذنب، والتخلص من الأخلاق السيئة؛ مثل: الطمع، والبُخل، والرِّياء، وحب الدنيا.

القصص

قال مورق العجلي رحمه الله: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة، فلم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو يا أبا المعتمر ؟. قال: الصمت عما لا يعنيني[2]

قال مُحَمَّد بن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[3].

قال الإمام ابن حزم رحمه الله: كانت في عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات

([1]) سورة البقرة ، الآية ١٨٦.

([2]) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٧٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١٨٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (ص: ٩٧) وأحمد في الزهد (ص: ٢٤٧)وانظر صفة الصفوة (٢/ ١٤٨) .

([3]) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٧) وانظر صفة الصفوة (١/ ٣٧٨) وسير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ٩٢٦) و تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٦/ ٥١)و تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (١/ ٩٦)و سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٣٥٥) .

الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس أُعاني مُداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنَّه [1] .

قصة معاصرة حول تزكية النفس:

قصة الطالب وصاحب المنزل:

يقول أحد الطلاب القادمين من دولة العراق يدرس بجامعة القاهرة في جمهورية مصر العربية، إنه كان يستأجر إحدى الشُّقق ويُقيم في جمهورية مصر العربية، ومرَّ بضائقة مالية، وأصبح بالكاد يجد قُوت يومه، وطالبه صاحب المنزل بدفع الإيجار الشهري المتأخر، وإلا فليتركها ويرحل في أسرع وقت، وعلى لسان صاحب الشقة: "توسَّلت للمالك بما فيه الكفاية، وأصرَّ على تركي للشقَّة في حالة عدم دفع الإيجار".

ويُتابع الطالب حديثه: "لم أجد ما أفعله سوى أن أمشي في الشوارع دون هدف؛ لكي أخرج من حالتي النفسية السيئة، ولقد حدَّثتني نفسي بالدخول إلى أحد المساجد بنية الدعاء وتفريج الكرب، وكان يتزامن ذلك مع أداء صلاة العصر؛ فصليت في جماعة، وجلست في المسجد لفترة كبيرة، وأخذت أدعو الله بكل جوارحي، وحاولت أن أتذكَّر ما قُمتُ به من أعمال خير في دُنياي؛ كي يُنقذني المولى – عزَّ وجلَّ – مما ألمَّ بي من ضائقة مالية، وبكيت بشدة، ثم قُمتُ، وعُدت إلى المنزل...".

([1]) رسائل ابن حزم (١/ ٣٥٤)و الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ٣٣) .

ويتابع الطالب حديثه: "وبعد أقل من نصف ساعة، وبفضل الله، تفاجأتُ بصاحب المنزل يدق جرس الباب، ومن ثم قُمت بالفتح له، وفي مُخيّلتي أنه سيُكرِّر نفس الكلام المتعلق بأخذ الأثاث والعفش، والخروج من الشقة في حالة عدم الدفع".

ويُقسم الطالب صاحب القصَّة بالله أن صاحب المنزل قال له نصًّا:" اقعُد في الشقَّة على راحتك، سأنتظر مدة لحين أن تُدبِّر أمورك"، وبعد ذلك بيوم، جاءت للطالب حوالة بريدية من أهله بالعراق، وقام بدفع ما عليه من مُتأخِّرات، وتلك كانت إحدى قصص تزكية النفس، والتي تُظهر أهمية الدُّعاء لله وقت الأزمات.

مـــا حُكم تزكية النفس؟

أجمع فقهاء وعُلماء الأمة الإسلامية على أن تزكية النفس فرض عين على كل مُسلم ومُسلمة، فهي تطهير لما يُصيب النفس البشرية من شرور ومُعاصٍ .

محاسبة النفس

قال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[1] هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه لا ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده، واستعان بربه في تتميمه، وتكميله، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه، وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة لا محالة [2].

([1]) سورة الحشر ، الآية ١٨ .

([2]) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٣) .

تزكية النفس ومدحها بين الجواز والنهي

فلا تعارض بين الآية الكريمة وبين الحديث، لأن النهي عن تزكية النفس إنما هو لمن زكاها ومدحها لغير حاجة بل للفخر والإعجاب، أو مدحها بما ليس فيها، وأما من زكاها شكرا للنعمة، أو لبيان فضله ليقتدي به كما في الحديث المذكور في السؤال، فلا ينهى عن ذلك، فقد قال أهل التفسير في معنى الآية الأولى:(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1]. أي لا تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم وبطهارة أنفسكم من المعاصي والرذائل، وهذه الآية مثل قول الله تعالى:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)[2].

ففي الآية الأولى نهي صريح عن مدح النفس والرفع من شأنها، وفي الآية الأخرى إنكار شديد على من يفعل ذلك من اليهود وغيرهم.

وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: وأما النهي عن تزكية النفس فإنما هو لمن زكاها ومدحها لغير حاجة، بل للفخر والإعجاب، وقد كثرت تزكية النفس من الأماثل عند الحاجة كدفع شر عنه بذلك، أو تحصيل مصلحة للناس، أو ترغيب في أخذ العلم عنه، أو نحو ذلك، فمن المصلحة قول يوسف عليه السلام:(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[3] ومن دفع الشر قول عثمان . رضي الله عنه . في وقت حصاره أنه جهز جيش

---

(1) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

(2) سورة النساء ، الآية ٤٩.

(3) سورة يوسف ، الآية ٥٥ .

العسرة وحفر بئر رومة، ومن الترغيب قول ابن مسعود هذا، وقول سهل بن سعد: ما بقي أحد أعلم بذلك مني، وقول غيره: على الخبير سقطت وأشباهه. انتهى[1].

الجمع بين الآيات الآمرة بتزكية النفس والايات الناهية عن ذلك

فالنهي في قوله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) للتحريم، هذا هو الأصل، وهذا من المواضع التي يظهر فيها تعارض مع غيرها، فالله أمر العباد بتزكية نفوسهم (وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)[2] (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[3] على أحد التفسيرين، وفي قوله: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) ما يظهر فيه التعارض مع الآيات السابقة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)[4] ؟

والجواب: أن التزكية في الآيات الأولى المراد بها تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح والخلق الفاضل (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)[5] ، وأما التزكية المنهي عنها فهي ادّعاء الفضل والكمال مما يتضمن الفخر، والله أعلم، ومن تزكية النفس المحمودة: التواضعُ واحتقار العمل

ممن زكى نفسه اليهود والنصارى قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) [6] .

([1])شرح النووي على مسلم (١٦/١٧) .

([2]) سورة فاطر ، الآية ١٨ .

([3]) سورة الشمس ، الآية ٩ .

([4]) سورة النساء ، الآية ٤٩ .

([5]) سورة النور ، الآية ٣٠ .

([6]) سورة النساء ، الآية ٤٩ .

هذا تعجيب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه.

وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}[1] ويقولون: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى}[2] وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[3] فهؤلاء هم الذين زكاهم الله ولهذا قال هنا: {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ}[4]- أي: بالإيمان والعمل الصالح بالتخلي عن الأخلاق الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء فهم -وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب لهم وحدهم- فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} وهذا لتحقيق العموم- أي: لا يظلمون شيئا ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها[5].

وهم يقولون انهم شعب الله المختار قبحهم الله وممن زكى نفسه قبلهم الشيطان الرجيم .

قال تعالى: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)[6]

---

(1) سورة المائدة ، الآية ١٨ .
(2) سورة البقرة ، الآية ١١١ .
(3) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .
(4) سورة النساء ، الآية ٤٩ .
(5) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٢) .
(6) سورة الأعراف ، الآية ١٢ .

نفوس الكبار كبارا

يقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسامُ

والمعنى:

إذا قويت الهمة وكبرت النفس، تعب الجسم في غاياتها ومطامعها، وترقّت به هذه الهمّة إلى معالي الأمور، ومراقي المجد، فتعب الجسم في الوصول إلى هذه المقاصد العظيمة، بخلاف الفاشل البليد، فإنه قد ارتاح من هذا كله.

عندما تكون النفوس كبيرة تتخلق بالتواضع، وتتصف بالحلم، وتسعى دائماً إلى العلم الذي يرتقي بها إلى كل خير ويجعلها تتسامى في سعة الأفق ولطافة الحياة، وتبقى دائما ساعيةً للخير أينما توجه.

النفوس الكبيرة تجعل أصحابها لا يرتاحون إلا حيث التعب، ولا يقرون إلا في شوامخ الجبال أو منازل الثريا؛ كما قال المتنبي:

كلَّ يومٍ لك احتمالٌ جديدٌ ومسيرٌ للمجدِ فيه مُقامُ

وإذا كانت النفوسُ كبارا تعبت في مرادِها الأجسامُ

في عظمة تلك النفوس الكبيرة تذوب الأحقاد والضغائن وتسلم الصدور على كل أحد؛ لأن جزاء سلامة الصدر هو الجنة.

أصحاب النفوس الكبيرة ليسوا أهلَ مراء وجدل، بل أهل خلق حسن وسلامة معشر، يطمعون دائماً في قوله ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[1] رواه أبو داوود بإسناد صحيح.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (ما جادلتُ أحداً إلا تمنيتُ أن يُظهر الله الحق على لسانه دوني)[2].

أصحابُ النفوس الكبيرة تنتهي عندهم المشكلات عندما يبدؤها غيرهم، فنفوسهم الكبيرة تجعلهم يحتوون الآخرين ويغفرون زلاتِهم وينظرون إليهم بعين الرحمة والإشفاق ما يجعلهم يتحملون الأخطاء ويصفحون عن العثرات؛ فالحياة في نظرهم أقصرُ من أن يقضوها في تسجيل الأخطاء التي ارتكبها الناس في حقهم وفي تقوية روح العداء معهم.

ونفوسهم الكبيرة لما امتلأت بالحكمة والحق تواضعت للخلق عندما يتعالى الفارغون ويتكبرون، كما قال القائل:

مـــــلأى الســـــنابل تنحـــــني بتواضـــــعٍ والفارغـــــاتُ رؤوسُـــــهن شـــــوامخُ

ونفوسهم الكبيرة كبيرة أنى لمثلي أن يكتب عن كل أبعادها وعظمتها؛ لذا سأقف ههنا تاركاً لك ايها القارئ العزيز مجالاً خصباً تتأمل فيه بنفسك في تلك النفوس الكبيرة.

([1]) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٣)وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩).

([2]) انظر مجمل أصول أهل السنة (٣/ ٤، بترقيم الشاملة آليا).

مدح النفس

أولاً: قال الله عز وجل: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1].

وفي هذا نهي عن تزكية النفس وإطرائها والإخبار عنها بطهارتها وبعدها عن الذنوب والآثام لغير حاجة إلى ذلك، إلا مجرد حب المدح والثناء.

قال الطبري رحمه الله: يقول جل ثناؤه: لا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي [2] .

وقال الشوكاني رحمه الله:" أَيْ: لَا تَمْدَحُوهَا وَلَا تُبَرِّئُوهَا عَنِ الْآثَامِ وَلَا تُثْنُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ تَرْكَ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْخُشُوعِ [3]".

وقال ابن عقيل رحمه الله:" نَهَى عَنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالْمَدْحِ وَالْإِطْرَاءِ الْمُورِثِ عُجْبًا وَتِيهًا وَمَرَحًا[4].

ثانياً: الأصل في ذكر محاسن النفس، ومدحها بذلك: المنع، وأقل أحواله الكراهة، لكن في موضع الحاجة والمصلحة الشرعية: يرخص في مثل ذلك، بقدر ما تقتضيه الحاجة.

قال النووي رحمه الله: " اعلم أن ذكرَ محاسن نفسه ضربان: مذموم ؛ ومحبوب.

فالمذمومُ: أن يذكرَه للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميّز على الأقران، وشبه ذلك.

والمحبوبُ: أن يكونَ فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكّراً، أو مُصلحاً بين اثنين، أو يَدفعُ عن نفسه شرّا، أو

---

(1) سورة النجم، الآية ٣٢ .

(2)"تفسير الطبري" (٢٢/٥٤٠).

(3) فتح القدير" (٥/ ١٣٦) .

(4) الآداب الشرعية " (٣/ ٤٦٤).

نحو ذلك، فيذكر محاسنَه، ناوياً بذلك أن يكون هذا أقربَ إلى قَبول قوله واعتماد ما يذكُره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، أو نحو ذلك.

وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص، كقول النبيّ ﷺ: (أنا النَّبِي لا كَذِبْ)[1]، (أنا سَيِّدُ وَلَد آدَم)[2]، (أنا أعْلَمُكُمْ باللهِ وأتْقاكُمْ)[3]، (إني أبِيتُ عنْدَ ربي)[4]، وأشباهه كثيرة.

وقال يوسف ﷺ: (اجْعَلْنِي على خَزَائِنِ الأَرْضِ إني حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[5]، وقال شعيب ﷺ: (سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)[6].

وقال عثمان ﷺ حين حُصر ما رويناه في صحيح البخاري أنه قال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ جَهّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ) فجهّزتهم ؟ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ حَفَرَ بِئرَ رُومَة فَلَهُ الجَنَّةُ) فحفرتها؟ فصدّقوه بما قال[7].

وروينا في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال حين شكاه أهل الكوفة إلى عمرَ بن الخطاب ﷺ وقالوا: لا يُحسن يصلي!.

فقال سعد: والله إنّي لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله تعالى[1].

---

(1) رواه البخاري (4/ 31) ومسلم (3/ 1400).

(2) رواه مسلم (4/ 1782).

(3) رواه البخاري (1/ 13).

(4) رواه بهذا اللفظ البزار (15/ 391) و إسحاق بن راهويه (2/ 463) ورواه البخاري (3/ 38)ومسلم (2/ 774) بلفظ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ.

(5) سورة يوسف، الآية 55.

(6) سورة القصص، الآية 27.

(7) رواه البخاري (4/ 13).

وروينا في صحيح مسلم عن عليّ ﷺ قال: والذي فلق الحبَّة وبرأَ النسمةَ، إنه لعهدُ النبيّ ﷺ إليّ: أنه لا يحبني إلا مؤمنٌ، ولا يبغضني إلا منافق[٢].ونظائر هذا كثيرة لا تنحصر، وكلُّها محمولة على ما ذكرنا [٣]"

وقال ابن مفلح رحمه الله:" قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ مَدَحَ نَفْسَهُ بِهَذَا الْقَوْلِ، وَمِنْ شَأْنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ التَّوَاضُعُ ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمَّا خَلَا مَدْحُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ بَغْيٍ وَتَكَبُّرٍ، وَكَانَ مُرَادُهُ بِهِ الْوُصُولَ إلَى حَقٍّ يُقِيمُهُ، وَعَدْلٍ يُحْيِيه، وَجَوْرٍ يُبْطِلُهُ: كَانَ ذَلِكَ جَمِيلًا جَائِزًا.

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاَللَّهِ مَا آيَةٌ إلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ[٤].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَأَتَيْتُهُ[٥].

فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الشُّكْرِ لِلَّهِ وَتَعْرِيفِ الْمُسْتَفِيدِ مَا عِنْدَ الْمُفِيدِ..

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " وَاَلَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ سُورَةٌ إلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ أُنْزِلَتْ، وَمَا مِنْ آيَةٍ إلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إلَيْهِ[٦].

وَفِي تَرْجَمَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " سَلُونِي فَوَاَللَّهِ لَئِنْ فَقَدْتُمُونِي لَتَفْقِدُنَّ رَجُلًا عَظِيمًا[١].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢)ومسلم (٤/ ٢٢٧٧) .

(٢) رواه مسلم (١/ ٨٦) .

(٣) الأذكار للنووي(ص: ٢٧٨-٢٧٩) مختصرا .

(٤) انظر جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٦٤) والآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٦٥)

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٧٢) بهذا اللفظ وهو عند البخاري ومسلم بلفظ لركبت إليه كما سيأتي في الحاشية رقم ٦

(٦) رواه البخاري (٦/ ١٨٧)و مسلم (٤/ ١٩١٣) .

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَبَكَتْ ابْنَتُهُ: يَا بُنَيَّةُ لَا تَبْكِي، أَتَخَافِينَ أَنْ يُعَذِّبَنِي اللَّهُ وَقَدْ خَتَمْت فِي هَذِهِ الزَّاوِيَةِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ خَتْمَةٍ ؟[٢]

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ أيضاً: نَظَرْت إلَى أَقْرَأِ النَّاسِ فَلَزِمْته عَاصِمًا، ثُمَّ نَظَرْت إلَى أَفْقَهِ النَّاسِ فَلَزِمْته مُغِيرَةً، فَأَيْنَ تَجِدُ مِثْلِي ؟[٣].

وعلى ذلك:

فالأصل في مثل هذا السؤال ألا يجاب، بل ألا يسأل أيضاً، ومن سُئل عن مثله، رد العلم بتقوى القلوب، إلى علام الغيوب.

لكن إن كانت هناك مصلحة شرعية راجحة، دعت إلى ذلك، مع أمن الفتنة له ولغيره بمثل ذلك المديح: جاز له منه، بقدر ما تحصل به الحاجة.

جاء في "الموسوعة الفقهية الكويتية":

" ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ لا يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ فِي الْجُمْلَةِ أَنْ يَمْدَحَ نَفْسَهُ وَأَنْ يُزَكِّيَهَا.

قَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلامِ: وَمَدْحُكَ نَفْسَكَ أَقْبَحُ مِنْ مَدْحِكَ غَيْرِكَ، فَإِنَّ غَلَطَ الإِنْسَانِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِنْ غَلَطِهِ فِي حَقِّ غَيْرِهِ، فَإِنَّ حُبَّكَ الشَّيْءَ يَعْمِي وَيَصُمُّ، وَلا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى الإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ يَرَى عُيُوبَ غَيْرِهِ وَلا يَرَى عُيُوبَ نَفْسِهِ، وَيَعْذِرُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَا لا يَعْذِرُ بِهِ غَيْرَهُ.

---

(١) طبقات الفقهاء (ص: ٤٧) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (٤/ ١٨) وتاريخ الإسلام ت بشار (٢/ ٢١٧).

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٣/ ١٣٤) والجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢/ ٢٤٢).

(٣) انظر الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٦٤-٤٦٥). مختصراً.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1]، وَقَالَ: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)[2].

وَلا يَمْدَحُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ إلا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ خَاطِبًا إِلَى قَوْمٍ فَيُرَغِّبَهُمْ فِي نِكَاحِهِ، أَوْ لِيُعَرِّفَ أَهْلِيَّتَهُ لِلْوِلايَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، لِيَقُومَ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنًا أَوْ كِفَايَةً كَقَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

وَقَدْ يَمْدَحُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لِيُقْتَدَى بِهِ فِيمَا مَدَحَ نَفْسَهُ بِهِ، وَهَذَا مُخْتَصٌّ بِالأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ يَأْمَنُونَ التَّسْمِيعَ وَيُقْتَدَى بأمثالهم" انتهي[3] .

الاستعاذة من شر النفس ثلاثا صباحا ومساء وعند النوم وقرنها بالشيطان

اثنان يأمران الإنسان بفعل السوء: (النفس والشيطان)! قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي}[4] وقال: {وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[5]؛ لهذا علَّمنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منهما جميعًا كل صباح ومساء..

فقد روى الترمذي –وقال الألباني: صحيح– عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لاَ

---

(1) سورة النجم، الآية ٣٢ .

(2) سورة النساء ، الآية ٤٩ .

(3) الموسوعة الفقهية الكويتية" (٣٨٠/٣٦)

(4) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(5) سورة البقرة ، الآيات ١٦٨-١٦٩ .

إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»[1]"، وزاد في رواية أخرى صحيحة للترمذي: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»[2].

فهذه استعاذة من شرِّ النفس والشيطان، وقد عَلَّمها رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ، وهو أفضل الصحابة، فنحن إلى ذلك أحوج، وكلمة «شِرْكِهِ» التي جاءت في الحديث تعني ما يمكن أن يقود إليه الشيطان من الشِّرْكِ بالله، وقد وردت في روايات أخرى بتشكيل مختلف؛ وهو «شَرَكُه»؛ أي بفتح الشين والراء، وهذا يعني حبائل الشيطان ومكائده، والمعنيان صحيحان، فلْنحفظ هذا الدعاء الجميل، ولْنردِّده في ثلاثة أوقات يوميًّا: مرة في الصباح، وأخرى في المساء، وثالثة عند النوم.

موعظة تخاطب النفس

النَفسُ تَبكي عَلى الدُنيا وَقَد عَلِمَت ... إِنَّ السَلامَةَ فيها تَركُ ما فيها

لا دارَ لِلمَرءِ بَعدَ الموتِ يَسكُنُها ... إِلّا الَّتي كانَ قَبلَ الموتِ بانيها

فَإِن بَناها بِخَيرٍ طابَ مَسكَنُها ... وَإِن بَناها بَشَرٍّ خابَ بانيها

أَينَ المُلوكُ الَّتي كانَت مُسَلطَنَةً ... حَتّى سَقاها بِكَأسِ الموتِ ساقيها

أَموالُنا لِذَوي الميراثِ نَجمَعُها ... وَدورُنا لِخَرابِ الدَهرِ نَبنيها

كَم مِن مَدائِنَ في الآفاقِ قَد بُنِيَت ... أَمسَت خَراباً وَدانَ الموتُ دانيها

([1]) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٢) وأحمد (١١/ ٤٣٨)والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٤٦٧) وابن حبان (٣/ ٢٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٨٩).

([2]) رواه الترمذي (٥/ ٤٦٧) وأحمد (١/ ٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد ا (ص: ٤١٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١١).

لِكُلِّ نَفسٍ وَإِن كانَت عَلى وَجَلٍ مِنَ المَنِيَّةِ آمالٌ تُقَوّيها

فَالمرءُ يَبسُطُها وَالدَهرُ يَقبُضُها وَالنَفسُ تَنشُرُها وَالموتُ يَطويها[1]

تزكية النفس ثبات في قلب المعركة

قال عبدالله بن رواحة ﷺ مالي أراك تكرهين الجنة[2] .

وقال جعفر الطيار[3] ﷺ يا حبذا الجنة[4] .

تحرك الرجال.. الطريق شاق وطويل.. والعدو متربص في معقله.. الرجال يقتربون رويدا رويدا.. وما هي إلا ساعات قليلة ويصلون إلى ميدان المعركة.

قبل التحرك.. ودع كل رجل أهله.. فالمهمة خطيرة جدا.. واحتمال العودة منها يكاد يقترب من المستحيل.. باختصار.. إنها مهمة انتحارية.. ربما دمعت بعض العيون.. ولكن الهدف كان واضحا عند

---

(1) الأبيات لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنظر فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (1/ ٥٢٨، بترقيم الشاملة آليا) وقال بعد هذه الأبيات :

إنما المكارم أخلاقٌ مطهرةٌ ... الدين أولها والعقل ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل سادسها .....

.....والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها .

والنفس تعلم أني لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين اعصيها

واعمل لدارٍ غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

أنهارها لبن محض ومن العسل ... والخمر يجري رحيقا في مجاريها

والطير تجري على الأغصان عاكفة ... تسبح الله جهرا في مغانيها

من يشتري الدار في الفردوس يعمرها ... بركعة في الظلام الليل يحييها

(2) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ ١٢٠)و المعجم الكبير للطبراني (13/ ١٨٢) وسنن سعيد بن منصور (2/ ٣٤٦) .

(3) جَعْفَر بْن أَبِي طالب واسم أَبِي طالب عبد مناف بْن عبد المطلب بْن هاشم بْن عبد مناف بْن قصي القرشي الهاشمي، ابن عم رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخو علي بْن أَبِي طالب لأبويه، وهو جَعْفَر الطيار، وكان أشبه الناس برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلقًا وخلْقا، أسلم بعد إسلام أخيه علي بقليل انظر أسد الغابة ط العلمية (1/ ٥٤١) الأعلام للزركلي (2/ ١٢٥) .

(4) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ ١١٨)و السنن الكبرى للبيهقي (9/ ٢٦٠) .

الجميع.. والموت في سبيله غاية يتمناها الجميع.. فأي شرف أعظم من أن يخرج من أي بيت من تلك البيوت شهيد يقتل في سبيل الله.. يتفاخر به أهله.. "نحن أهل الشهيد..."

ويصل الجيش إلى أرض المعركة.. إلى "مؤتة".. فتتسارع الأحداث بقوة.. جحافل الروم التي تصل إلى حوالي مائتي ألف مقاتل مسلحين بأقوى وأحدث الأسلحة تواجه جيشا من المسلمين قوامه حوالي ثلاثة آلاف مقاتل.. وتحسبا للمواجهة غير المتكافئة.. ينصِّب الرسول ﷺ على قيادة الجيش ثلاثة من القادة.. إن مات الأول استلم الراية الثاني وهكذا.. فهم على الترتيب:

زيد بن حارثة.. جعفر بن أبي طالب.. عبدالله بن رواحة.

وتشتعل المعركة غير المتكافئة.. ويعلو الغبار.. وتصعد معه أرواح شهداء المسلمين إلى السماء.. وتلتحف أرض المعركة بالدماء الزكية.. ورسول الله ﷺ جالس بين أصحابه يروي لهم تفاصيل المعركة لحظة بلحظة وكأنه في مؤتة.. ويستشهد القائد الأول "زيد بن حارثة" فيكبر المسلمون في المدينة.. وتستمر المعركة تحت قيادة القائد الثاني "جعفر بن أبي طالب".. ويستشهد القائد الثاني في ميدان المعركة فيكبر المسلمون في المدينة..

وها هو عبدالله بن رواحة قد جاءته الفرصة للقيادة.. قيادة جيش استشهد في مركز قيادته قائدين.. وبدأ حوار قصير بينه وبين نفسه..

كلنا بشر..

كلنا يهاب الموت..

ولكنهم أصحاب رسول الله ﷺ.. الرجال الذين اصطفاهم واختارهم الله تعالى بعد أن اطلع على قلوب الرجال فاختار أصلحهم لصحبة نبيه..

عبدالله بن رواحة مع نفسه.. ينشد وهو يتقدم:

أقسَـــــــمتِ يا نَفـــــــسُ لتَنْزِلَنَّـــــــهْ لتَنْـــــــــــــزِلَنَّ أو لَتُكْرَهَنَّـــــــــــــهْ

إن أَجلَـــــبَ النـــــاسُ وشـــــدُّوا الرَّنَّـــــة مـــــــــالِي أراكِ تكـــــــرهين الجَنَّـــــــةْ

يا نفـــــــسُ إلاَّ تُقتَلـــــــي تمـــــــوتِي هـــــذا حِمَـــــامُ المـــــوتِ قـــــد صُـــــلِّيتِ

مـــــا تمنيـــــتِ فقـــــد أُعطِيـــــتِ إن تَفعَلـــــي فِعْلَهُمـــــا هُـــــدِيتِ

ثم تقدم وتقدم وانطلق.. وقاد ﷺ جيش المسلمين بعد استشهاد صاحبيه.. وقاتل حتى استشهد ولحق بهما للقاء ربه.. وكبر الصحابة عند رسول الله ﷺ بالمدينة..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)[1]

أعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ .. هناك في مؤتة، بدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل من المسلمين يواجهون مائتي ألف مقاتل كافر، معركة عجيبة سجلها التاريخ بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت رياح الإيمان جاءت بالعجائب..

وقد وقعت في العام الثامن من الهجرة، وكانت مقدمة لفتح بلدان النصارى.

---

(1) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى ملك الروم، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام ـ من قِبل قيصر، فأوثقه رباطا، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، وهو بمثابة إعلان حرب، فاشتد ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى المسلمين، ومن ثم جهز رسول الله ـ ﷺ ـ جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال:(إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة)[1] وأمرهم أن يأتوا مكان مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أمر رجلا على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال:(اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا)[2] .

ـ فانطلق الجيش الإسلامي حتى وصل إلى معان من أرض الشام، فعلموا أن أعداءهم حشدوا لهم حشودا ضخمة لقتالهم، إذ جمعوا لهم مائة ألف مقاتل نصراني من الروم ومائة ألف نصراني من العرب، فتشاور المسلمون، فقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما يأمرنا بأمره فنمضي.. لكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم

([1]) رواه البخاري (٥/ ١٤٣)

([2]) رواه مسلم (٣/ ١٣٥٧).

تطلبون ـ الشهادة ـ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة[1]..

فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين، واندفع زيد بن حارثة بالمسلمين إلى منطقة مؤتة(جنوب الكرك بالشام)، حيث قاتل الروم هناك، فكانت ملحمة كبيرة، سجل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة انتهت باستشهادهم..

ثم اتفق المسلمون على إمرة خالد بن الوليد ـ ﷺ ـ، فحمل الراية وأخذ يقاتل ويحاول إنقاذ الجيش من هذا المأزق الخطير، بالانسحاب المنظم من أرض المعركة، وقتال الانسحاب شاق ومن أصعب العمليات العسكرية، حتى دخل الليل فكان هدنة مؤقتة، فأعاد خالد فيها تنظيم جيشه، وهجم على الروم بعد الفجر وقتل منهم الكثير، واستشهد من المسلمين اثنا عشر رجلا فقط، ورجع خالد ـ ﷺ ـ بجيشه إلي المدينة.. ويمكن القول إن خالدا بخطته وشجاعته، قد أنقذ المسلمين من هزيمة ماحقة، ولا تعد خسائر المسلمين شيئا يذكر، بجانب خسائر النصارى، ومن ثم كان انسحابه قمة النصر بالنسبة لظروف المعركة..

لقد أظهرت معركة مؤتة معجزة للرسول ـ ﷺ ـ، فرغم أن النبي ـ ﷺ ـ لم يشارك فيها، إلا أنه نعى للمسلمين القادة الثلاثة، وأخبر باستشهادهم، وهم ما زالوا في أرض المعركة، وبينهم مسافات شاسعة، فحدث رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه بالمدينة عن أحداث المعركة وكأنه يشاهد سير القتال، ولم يخطئ في شيء منها، وهذا يدل على أن الله زوى له الأرض، فأصبح يرى ما يحدث لأصحابه وهم يقاتلون على

(1) انظر سيرة ابن هشام ت السقا (2/ 375) والسيرة النبوية لابن كثير (3/ 458) وتاريخ دمشق لابن عساكر (2/ 7) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (2/ 81) وتاريخ الإسلام ت بشار (1/ 321).

مشارف الشام، وهذه من جملة معجزاته وآياته الدالة على أنه رسول الله ـ ﷺ ـ، ويتلقى الوحي من الله عز وجل.

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، أن النبي ـ ﷺ ـ نعى زيدا وجعفر وابن أبي رواحة قبل أن يرجعوا إلى المدينة أو يأتي خبرهم، فقال ـ ﷺ ـ:(أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ الراية جعفر فأصيب، ثم أخذ الراية ابن أبي رواحة فأصيب، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم)[1] وهذا الحديث بجانب إظهاره لمعجزة للنبي ـ ﷺ ـ، فإنه يسجل فضلا خاصا لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ، حيث لقبه النبي ـ ﷺ ـ بسيف الله..

كما أعطتنا معركة مؤتة درسا هاما ـ ما أحوج أمتنا إليه اليوم ـ في أثر الإيمان بالله على سير المعارك ونتائجها، فما يثير الدهشة في هذه المعركة، ذلك الفرق الكبير بين عدد المسلمين وعدد أعدائهم، فقد رأينا أن عدد الروم ومن معهم ما يقرب من مائتي ألف مقاتل، كما روى ذلك ابن إسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة، على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف، وهي نسبة تجعل الجيش الإسلامي أشبه بنواة صغيرة في أرض كبيرة سوداء، وما يزيد من الدهشة، أن يصمد المسلمون وهم سرية ليس فيها رسول الله ـ ﷺ ـ، أمام هذا اليم المتلاطم، فيقتل أميرهم الأول ثم الثاني ثم الثالث،

وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، وينشد جعفر ـ رضي الله عنه ـ قائلا:

يا حبذا الجنة واقترابها*** طيبة وباردا شرابها

([1]) رواه البخاري (٥/ ٢٧).

والروم روم قد دنا عذابها***كافرة بعيدة أنسابها[1]

علي إذ لاقيتها ضرابها

فأخذ الراية بيده اليمنى فقطعت، فتناولها بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين، مثخنا بالجراح. يقول نافع أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو

قتيل، قال: (فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره(يعني ظهره)[2].

وبعد استشهاد جعفر تسلم الراية عبد الله بن رواحة، فامتطى جواده وهو يقول:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي***هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت***إن تفعلي فعلهما هديت

وتقدم يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه.

والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين بلغت حدا عجيبا، لم تعرفه أمة سابقة أو لاحقة، ـ شجاعة تحطم أمامها كبرياء أمم، ـ كفارس والروم ـ عاشت مع التاريخ دهرا تصول وتجول لا يوقفها شيء.. لكن العجب يزول، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله، والاستعانة به، واليقين بوعده ونصره.. ثم إن الشجاعة والاستهانة بالموت لم يكن قاصرا على الرجال فحسب، بل تعدى الرجال إلى الأطفال، فقد رأى أولئك الصغار أن انسحاب خالد ومن معه ـ دون نصر حاسم أو شهادة في سبيل الله ـ فرارا يقابل بحثو

([1]) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١١٨) وسيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٣٧٨) وصحيح السيرة النبوية للعلي (ص: ٣٩٠) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/ ١٣٢) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (٢/ ٨٢) وتاريخ الإسلام ت بشار (١/ ٣٢٣).

([2]) رواه البخاري (٥/ ١٤٣).

التراب عليهم، وقالوا لهم: يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟، فقال النبي ـ ﷺ ـ :(ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى)[1]..

لقد كانت معركة مؤتة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى من عرب وعجم، لأنها أول صدام مسلح بينهما، وأظهرت الروح المعنوية العالية للمسلمين، وضعف الجندي النصراني.. ومن ثم فإن التأمل بعمق في هذه المعركة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي والعسكري لدى الأعداء، فقد رأينا ما يفعله الإيمان بالله عز وجل بالرجال بل بالأطفال..

غنى النفس كنز لامثيل له

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[2].

شرح ألفاظ الحديث:

((لَيْسَ الْغِنَى)): الغنى بكسر الغين وآخره ألف مقصورة، وكذلك بفتح الغين وآخره مد، وهو الكفاية.

((عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ)): العَرض: بفتح العين والراء وهو حطام الدنيا ومتاعها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوه ﴾[3] .

من فوائد الحديث:

([1]) انظر سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٣٨٢) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٦٩) وسير أعلام النبلاء ط الحديث (٢/ ٨٧)و تاريخ الإسلام ت بشار (١/ ٣٢٨).

([2]) رواه البخاري (٨/ ٩٥)ومسلم (٢/ ٧٢٦).

([3]) سورة الأعراف، الآية ١٦٩ .

الحديث دليلٌ على معيار الغنى الذي ينبغي أن يكون في قلب العبد، وهو غنى النفس، لا غنى المال وكثرته وازدياده كما يظن كثير من الناس؛ لأن من كان كذلك فلن يستغني؛ لأنه سيظل يطلب الازدياد من المال والحرص عليه، ولن يشبع كما تقدم بيانه، فكيف تستغني نفسه إذا كان معياره في ذلك كثرة المال؟

ففرق بين من أغنى الله عز وجل قلبه وقنَّعه بما آتاه، فرضِي وحَمِد الله وفرَّغ قلبه لربه، وبين من اعتبر غناه في كثرة ما يجمعه ويحرِص عليه من حطام الدنيا، فهو وإن كان غنيًّا بماله، فإنه فقير بحرصه وشرهِه ولَهَثِه وراء الدنيا، فلن يقنع قلبُه بما عنده ولو كثُر، فيمتلئ قلبه وينشغل بالحرص على الدنيا وحطامها، ويكون إقباله على ربه والدار الآخرة ضعيفًا، والله المستعان.

فإن قيل: كيف يحقق العبد غنى النفس؟

قال ابن حجر – رحمه الله –: "وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزَع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار العبد لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله جل شأنه: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾[1] يتنزل على غنى النفس، فإن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه النبي – ﷺ – قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال، والله أعلم"[2]؛.

([1])سورة الضحى ، الآية ٨ .

([2]) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٧٣).

الـــــنَفسُ تَجـــــزَع أَن تَكـــــونَ فَقـــــيرَةً وَالفَقـــــرُ خَـــــيرٌ مِـــــن غِـــــنىً يُطغيهـــــا

وَغِـــنى النَفـــوسِ هُـــوَ الكَفـــافُ وَإِن أَبَـــت فَجَميـــــعُ مـــــا في الأَرضِ لا يَكفيهـــــا

أثر التوحيد في تزكية النفوس

إن أساس بناء النفوس على الاستقامة والصلاح هو تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، والله تعالى هو المنعم على عباده بإرشادهم لما فيه تزكية نفوسهم: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1] .

ولذلك كان الأساس الأول لتزكية النفس هو تحقيق توحيد الله تعالى بإفراده بالربوبية والألوهية وإثبات الأسماء الحسنى وصفات الكمال التي لا تنبغي إلا له سبحانه.

ولقد أرسل الله جميع الرسل يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[2] .

وفي الحديث: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟". قال: الله ورسوله أعلم، قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"[3].

قال ابن القيم رحمه الله: (التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى)[4].

---

(1) سورة النور ، الآية ٢١ .

(2) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(3) رواه البخاري (٨/ ٦٠) ومسلم (١/ ٥٨).

(4) مدارج السالكين (٣/ ٤١١).

ولقد كانت الآيات تتنزل في مكة لتثبيت عقيدة التوحيد في نفوس الموحدين وترد على المعاندين والمعرضين الذين أصروا على الشرك ومعاداة دعوة التوحيد.

كما أن القرآن قد أقام الحجة على هؤلاء المشركين بوجوب إفراده بالعبادة والطاعة بما أقروا به من كونه سبحانه هو وحده الخالق لهذا الكون وما فيه. وأظهر القرآن عجز هذه الآلهة المزعومة، وبين أنها لا تملك نفعا ولا ضرا. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)}[1] .

وقال عز وجل في بيان استحقاقه وحده العبادة وبطلان عبادة ما سواه: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)}[2] .

كما ركزت آيات الكتاب الكريم على إيقاظ الفطرة التي فطر الله الناس عليها وذلك لتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[3].

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢١-٢٢ . .

(٢) سورة النحل ، الآيات ١٩-٢٣ .

(٣) سورة يونس الآية ١٢ .

وقال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[1].

وهذه حقيقة يقررها القرآن أن بعض بني الإنسان في حال الرخاء قد ينسى خالقه، لكنه عند الشدائد ووقوع الضر به لا يجد أمامه إلا الله تعالى ملجأ، لأن هذه هي الفطرة، أما الشرك والإلحاد فهو غش وخداع ينكشف عند أول شدة تحيط بالإنسان.

ولا شك أن المؤمن الموحد الذي تيقظت فطرته يحيا حياة كريمة ويشعر أن لوجوده قيمة وغاية وأن له في هذه الدنيا رسالة، فيقوم بما أوجب الله تعالى عليه وينتهي عما نهى الله عنه فينعم بالراحة وسكينة النفس وطمأنينة القلب، بخلاف المشرك أو الملحد الذي تراه عديم الثقة بالحياة دائم الاضطراب والقلق لا يجد لحياته غاية وليس له في هذه الدنيا رسالة.

ولقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبين آثار التوحيد في تحقيق طمأنينة النفس وتزكيتها، وتأثير الشرك في اضطرابها وقلقها، ومن ذلك:

قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)}[2]

([1]) سورة الزمر ، الآية ٨.

([2])سورة إبراهيم ، الآيات ٢٤-٢٧ .

فقد بينت الآيات أثر التوحيد في النفس وكأنه شجرة طيبة ثابتة لا تعصف بها الرياح ولا تقتلعها الأعاصير، وهي مثمرة على مر الأيام لا ينقطع ثمرها.

أما كلمة الشرك فهي كالشجرة الخبيثة التي لا أصل لها ولا ثبات، وهذا هو حال الشرك في اضطرابه وقلقه وعدم رسوخه.

إن الآيات لتبين لنا بجلاء أن الشرك مقطوع الصلة بالفطرة السليمة التي خلق الله عباده عليها.

ويقول الله تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[1] .

فيبين الله تعالى كيف شرح صدر المؤمن الذي استقامت فطرته ولم تتلوث ولم تحد عن التوحيد، شرح صدره للإسلام وتولاه سبحانه بالتأييد والتوفيق للخير.

أما من حاد عن الفطرة السوية التي فطر الله عباده عليها فأعرض عن الإيمان وسلك طريق الغواية والضلال فإن الله تعالى يزيده ضلالا ويجعل صدره ضيقا.

ونفس المؤمن الموحد تنعم بالراحة والاستقرار ويتوجه بكل طاقته وجوارحه إلى سيده ومولاه ومالكه ومدبر أمره الذي له ما في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير، فينعم باليقين ويمشي على الأرض وقد اتضح له الطريق.

([1]) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥.

أما المشرك فتتنازعه الأهواء فيظل معذب القلب لا يعرف للراحة معنى، ولا للسعادة طريقا، وصدق الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1] .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه.

ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين. فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه.

فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه ولا تتم عبوديته إلا بهذين...ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله [2].

ويقول ابن القيم رحمه الله: (فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ – ﷺ – فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

([1])سورة الزمر ، الآية ٢٩ .

([2]) انظر العبودية (ص: ٩٧) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٨٩) .

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[1]. (فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}[2].

(وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}[3][4].

وقال رحمه الله: يتحقَّق للعبد مقامُ {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[5] علمًا وحالًا، فتثبت قدم العبد في توحيد الرُّبوبيَّة، ثمَّ يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهيَّة، فإنه إذا تيقَّن أن الضرَّ والنَّفع، والعطاء والمنع، والهدى والضّلال، والسَّعادة والشَّقاوة كلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنّه الذي يقلِّب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، وأنَّه لا موفِّق إلّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا من خذله وتخلَّى عنه، اتَّخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، وأخوف عنده من كلِّ ما سواه، وأرجى له من كلِّ ما سواه، فتتقدّم محبَّتُه في قلبه جميع المحابِّ، فتنساق المحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسُّلطان، ويتقدَّم خوفُه في قلبه جميع المخاوف، فتنساق المخاوف كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرّجاء، فينساق كلُّ رجاءٍ له تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهيَّة، والبابُ الذي دخل إليه

---

(1) سورة النَّحْلِ ، الآية ٩٧ .

(2) سورة النَّحْلِ ، الآية ٣٠ .

(3) سورة هُودٍ ،الآية ٣ .

(4) الداء والدواء ط المجمع (١/ ٢٨٠) .

(5) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

منه: توحيد الرُّبوبيَّة، كما يدعو سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النَّوع من التَّوحيد إلى النَّوع الآخر، ويحتجُّ عليهم به، ويقرِّرهم به، ثمّ يخبر أنّهم يَنقضونه بشِرْكهم به في الإلهيَّة.

وفي هذا المشهد يتحقَّق له مقام {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [1] أي: فمِن أين يُصرَفون [2].

وبتحقيق التوحيد يحيا المؤمن في هذه الدنيا حياة الأمن والسكينة والطمأنينة، مع ما يرجوه في الآخرة من الثواب الحسن والنعيم المقيم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}"[3].

والخلاصة :

لقد خلق الله تعالى النفس البشرية وجعل لها سبلاً تزكو بها حتى تصل إلى مراتب الفوز والفلاح، ومن وسائل تزكية النفوس توحيد الله تعالى، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ والاعتصام بهما، وتحقيق معاني أسماء الله الحسنى، والابتعاد عن كل ما يغضب الله سبحانه، واستشعار رقابة الله عز وجل، والخوف منه سبحانه وتعالى.

أثر العبادات في تهذيب النفوس

من محاسن الإسلام العظيمة أنه دين شامل لكل نواحي الحياة، فلا انفصال فيه بين العبادة والسلوك، ولا بين العلم والعمل.

---

(1) سورة الزخرف ، الآية ٨٧ .

(2) مدارج السالكين (١/ ٤١٢) .

(3) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

ومما لا شك فيه أن من أعظم غايات العبادات التي شرعها الإسلام وجوبا أو استحبابا هو تزكية النفوس وتهذيبها والترقي بها نحو محاسن الأخلاق ومكارمها بحيث يصير المسلم المقيم لفرائض الله تعالى

من أحسن الناس أخلاقا وأنبلهم سلوكا وأكرمهم شيما، وهذه الغاية نلمسها في كل شعيرة من شعائر الإسلام وكل ركن من أركانه.

فالصلاة التي هي أهم الأركان في الإسلام بعد توحيد الله تعالى نجد أنها من أعظم وسائل تزكية النفوس، كما قال الله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[1].

ولهذا لما قيل للرسول ﷺ: إن فلانا يصلي الليل كله فإذا أصبح سرق. قال: " سينهاه ما تقول" أو قال: "ستمنعه صلاته"[2].

فكأن حقيقة الصلاة أنها تزكية للنفس وتطهير لها من الأخلاق الرديئة والصفات السيئة.

والصيام من غاياته العظمى تحقيق التقوى كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))[3]. ولا تتم التقوى عند العبد إلا إذا حسن خلقه مع خلق الله

---

(1) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

(2) رواه ابن حبان (٦/ ٣٠٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٠٠) وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٥٧) رواه أحمد والبزار والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢ / ٤٣٠) والبغوي في حديث علي بن الجعد (٩ / ٩٧ / ١) وأبو بكر الكلاباذي في " مفتاح معاني الآثار " (٣١ / ١ / ٦٩ / ١) بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة.

(3) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

تعالى، ولهذا جمع النبي ﷺ بين الوصية بالتقوى والوصية بحسن الخلق حين قال: " اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن[1] ".

.وذلك لأن بعض الناس يظن انه بإحسانه عبادة الله يمكنه ان يتخلى عن المعاملة الكريمة الحسنة مع الخلق فوجههم النبي ﷺ إلى ضرورة الجمع بين تقوى الله وحسن الخلق.

كما وجه النبي ﷺ الصائم إلى ضرورة التحلي بالحلم وحسن الخلق حين قال مخاطبا الصائمين:" فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم[2]...." الحديث.

والزكاة كذلك هي عبادة وفريضة وهي أيضا وسيلة من أعظم وسائل تطهير النفس من البخل والشح والأنانية، وزرع معاني الفضيلة والألفة والرحمة والشفقة، ولهذا قال الله عز وجل: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[3].

أما الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام فإننا نرى له أثرا عجيبا في إصلاح الأخلاق وتهذيب السلوك كيف لا والله عز وجل يقول: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)[4]

وحين يفسر النبي ﷺ برّ الحج بأنه" لين الكلام وإطعام الطعام" فإننا نجد لذلك أثرا عظيما في سلوك كثير من حجاج بيت الله الحرام حين يحرصون على أن يكون حجهم مبرورا فيلينون بين أيدي إخوانهم، ويتحملون منهم من التصرفات والأفعال والأقوال في الحج ما قد لا يحتملونه في غير الحج حتى إنك ترى الرجل أثناء إحرامه يحرص على

([1]) رواه الترمذي (٤/ ٣٥٦) و أحمد (٣٥/ ٢٨٤) والطبراني (١/ ٣٢٠)والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٨١)والدارمي (ص: ٦٦٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٨١) .

([2]) رواه البخاري (٣/ ٢٦) ومسلم (٢/ ٨٠٧) .

([3]) سورة التوبة ، الآية ١٠٣.

([4]) سورة البقرة، الآية ١٩٧ .

تجنب الجدل والمراء، بل لا يرد الإساءة بمثلها وهو نفسه الذي لو أوذيَ أو أُسيء إليه قبل تلبسه بالإحرام لثار وهاج وماج لكنه أثر العبادة على خُلُقه وسلوكه.

ولو أن المسلمين استلهموا هذه الروح واستشعروا هذه الغاية من عباداتهم في كل أحوالهم لتحسنت الأخلاق كثيرا ولنعم المجتمع المسلم بعلاقات ملؤها الحب والمودة والرحمة لكن الواقع المشاَهد يجعل العبد يوقن بأن بعض الناس ربما استفاد لحظيا أو وقتيا من أثر عبادته لكن الأثر لم تكن له صفة الدوام والاستمرار، وهذا بلا شك خللٌ في التطبيق يحتاج إلى التذكير بأن من أعظم غايات تشريع العبادات في الإسلام تزكية النفوس وتقويمها ونهيها عن غيِّها والابتعاد بها عن مساوئ الأخلاق وسفاسف الأمور.

أثر القرآن في تزكية نفس المسلم

أودع الله –تعالى– في كتابه الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن عظمته –سبحانه وتعالى–، وتفرّده بالخلق والتدبير لهذا الكون العظيم، وقد بيّن الله –تعالى– في كتابه الكريم بعضاً من أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأوضح للناس الطريق الصحيح الذي يوصلهم إلى النجاح في الدنيا والآخرة، وفيه ذكر لأهم المواقف والأحداث التي مرَّت بالأمم والأقوام السابقين؛ لما في ذلك من عبرة وعظة للناس من بعدهم، وقد دعا الله –تعالى– عباده المسلمين إلى قراءة كتابه بتأمّل وتدبّر، يقول الله –تعالى–:(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[1]؛ فالقرآن الكريم هو مصباح النور، ومشكاة الهداية للناس أجمعين، يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، وجميل الصفات والعادات، ويحثّ على التحلي بها، والابتعاد عن سيّئها، وقد تضمّن في كثير من سوره؛ كسورة النور،

(1) سورة ص ، الآية ٢٩ .

والحجرات، والإسراء على الحِكم، والأخلاق، والوصايا الجامعة العظيمة التي لم يحتويها أيّ مؤلّف آخر، والتي تؤدّي بالبشرية جمعاء إلى سبل الخير والسعادة.

وقد بيّن الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- أنّ التمسك بكتاب الله -تعالى-، وسنة نبيّه مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم- يكون بالوقوف على ألفاظ القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، وفهم المراد منهما، ثم العمل بما فيهما من أحكام، واتّباع ما يصلح النفس الإنسانيّة، ويطهّرها من الدنس ويزكّيها، ويسمو بها إلى مكارم الأخلاق؛ وذلك لما في القرآن والسنّة من أثر بالغ في إصلاح القلوب والنفوس، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر الناس تأثّراً بالقرآن الكريم، وأكثرهم امتثالاً بهديه القويم، وقد سُئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: (كان خُلُقُه القُرآنَ)[1]، أي أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان ممتثلاً لما أمره الله -تعالى- به في القرآن الكريم، أمّا السلف الصالح فقد دلّهم الفهم الصحيح للقرآن الكريم على أهميّة إصلاح الباطن، وتنقيته من الآفات التي تصيب النفس، وتبعدها عن طريق الله -تعالى-. وقد حوى القرآن الكريم على جملة من الأحكام، والآداب التي تقوّم سلوك النفس، وتنهاها عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، وتُنذر الإنسان من اقتراف ما يغضب الله -تعالى- ويجلب سخطه، وقد تنوّع أسلوب القرآن الكريم في تزكية النفس الإنسانيّة بين الترغيب والترهيب؛ فيدعو النفس ويرغّبها في فعل الخيرات، وامتثال المكرمات، وينهاها عن فعل المنكرات وسيّء الأخلاق والعادات، ويُبيّن لها عاقبة السوء، وفي القرآن الكريم من الأدلّة والبراهين ما يخلّص النفس من آفات الشكّ والحيرة، ويسمو بها إلى أعلى درجات اليقين بالله -تعالى-؛ فيخرج النفس من ظلمات الشرك إلى نور الهداية، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن سيّء الأخلاق إلى محاسن الأخلاق وكريمها، ويُرشد النفس إلى طريق العلم الصحيح، ويحثّها على العمل به؛ حتى

([1]) رواه مسلم (١/ ٥١٣).

تنال بذلك الخير، والنجاح في الدنيا والآخرة؛ فيسعى القرآن الكريم في جميع آياته إلى تزكية النفس الإنسانيّة، وتهذيب طباعها، وتربيتها وفق منهج أخلاقي متكامل.

أثر القرآن على سلوك المسلم

للقرآن الكريم أثر عظيم في تزكية نفس المسلم، واستقامتها على أمر الله -تعالى-، والالتزام بهدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد جعل الله -تعالى- تزكية النفس وتقويم سلوكها من أهم الأعمال الموكّلة إلى الأنبياء -عليهم السلام-، ويحرص المسلم على دراسة حياة النبي- صلى الله عليه وسلم، وتتبع أحواله، وسلوكه القويم مع الناس؛ ليمتثل ذلك في حياته، ليُقّوم سلوكه، وفيما يأتي عرض لأهم آثار القرآن الكريم الإيجابية على سلوك المسلم:

التزام المسلم بمنهج القرآن الكريم، وسنّة النبي- صلى الله عليه وسلم- في حياته يؤدي به إلى طريق الخيرات، وحلول البركات.

قبول النصيحة من الغير، وإبداؤها له، سواءٌ كان من عامة الناس أو من خاصتهم، فتكون النصيحة لله -تعالى-، ولكتابه الكريم، ولرسوله الأمين -عليه السلام-، ولقادة المسلمين، وعوام الناس.

استقامة المسلم في حياته ظاهراً، وباطناً، والحرص على صلاح سلوكه في السر والعلن، والجمع بين العلم والعمل.

إرشاد المسلم إلى أهمية الكسب الحلال، وكفّ الأذى عن الناس، والابتعاد عن الذنوب والمعاصي، والمداومة على تجديد التوبة، والإحسان عند أداء الحقوق لأصحابها.

الصبر عند حدوث الشدائد، والمحن، والتسليم لقضاء الله -تعالى-، والرضا بما كتبه -سبحانه- من أقدار، والتوكّل عليه في تجاوز المصائب التي تصيب المسلم في حياته الدنيا.

أثر سماع القرآن الكريم

لاستماع القرآن الكريم أثرٌ بالغ في تقريب العبد من ربه -جلّ وعلا-؛ فسماع القرآن الكريم يفرح النفس ويسعدها، ويسمو بها إلى أعلى الدرجات، وهو يُعزّز الإيمان في القلوب، ويهدي إلى طريق الفلاح والنجاح، وفيه كذلك انشراح، وشفاء للصدور، وهداية للنور، وأمر بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر، وانتصار للحقّ، وإزهاقٌ للباطل، وعصمةٌ للمسلم في دينه ودنياه، فالقرآن حياة القلب، وغذاؤه، وفيما يأتي بيان لأهمّ آثار استماع القرآن الكريم على نفس المسلم:

نزول رحمة الله -تعالى- على عباده المستمعين لتلاوة كتابه الكريم، قال -تعالى-: (وَإِذا قُرِئَ القُرآنُ فَاستَمِعوا لَهُ وَأَنصِتوا لَعَلَّكُم تُرحَمونَ)[1].

حصول الهداية للإنسان، وبُعده عن الضلالة، والشقاء؛ فاستماع القرآن الكريم من صفات أهل الهداية، يقول الله -تعالى-: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)[2].

سببٌ لحدوث النور في حياة صاحب القرآن في الدنيا والآخرة، وطريق لخروجه من الظلمات، يقول الله -تعالى-: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[3].

رسوخ الإيمان في قلب المسلم، وانشراح صدره لقبول الحقّ، واتّباعه في حياته.

---

(1) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ .

(2) سورة الزمر ، الآيات ١٧-١٨ .

(3) سورة التحريم ، الآية ٨ .

تحقق الخشية في القلب، وظهور أثرها على الجوارح، قال الله -تعالى-: (إِنَّمَا المؤمِنونَ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلوبُهُم وَإِذا تُلِيَت عَلَيهِم آياتُهُ زادَتهُم إيمانًا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ)[1].

بعض المواقف الدالّة على تأثير القرآن على النفس

أكثر الناس تأثّراً بالقرآن الكريم هو النبي -ﷺ-؛ فقد كانت عيناه الشريفتان تذرفان الدموع عند استماعه لآيات القرآن الكريم، وقد طلب النبي -ﷺ- من الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن؛ فبدأ يقرأ من سورة النساء حتى وصل إلى قول الله -تعالى-: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا)[2]، فقال له -عليه السلام- (كُفَّ -أوْ أمْسِكْ)[3]،وكانت عيناه الشريفتان تنهمر بالدموع؛ خشية لله -تعالى-، ويظهر أثر القرآن الكريم كذلك في جميع جوانب حياة النبي -ﷺ-، وأعماله وتصدّقه، فيروي الصحابي الجليل عبدالله بن عباس أن النبي -ﷺ- كان جواداً، كثير العطاء، وكان عطاءه -ﷺ، وجوده يزداد في رمضان فقال -رضي الله عنه-: (كانَ أجْوَدُ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ)[4].وقد تأثّر الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- بالقرآن الكريم، وكان سبباً في إسلام كثير منهم؛ مثل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي كان يعرف في الجاهلية بالقسوة، والشدة، والتجبر، وقد علم في يومٍ من الأيّام إسلام اخته فدخل عليها وضربها، ثمّ سمع القرآن منها، ولما دخل القرآن إلى مسامعه، ووجد فيه

---

(1) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

(2) سورة النساء ، الآية ٤١ .

(3) رواه البخاري (٦/ ٤٥)و مسلم (١/ ٥٥١) .

(4) رواه البخاري (١/ ٨) .

نفساً صافية، وقلباً نقياً، وفطرة سليمة، أشرق نور الإسلام في قلبه؛ فاتّبع الحقّ وأعلن إسلامه عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

نفع القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب عظيم النفع، رفيع الشأن، محفوظ لا يتغير، أو يتبدل، يهدي الناس إلى طريق الخير والجنان، ويبعدهم عن طريق الشر والنيران، وقد حوى القرآن الكريم سبل السعادة والفلاح في الدين والدنيا، ومن امتثل بما فيه من الأوامر، وابتعد عن فعل ما نهى عنه وحذّر؛ فقد فاز برحمة الله –تعالى– ورضوانه، وقد بيّن الله –تعالى– أنّه أحكم آيات كتابه الكريم، وجعلها متقنةً، لا يأتيها النقص، ولا يمكن لبشر أن ينقضها، قال –سبحانه وتعالى–: (الر كِتابٌ أُحكِمَت آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَدُن حَكيمٍ خَبيرٍ)[1]؛ فالقرآن الكريم كمثل البناء المحكم الذي لا يعتريه أيّ نقص في تركيبه، وقد أحكم الله –تعالى– آيات القرآن الكريم لفظاً ومعنى، وانفرد هو وحده بالإحاطة التامّة لجميع معاني القرآن ومدلولاته، والقرآن هو الكتاب المعجز الذي لم تعرف البشرية كتاباً يماثله، ويناظره في الحسن، والإتقان، والبلاغة.

أثر الإيمان في تزكية النفس

إن الإيمان الصادق هو الضابط والمحرك والموجه للإنسان المسلم نحو تطبيق شرع الله تعالى، فهناك إذن تلازم قوي وكبير جدًّا بين الإيمان والسلوك، فكلما قوي إيمان العبد المسلم، وتمكن من شغاف قلبه، استقام سلوكه للالتزام

[1] سورة هود ، الآية ١ .

بشرع الله تعالى بيقين وراحة بال، دون تردد أو تسويف، والعكس صحيح إذا ضعف الإيمان أو انعدم؛ حصل الانحراف والبعد عن منهج الله تعالى؛ فجاءت المصائب، والنكبات، والأحزان، والأمراض الحسية، والمعنوية.

وقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))[1].

وورد أيضًا في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ))[2].

وبالتأمل والنظر في هذين الحديثين الشريفين المشار إليهما يتبين بكل جلاء ووضوح الارتباط الوثيق بين الإيمان والسلوك؛ وعلى هذا يكون من لازم القول أن نكرر ونؤكد على أهمية الإيمان في حياة المسلم؛ بل هو سفينة النجاة التي بها ينجو المسلم من عقاب ربه، ويسعد في الدنيا والآخرة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

ما بال دينك ترضى أن تدنسه *** وثوبك — الدهرَ – مغسول من الدنسِ؟

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها ***إن السفينة لا تجري على اليبسِ

وقال آخر:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان *** ولا دنيا لمن لم يحي دينا

([1]) رواه البخاري (٨/ ١١) ومسلم (١/ ٦٨).

[2] رواه البخاري (٣/ ١٣٦)ومسلم (١/ ٧٦).

وبعد ذلك أعرج على معنى الإيمان عند أهل السنَّة والجماعة فهو: قول باللسان، وعمل بالجوارح، واعتقاد بالقلب، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

ويعرف الإيمان بشكل مفصل ودقيق بأنه: "التصديقُ الجازم بوجود الله تعالى، واتصافه بكل صفات الكمال، ونعوت الجلال، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئناناً تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأَوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه[١].

وخلاصة القول؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢]، ويعلق الشوكاني رحمه الله على هذه الآية في تفسيره؛ فيقول: أي: من يصدق، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدَّره الله تعالى عليه؛ يهدي قلبه للصبر والرضا بالقضاء، وقيل: يهدي قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من الله تعالى، فيسلم لقضائه ويسترجع، فيقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[٣]، وقيل: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظُلم غَفر، ويظهر أنها هداية عامة؛ أي: يهديه الله تعالى لكل عمل صالح؛ فيه سعادة الدنيا والآخرة[٤].

صفات المؤمنين:

ربما يتساءل شخص هل للمؤمنين صفات معينة؟ فأقول: إن الله سبحانه وتعالى قد ذكر جملة من الصفات، جاءت مبثوثة في عدد من الآيات وسور القرآن الكريم، ومن الآيات التي حددت صفات معينة للمؤمنين ما يلي:

---

[١] انظر: الأثري؛ الوجيز في عقيدة السلف الصالح، ص ٣٥.

[٢] سورة التغابن ، الآية ١١ .

[٣] سورة البقرة ، الآية ١٥٦

[٤] فتح القدير، (٧، ٢٣٥) .

أولًا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

لعلماء التفسير – أثابهم الله – كلام واسع حول هذه الآيات الكريمات، والمهم أنها حددت وحصرت خمس صفات للمؤمنين، وهي:

١– إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم.

٢– إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.

٣– على ربهم يتوكلون.

٤– الذين يقيمون الصلاة.

٥– ومما رزقناهم ينفقون.

ثم ختمت الآيات الكريمات بأن أولئك الموصوفين بهذه الصفات الخمس هم المؤمنين حقًّا، لهم درجات عند ربهم، ولهم قبل ذلك مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم لا تنغيص فيه ولا تكدير.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

[1] سورة الأنفال، الآيات ٢ – ٤.

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

وقد حددت الآيات الكريمات جملة من صفات المؤمنين وهي:

١- الخشوع في الصلاة.

٢- إعراضهم عن اللغو؛ وهو: كل قول وعمل وفكر لم يكن فيه لله تعالى نصيب.

٣- أداؤهم لفريضة الزكاة الواجبة عليهم.

٤- حفظ فروجهم من كشفها، ومن وطء غير الزوج، أو الجارية المملوكة بوجه شرعي.

٥- مراعاة الأمانات والعهود بمعنى محافظتهم على ما ائتمنوا عليه من قول أو عمل.

٦- المحافظة على الصلوات الخمس بأدائها في أوقاتها المحددة لها؛ فلا يقدمونها ولا يؤخرونها، مع المحافظة على شروطها من طهارة الخبث، وطهارة الحدث، وإتمام ركوعها، وسجودها، واستكمال أكثر سننها، وآدابها.

ويقول الجزائري رحمه الله في تفسيره: فمن اتصف بهذه الصفات الستِّ كَمُل إيمانه، وصدق عليه اسم المؤمن، وكان من المفلحين الوارثين للفردوس الأعلى، جعلنا الله تعالى وجميع المسلمين منهم[2].

وهناك تكامل واضح بين الآيات في سورتي الأنفال والمؤمنون من حيث تركيز جانب كبير من الآيات في سورة الأنفال على أعمال القلوب، وقدم الله تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، كما يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره لآيات سورة الأنفال المشار إليها[3].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ١ – ١١.

(2) أيسر التفاسير، (٣- ٢).

(3) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٥).

ثم تناولت بقية الآيات في سورتي الأنفال والمؤمنون التركيز الشديد على بعض الأعمال الظاهرة، والصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها المسلم، ويحافظ عليها أشد المحافظة، وهي:

- ♦ إقامة الصلاة والمحافظة عليها.
- ♦ أداء الزكاة والإنفاق في وجوه الخير والإحسان.
- ♦ حفظ العلاقات الزوجية.
- ♦ أداء الأمانات الواجبة عليهم.
- ♦ الإعراض عن اللغو والإقبال على الخير.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

والحمد لله رب العالمين.

المنافع العائدة على الإنسان للإيمان بالله

إنّ للإيمان بالله – إذا استقرّ في قلب الإنسان على هذا الوجه الواضح الكامل – فوائد ومنافع عظيمة، تكون للمؤمن، ولا تكون لغير المؤمن، فمن هذه الفوائد:

سعة آفاق النّظر

إنّ أولى خصائص الإيمان بالله تعالى أنّه يوسّع وجهة نظر الإنسان، على قدر سعة مملكة الله غير المحدودة.

فإنّ الإنسان مادام لا ينظر إلى الدّنيا إلاّ باعتبار علاقتها بنفسه يكون نظره محدودا ضيّقا، حسب علمه ومطالب نفسه، فهو لا يبحث إلاّ عن قاض لحاجته في هذه الدّوائر الضّيقة، ولا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبّته ولا

بغضاؤه، ولا يكون تعظيمه ولا تحقيره، إلاّ في نطاق هذه النّظرة الضّيّقة، كأنّ نفسه هي المنظار الّذي ينظر به إلى ما حوله من هذا العالم.

ولكنّه إذا آمن بالله تعالى يخرج نظره عن هذه الدّائرة الضّيّقة، ويسع الكون كلّه، فهو عندئذ إنّما ينظر إليه على اعتبار علاقته بالله، وهناك تقوم علاقة جديدة بينه وبين موجودات هذا العالم، فلا يرى فيه شيئا يستطيع أن يقضي حاجاته، أو يستطيع أن يجلب له نفعا، أو يدفع عنه ضررا، أو يستحقّ منه التّعظيم أو الخوف. وعندئذ لا تكون صداقته ولا محبته ولا خوفه ورجاؤه، إلاّ بلله وحده مالك الأرض والسماوات وما فيهنّ.

وإذن، فإنّ المؤمن بالله لا يكون ضيّق النّظر محدود الفكر أبدا.

الأنفة وعزّة النّفس

ومن هذه الفوائد أنّ الإيمان بالله يرفع الإنسان من حضيض الذّلّ والهوان إلى أرفع منازل الأنفة وعزّة النّفس، فإنّ من لا يعرف ربّه يطأطئ رأسه لكلّ شيء في الدّنيا، إذا رأى فيه شيئا من العظمة، أو القدرة على نفعه أو الإضرار به، فهو لذلك يخافه، ويمدّ يده إليه بالاستعانة والاستنجاد، ولكنّه إذا عرف أنّ الله ربّه علم يقينا أنّ الّذين كان يمدّ إليهم يده، لا يقلّون عنه حاجة إلى ربّهم لقضاء حاجاتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1]، إنّ الذين كان يرجو منهم العون والمساعدة عاجزون عن نصرة أنفسهم، فضلا عن أن ينصروه، ويجلبوا إليه النفع، أو يدفعوا عليه الضّرّ، وأن ليست القوّة والغلبة والعلوّ والسّيادة في الواقع إلاّ لله وحده: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[2]،

([1]) سورة الأعراف، الآية ١٩٤.

([2]) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[1]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾[2].

فالإنسان عند ما يحصل له هذا العلم، يستغني عن كلّ قوّة من قوى العالم، وعندئذ لا يطأطئ رأسه أمام أحد غير الله، ولا يمدّ يده بالاستعانة والاستنجاد إلاّ لله.

ثالثة هذه الفوائد: إبطال الآمال الكاذبة والعقائد الفاسدة

إنّ من أعظم الفوائد التي ترجع على الإنسان من هذا الإيمان الصّحيح الكامل، أنّه يبطل ما يكون فيه من الأماني الكاذبة والآمال الباطلة. فإن هذه المعرفة بالله هي التي تعرّف الإنسان أنّه لا سبيل إلى النّجاة والفلاح والسّعادة إلاّ بهذا الاعتقاد الصّحيح، والعمل الصّحيح، والّذين هم محرمون من هذه المعرفة أنواع:

ـ فمنهم من يعتقدون أنّ هناك عدّة آلهة يشاركون الله في حكمه، أو يمكن لهم أن يجعلوهم وسطاء وشفعاء لهم عند الله، والله جلّ جلاله يقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[3].

ـ ومنهم من يقول: إنّ لله ابنا قد أمّن لهم النجاة بتقديمه نفسه كفارة لذنوبهم، والله يقول: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾[4]، ويقول: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٠٧.
(2) سورة يونس، الآية ١٠٧.
(3) سورة [البقرة، الآية ٢٥٥.
(4) سورة الإسراء، الآية ١١١.
(5) سورة البقرة، الآية ١١٦.

ـ ومنهم من يقول إنّ لهم من الدّالة على الله ما ليس لغيرهم، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1]. فهذه آمال وأنّها باطلة تورّط بني الإنسان في أوحال الإثم، وتمهّد السّبيل إلى المعاصي والذنوب؛ لأنّهم باتّكالهم عليها يغفلون عن تزكية نفوسهم، وإصلاح أعمالهم. أمّا عقيدة الإيمان بالله على الوجه الصّحيح الّتي يدعو إليها مُحَمَّد بن عبد الله، فلا مجال معها لمثل هذه المعتقدات المنحرفة والآمال الكاذبة.

يبيّن القرآن والسّنّة أنّه ليست لأيّة أمّة من أمم الأرض دالّة على الله، وإنّ كلّ ما في السّماوات والأرض عباده ومخلوقاته، وهو ربّهم جميعا، وأن ليست الكرامة والفضيلة للإنسان إلاّ على أساس تقواه.

الفائدة الرابعة للإيمان بالله: طمأنينة القلب

فإنّ الإيمان بالله يربّي الإنسان على كيفيّة نفسيّة قائمة على الثقة بالله وحده، والرّجاء لرحمته، ولا تدعه يتغلّب عليه اليأس والقنوط؛ إذ الإيمان كنز لا ينفد من الآمال الصّادقة، لا يزال يزوّد الإنسان برصيد من قوّة القلب، وطمأنينة الرّوح، ويلقي في روعه أنّه لو طرد من كلّ باب من أبواب الدنيا، وتقطعت به الأسباب كلّها، فإنّ الله غير خاذله أبدا؛ لأنّ الله الّذي آمن به من يقول عن نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، ويقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[3]. وإنّ ذكر الله هو البلسم الذي يجبر جروح القلب، ويملؤها ثقة وطمأنينة ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[4].

---

(1) سورة المائدة، الآية ١٨.
(2) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.
(3) سورة الزمر، الآية ٥٣.
(4) سورة الرعد، الآية ٢٨.

الفائدة الخامسة للإيمان بالله: الشجاعة والجرأة

فإنّ الإيمان الصّحيح الكامل بالله تعالى، ينشئ في نفس المؤمن صفة خلقيّة، هي صفة الجرأة والإقدام والبسالة والشجاعة.

إنّ هناك أمرين يجلبان الجبن والهلع إلى قلب الإنسان:

أوّلا: حبّه لنفسه وأولاده وما يمتلكه من أموال.

ثانيا: خوفه من زوال ما به من استقامة حال، وهناء عيش؛ لاعتقاده الباطل بالأشياء التي يستخدمها في نيل أغراضه، هي في ذاتها المجرّدة قادرة على نفعه وضرّه.

فالإيمان بالله يطهّر قلب الإنسان المؤمن من سطوة هذا الحبّ ومن هذا الخوف جميعا، ويلقي في روعه أنّ الله أحقّ من غيره أن يحبّه المؤمن، فالله يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾[1]، ويقول في آية أخرى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[2].

وبناء على هذه العقيد والإيمان بالله يعتقد اعتقادا جازما بأنّه لا يصيبه شيء في هذه الدنيا إلاّ بعلم الله وإذنه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

إنّ قوّة الصّبر والتوكّل على الله، هي القوّة التي استطاع بها أولو العزم من الرسل أن يواجهوا مصائب الدنيا، ويصارعوا دولها العاتية، وأممها القويّة. ومن المحال أن ينال الإنسان هذه القوّة والشّجاعة، وهذه الصّلابة في عزيمته

([1]) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

([2]) سورة الكهف، الآية ٤٦.

([3]) سورة التوبة، الآية ٥١.

بوسيلة أخرى غير الإيمان بالله؛ لأنّ الّذي لا يؤمن بالله، إنّما يتوكّل على الأسباب الماديّة والوسائل الظّاهرة، التي قد تتخلّف مسبّباتها، ولا تتحقّق دائما باطراد.

أمّا الّذي قد التجأ إلى جانب الله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. ولا قبل لكلّ ما في الأرض من المصائب والآلام والشدائد أن تزحزحه عن الصّبر والثبات والعزيمة؛ لأنّ كلّ ما يسرّ أو يحزن إن هو في نظره إلاّ من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾[1] فما له إذن لا يضحّي بنفسه وماله في سبيل نصرة هذا الإيمان والعقيدة التي امتزجت بنفسه ودمه؟ وفي سبيل الحياة التي سينالها عند ربّه؟ تلك الحياة المليئة بأسباب الهناء والسّعادة.

وإذا كان الأمر هكذا، فما له يخشى أحدا غير الله، والله وحده الذي ينبغي أن يخشاه ويخافه: ﴿وَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[2] .

أمّا الذين لا يؤمنون بالله فهم الذين يداخلهم الفزع والخوف من الموت، فيتولّون عن بذل مهجهم وأرواحهم في سبيل الله؛ لأنّهم يخشون النّاس كخشية الله أو أشدّ خشية.

فانظر أخي إلى هذا الإيمان كيف أنشأ المؤمن على هذه الكمالات، وبناه بناء جديدا على هذه الأخلاق المستقيمات.

وبالجملة، فإنّ الإيمان بالله يزكّي نفس الإنسان، ويطهّرها من الحرص والطمع والجشع، وما إليها من العواطف والأخلاق الرّذيلة. فهو ينشئ أفراد الجماعة الإنسانيّة على أساس متين من خشية الله في السّرّ والعلانية، ويطبعهم

---

(1) سورة النساء ، الآية ٧٨ .

(2) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

بطابع التزام القانون، والتقيّد بنظامه، والوقوف عند حدوده، ممّا ينشأ عنه صلاح حياتهم الاجتماعيّة، ويقيمهم على أساس من الحقّ والعدل والاستقامة[1]

وقفة تربوية فقه تزكية النفس

تزكية النفس، الأمر الذي لا بدّ منه، فهي الطهارة والنقاء من العيوب التي تُدنِّسها، وهذا ما أراده الله الحكيم من المسلم، حينما حضَّ على تزكية النفس في غير ما آية، كقوله سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[2] فقد أقسم القرآن الكريم بأحد عشر قَسَماً على هذه النفس البشرية التي هي أعجب مخلوقات الله تعالى، وأشار إلى أن تزكيتها أو تدنيسها بيد العبد سعياً وكسباً، فمدح المزكين لها، وذم المدسِّين لها، فعلى العبد أن يسعى جاهداً لتزكية نفسه بما يرقِّيها للمعالي التي تنجيه في الدنيا والآخرة، إذ لولا أن العبد يقدر على ذلك بتوفيق الله تعالى لما أسند الفلاح بتزكيتها إليه.

حكاية التزكية

حقيقةُ البَدء بتربية النفس الإنسانية صعبة، فهي أمام طريقين: إما الفلاح أو الذبول في طريق الفساد، الخطوة التي تخطوها -أيها الإنسان- هي أكبر مسار نحو سلاح تغزوه قوة أو تملأه ضعفًا لتسقط عن حربة الكفاح، فإن الحياة مريرةٌ وتتطلب منك الجهد المضاعف لِتخطي الأشواك التي قد تعتري ما يروي روحك لينعشها ويعينها على الاستمرار في مواجهة الشرور التي قد تواجهها، ولكنك تبقى عاجزًا أمام هواجس النفس لأنك سلّمتها لهواها

---

(1) مجلة الهداية، ج١، عدد١، ص١٣.
(2) سورة الشمس ، الآية ٦-١٠ .

ومغريات الدنيا وملذاتها حيث بات لا مجال لرفض ما تطلبه نفسك منك، وعاقبة هذا كما قال تعالى {قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[1].

إن النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادته –كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين[2]، والنفس هي الإنسان حقيقةً، ففي صلاحها صلاحه، وفي انحرافها هلاكه، فإن النفس هي مصدر كل ما يخرج من الإنسان من فعل أو شعور، لذلك فإن عامل التربية لهذه النفس مهم جدًّا في ضبط أفعالها وأقوالها، وإبعادها عمّا يوقعها في المذموم وقبيح الأخلاق.

ومن منطلق تزكية النفس، فإن التربية الإيمانية هي الحصن المنيع والقاعدة الحامية في رفع النفس إلى المعالي وجعلها بذرة صلاح وخير أينما حلّت ورحلت، حيث إن المؤمن التقيّ في القرآن هو المنغمس في العمل الصالح الذي هو أساس تزكية النفس وطهارتها، قال تعالى {فَمَن كانَ يَرجو لِقاءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلًا صالِحًا}[3] .

صفات التربية الإيمانية

لا بد أن النفس تتأرجح يمينًا ويسارًا، فهي بحاجة إلى التنقية اليومية والمجاهدة والصبر بعدم مجاراة الهوى إلى ما يتعارض مع القيم والمبادئ التي أوردها كتاب الله واستفاضت فيها سنة نبيه ﷺ، فما هي صفات التربية الإيمانية للنفس.

إن أولى تلك الصفات هي تحمُّل المسؤولية؛ حيث إن الاعتماد على النفس في تحمّل تبعات أعمالها يجعلها أبعد

---

(1) سورة الشمس ، الآية ١٠ .

(2) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٣٥) .

(3) سورة الكهف: ، الآية ١١٠ .

عن الانسياق واتباع من هبّ ودبّ، فالاتباع الأعمى –بنظرةٍ إجمالية– لا يحقّق سوى الاتكال والتهاون مع النفس فيما يفسد صلاح دنياها وفلاحها في الآخرة.

بالرغم من ذلك فإن القرآن يحث المؤمنين على التوسّط وعدم الإسراف في ادعاء تحمّل المسؤولية، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1]، فالإنسان مطالب بتوظيف طاقاته الفكرية والاجتماعية والمالية في صلاح الأمة وخدمة الإسلام إلا أن الفشل –بعد أداء ذلك– يجب دراسته من جوانب كثيرة وليس من جانب لوم النفس وتحميلها المسؤولية وحدها.

أما ثاني تلك المبادئ فهو التحلي بالأخلاق الحميدة، فالنفس حين تلتزم بالقيم والأخلاق الفاضلة فإن ذلك يسهم في تزكية النفس وتطهيرها عما ينافي الفطرة السليمة، والمراد من ذلك تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرِك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد.

في ختام هذه المبادئ لا بد أن تكون النفس واثقة بعزتها ولا يكون ذلك إلا بالافتخار للانتماء للإسلام، قال تعالى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ }[2] ، وقد نُقِل عن عمر الفاروق –رضي الله عنه– قوله: "كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله"[3] وينبغي التنبه إلى أن عزة النفس لا

---

(1) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

(2) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(3) رواه الحاكم (١/ ١٣٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٣)وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١١٨) .

تعني الإعجاب بالحسب والنسب والافتخار بسفاسف الأمور وأمراض القلوب، وإنما فقط بالانتماء للدين الذي هو الرفعة والعزة والكرامة للإنسان أينما وجد.

شوائب ومنغّصات

تتعرض النفس للعديد من الأمراض –يطلق عليها أمراض القلوب– مما ينبغي الحذر منه والبعد عنه مثل الرياء الذي حذر القرآن منه فقال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) }[١] ، وكالحسد الذي قال تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا}[٢] والكبر الذي قال تعالى عنه {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [٣] وغير ذلك من الأمراض المختلفة التي حذر منها القرآن والتي تمزق إيمان القلب البشري ورقته حين تتغلغل فيه وتؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن الحق وسوء الأخلاق، وضعف النفس أمام الشهوات والمحرمات.

يجب على كلٍّ منا السعي إلى فهم ذاته وما يتخللها من هشاشة وضعف مهما صغرت؛ حيث إنها مع صغرها تثقل كاهل الإنسان وتوصله إلى الحضيض بسبب تراكمات ليست في الحسبان، وبذلك يجب السعي إلى التخلص من العثرات المحطمة وتجنبها قدر الإمكان، وبناء أرضية توفر للقلب الحماية من مسببات الأمراض النفسية أو القلبية.

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٤ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .

ما أجهل الإنسان يضني بعضه بعضًا ويشكو كلّ ما يضنيه ، ويظنّ أن عدوّه في غيره وعدوه يمسي ويضحي فيه

إن الالتزام بالأخلاق أمر لا بد منه للعناية بالنفس وعدم إهمالها، وهذا هو الطريق الذي اهتم به القرآن وحضّ المؤمن بالله عليه، فهو سبيل الاتزان والالتزام

اثر الصلاة في تزكية النفس

تترابط العبادات الإسلامية في وحدة متكاملة تلتقي فيها الغايات مع الأساليب والثمرات حتى ينال العبد رضاء الله ويحظى بمحبته ويبلغ المنزلة العظمى في تزكية النفس وصلاح القلب، ولنستعرض أبرز الآثار التي ينالها العبد من صلاته في مجال التزكية.

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات التي تؤدي دورا عظيما في تقوية إيمان المسلم وتربيته وتحقيق عبوديته لربه عز وجل، ولعل من أبرز آثارها في مجال تزكية النفس ما يلي:

١-الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

فالمسلم عندما يقف بين يدي ربه لأداء الصلاة إنما يستجيب لأمر الله ويتقرب إليه بطاعته، ويعلن الضوع والتذلل له سبحانه ويتشرف بالعبودية له.

وقد أثنى الله تعالى عباده المؤمنين الذي استجابوا لأمره، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[1].

ولا تتحقق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه إلا إذا اقترنت بصدق التوجه إليه والإخلاص له سبحانه، قال

---

[1] سورة الشورى، الآية ٣٨ .

تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[١].

فالعبد في صلاته يقف بين يدي ربه موقف العبودية والتذلل والانكسار، ولا يلتفت يمينا أو يسارا، ويتوجه بكليته إلى ربه، ثم يكبر بالتعظيم والإجلال مستحضرا ألا يكون في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، ثم يثني على الله سبحانه بما هو أهله، فإذا شرع في القراءة قدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه أحرص ما يكون على الوسوسة للعبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبودية[٢] .

ولكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثير في النفس، فقراءة سورة الفاتحة مع التدبر تشعر العبد بعبوديته لربه، فهو عندما يتلو: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٣] يثبت كل كمال لله سبحانه ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة وما أنعم عليه من النعم، ويثني عليه بصفاته وأسمائه الحسنى.

وكذلك عندما يتلو: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[٤] يقر بالتوحيد والاستعانة بالله وحده، فاللخ هو المعبود وهو المستعان، وكل استعانة لا تكون بالله فهي خذلان وذل.

وعندما يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[٥] فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية والاستزادة منها، والبعد عن سبل المغضوب عليهم والضالين[٦].

---

(١) سورة [الأنعام . الآيات ١٦٢-١٦٣ .

(٢) **الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن، لابن القيم ص(٣١).**

(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٢ .

(٤) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

(٥) سورة الفاتحة ، الآية ٦ .

(٦) **ينظر: الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن لابن القيم(٣٥-٤٠).**

وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية لله سبحانه، وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس، ثم إن تحديد الصلوات بأوقات معينة لا يجوز تجاوزها يدرب المسلم عمليا على الطاعة والامتثال لأمر الله، وضبط النفس بميزان الشرع وتعويدها على التقيد بأحكام الإسلام دون تهاون، فالصلاة لها أوقات مفروضة، كما قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}[1].

٢-مناجاة العبد لربه:

الصلاة صلة بين العبد وربه، يستمد منها القلب القوة وحس فيها النفس بالثبات والطمأنينة، فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن.

وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه"[2].

ولعل هذا سر من أسرار تكرار الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، ينتزع فيها الإنسان نفسه من دنياه وما فيها من أحقاد وصراعات، ويقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها، ويغذي الجانب الروحي من كيانه، ذلك الجانب الذي لا يغذيه إلا معرفة الله سبحانه وتعالى وحسن الصلة به[3]، ومناجاته بخشوع والتقرب إليه بالعمل الصالح.

---

(1) سورة النساء، الآية ١٠٣.

(2) رواه البخاري(١٠٧/١).

(3) العبادة في الإسلام للقرضاوي (٢١٦).

ولنتأمل مشهدا من مشاهد هذه المناجاة فيما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبيد ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[1].

ولذلك قال الإمام ابن القيم:" ينبغي للمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسير ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه"[2].

ولا شك أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، إذا هيأ العبد نفسه لها، ولم ينشغل في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا، وإنما أقبل عليها إقبال المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه، المستمر لرحمته وفضله، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

٣-طمأنينة النفس وراحتها

إذا أقبل العبد على صلاته بهمة ورغبة واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة، ولذلك قال الله تعالى موجها عباده إلى أهمية

---

[1] رواه مسلم (١/ ٢٩٦).

[2] الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة لابن القيم (٣١).

الصلاة في تحقيق الراحة النفسية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[1].

فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها، يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته ويحس بتأييد الله له ورحمته به.

فعن حذيفة ﷺ قال:"كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى"[2].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" وجعلت قرة عيني في الصلاة"[3].

وكان الرسول ﷺ يقول:" قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"[4].

أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله.

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين.

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة، تزيد من صلة العبد بربه، وتقر بها يعنه، وتأمن بها نفسه، حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم والمفتاح لحل همومه ومشاكله.

ولا شك أن المتأمل للحكم العظيمة من صلاة الاستسقاء والخسوف وصلاة الحاجة وصلاة الاستخارة، يدرك الحكمة الربانية في توجيه انفعال الخوف والفزع عند المسلم، وتحقيق الراحة والسكن النفسي للمؤمن الذي كلما واجهه كرب أو أحاط به خوف فزع إلى الصلاة والتجأ إلها، ولهذا كان السلف الصالح يكثرون من صلوات النوافل وبخاصة في الليل إذا نام الغافلون ولها اللاهون.

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٥٣ .

[2] رواه أبو داود (٢/ ٣٥) وأحمد (٣٨/ ٣٣٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٥٨) .

[3] رواه النسائي (٧/٦٢)وأحمد (١٩/ ٣٠٥)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، وصححه و أقره الذهبي وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٤٨) صحيح الجامع (١/ ٥٩٤) .

[4] رواه أبو داود (٤/ ٢٩٧) وأحمد (٣٨/ ٢٢٥).

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى بعض أقول علماء النفس الغربيين في الاعتراف بأمية الصلاة لبث الطمأنينة في النفس وعلاجها من أمراضها.

يقول "ألكسيس كارليل:" إن الصلاة تحدث نشاطا روحيا معينا يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض المرضى"[1].

ويقول:" توماس هايسلوب":" إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس وبث الهدوء في الأعصاب"[2].

وكلامهم هذا-مع أهميته- عن صلاة ليست كصلاتنا نحن المسلمين، فماذا كانوا يقولون لو عرفوا ما هي الصلاة التي جاء بها ديننا الإسلامي، وما فيها من آثار عظيمة وفوائد كبيرة.

٤-الصلاة حاجز عن المعاصي

عندما يؤدي العبد الصلاة وترتاح بها نفسه فإنها تمده بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في قلبه مراقبة الله عز وجل ورعاية حدوده والابتعاد عن الانحراف، والتغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، فهي سياج منيع يقيه من الوقوع في المعاصي، ولذلك قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[3].

وبهذا الأثر العظيم من آثار الصلاة تتبوأ تلك العبادة المنزلة السامية في علاج النفس من أمراضها، وتطهيرها من عيوبها وتزكيتها بالعمل الصالح، وغرس الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة مع الناس والمسارعة إلى فعل الخير.

---

[1] الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارليل ص(١٧٠).

[2] القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي ص(٢٥٦).

[3] سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

ولكن واقع كثير من المسلمين مع الصلاة اليوم مختلف تماما لأنها تؤدى بالأجساد دون الأرواح، حتى أصبح البعض يشكك في تأثير الصلاة وثمارها، لأنه قلما يرى صورة تطبيقية مثمرة لها.

٥-الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات:

لا يخلو مؤمن من زلة أو هفوة يعصي بها ربه، وهذه المعاصي يتراكم أثرها على القلب حتى يظلم، ولابد لها من استغفار وتوبة دائمين.

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أنه جعل الأعمال الصالحة تكفيرا للسيئات ورفعا للدرجات، وبخاصة الصلاة وما يصاحبها من وضوء ومشي إلى المسجد وذكر وتسبيح.

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة منها:

-عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقة فقال:" يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق، وقرأ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[(١)]"[(٢)].

-وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة"[(٣)].

ولا شك أن هذا التكفير خاص بالصغائر التي لا يصر عليها العبد، أما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح.

---

(١) سورة هود ، الآية ١١٤ .

(٢) رواه أحمد (٣٩/ ١١١)و انظر صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٦٨) .

(٣) رواه مسلم (١/ ٤٦٢) .

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" الصلوات الخمس والجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر"[1].

كما أن للصلاة التي يكفر الله بها السيئات شروطا لا بد من تحققها وهي إكمالها وأداؤها بأركانها وخشوعها، وبذلك تثمر محو الذنوب وتكفير الخطايا.

وهذا ما أكده الحديث النبوي عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوئها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله"[2].

وعندما يكرر المسلم الصلاة خمس مرات يوميا ويزيد عليها ما شاء الله أن يزيد من النوافل، يكن الله عليه بالمغفرة مرة بعد مرة، حتى تغسل أدران ذنوبه فلا يبقى منها شيء.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[3].

ولا شك أن المسلم الذي تطهر من الذهوب وحظي بمضاعفة الأجر وزيادة الدرجات، بما حافظ عليه من الصلوات، فإنه يرتقي في مقامات القرب من الله سبحانه، وبذلك تزكو نفسه ويظفر بالفلاح والسعادة.

---

[1] رواه مسلم (١/ ٢٠٩).

[2] رواه مسلم (١/ ٢٠٦).

[3] رواه البخاري (١/ ١١٢)ومسلم (١/ ٤٦٢).

٦-الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس

إذا أراد العبد أن يعود نفسه على الطاعات ويجاهدها حتى يروضها ويكسر من حدتها فعليه أن يكثر من الصلوات ويحافظ على النوافل ويحرص على التبكير إلى المساجد وإسباغ الوضوء على المكاره والبرد الشديد الذي يشق على النفس، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالصلاة التي تكبح جماح النفس، طمعا في القرب من الله سبحانه وتكفير الذنوب ورفع الدرجات.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال:" ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط"[١].

٧-الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد:

الصلاة في خصوصيتها إذا أديت كاملة فإنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله وحده وعزة المؤمن القريب من مولاه، فلا يتكبر على مسلم ولا يحقد على غيره لأنه غني بالله سبحانه.

كما أن الصلاة في المسجد تحقق أهدافا وحكما عظيمة، فهي تعارف وتآلف بين ابناء الحي الواحد والبلد الواحد، يصلي المسلم بجانب أخيه في صفوف متراصة، يقف فيها الغني بجانب الفقير، والشاب بجانب الشيخ الكبير، وهذا بلا شك تدريب عملي على تطهير النفس من أنانيتها ونزع آفة الكبر والعجب منها، فالكل عبد ذليل لإله واحد مستحق وحده للعبادة، يتضرع إلى الخالق سبحانه ويناجيه، ويغسل أدران ذنوبه بالوقوف بين يديه.

---

[١] رواه مسلم (١/ ٢١٩).

وهذا اللقاء المتكرر يزيد بلا شك الألفة بين المسلمين ويقوي روابط الأخوة، ويوثق العلاقات الاجتماعية، ويحقق التعاون على البر والتقوى، ويعين على تفقد الأخ لأخيه، ويزيل الفوارق المادية بين المسلمين، فالكل يستقبلون قبلة واحدة يتجهون إليها في صلاتهم، وإلههم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد.

وإذا جاء يوم الجمعة كان اللقاء الأسبوعي الذي يتميز بخصائص كثيرة، ففيه خطبة الجمعة التي تعالج مشكلات المسلم وتربطه بربه وتحثه على الاستقامة وتهذيب سلوكه وتوصيه بتقوى ربه ولعظيم فضل خطبة الجمعة وآثارها في تكوين شخصية المسلم فقد أمر الهادي البشر ﷺ بالإصغاء إليها وعدم التكلم أثناءها.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت"[1].

ثم يأتي اللقاء الأكبر في عيد الفطر وعيد الأضحى ليظهر المسلمون مشاركتهم بأفراح العيد وابتهاجهم بما أتم الله عليهم من التوفيق للطاعة في الصيام والحج.

وهكذا تتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي، وتؤدي الصلاة دورها في تكية النفس وطهارتها، ويتحقق قول الرسول ﷺ الذي سبقت الإشارة إليه حيث قال:" والصلاة نور"[2].

فعي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصالح.

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه.

وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة وبما تمدها من أمن وسكينة.

وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، يجد بها وضاءة الوجه وبهاءه بخلاف تارك الصلاة.

---

[1] رواه البخاري (٢/١٣).

[2] رواه مسلم (١/٢٠٣).

وهي نور له يوم القيامة: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[1].

أثر الإخلاص في تزكية النفس

فإن تربية النفس وتزكيتها أمر مهم غفل عنه أمة من الناس، ومع انتشار الخير وكثرة من يسلك طريق الاستقامة ويعمل في حقل الدعوة إلا أن البعض يروم الصواب ولا يجده، وينشد الجادة ويتيه عنها، تقطعت به السبل وانبرى له الشيطان فاتخذه مطية له ومركبا سهلا يسير به في لجج الرياء والسمعة والعجب والمباهاة، ظلمات بعضها فوق بعض.

ولقتل حظوظ النفس هذه، لا بد من التمسك بالإخلاص الذي هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة الرسل – عليهم السلام –، قال – تعالى –: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }[2] .

وقال الله – عز وجل –: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }[3]

قال الفضيل بن عياض: "هو أخلصه وأصوبه"[4].

---

(1) سورة الحديد ، الآية ١٢ .

(2) سورة البينة ، الآية ٦ .

(3) سورة الملك، الآية ٢.

(4) انظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٧٢) وذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٣٣) .

قال – ﷺ – في الحديث العظيم الذي هو أصل من أصول الإسلام: " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى[1] . . .

وقال – ﷺ –: " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه[2] "

ويعدُّ الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدرا وشانا، بل إن أعمال القلوب عموما أكبر وأهم من أعمال الجوارح، ولا يغتر المسلم فإن أداء الطاعة بدون إخلاص وصدق مع الله لا قيمة له ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال العظام كالإنفاق في وجوه الخير وقتال الكفار وغيرها ".

وحتى هذا العلم الذي ينفع الله به البلاد والعباد إذا لم يكن صاحبه صادق الإخلاص لله – عز وجل – في طلبه، ثم في بذله فإنه متوعد يوم القيامة على لسان رسول الله – ﷺ –: " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله – عز وجل –، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة (يعني ريحها) يوم القيامة " [3].

ومن صور تلك الحظوظ المهلكة:

أولا: محبة المدح والثناء: فتراه يطل برأسه وترتفع هامته وتشرف نفسه إلى صوت مادح، أو ثناء في مجلس.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله : "لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر عن عمله، لعله يكون كثير الطواف، فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائما فيقول: ما أثقل السحور،

---

(1) رواه البخاري (١/ ٦) و مسلم (٣/ ١٥١٥) .

(2) رواه الترمذي (٤/ ٥٨٨) و النسائي (١٠/ ٣٨٦) وأحمد (٢٥/ ٦٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٣١) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٨٣) .

(3) رواه أبو داود (٣/ ٣٢٣)وابن ماجه (١/ ٩٢) وأحمد (١٤/ ١٦٩) والحاكم (١/ ١٦٠)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٦٠) .

وما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدثا ولا متكلما ولا قارئا، إن كنت بليغا، قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغا قالوا: ليس يحسن يحدث، وليس صوته بحسن، أحزنك وشق عليك، فتكون مرائيا، إذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمك ومن مدحك من دون الله فتكلم"[1].

ثانيا: كثرة الحديث عن أعماله وما لاقاه من كد وتعب ونصب، وهذه قد يكون ظاهرها محبة هذا الدين وبث الحماس لكنها في قرارة النفس إبراز أعمال الشخص وما يلاقيه في سبيل الدعوة، رغبة في رفع مقامه لدى الناس وتصيد قلوبهم وكسب ثنائهم.

قال القرطبي- رحمه الله -: "حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس"[2].

ثالثا: نسبة عمل الجماعة إليه، فتراه يحب أن يظهر أمام الرؤساء والمديرين على أنه الرجل الذي قام بالعمل، وهو صاحب الفكر، وهو الذي أشار بالأمر! وقد يستمر به مسلسل الادعاء حتى يقع في خطر أعظم وهو نسبة أعمال إليه لم يقم بها، وينطبق عليه قول الله تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) }[3] .

رابعا: ذم النفس، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به وتنطلق الألسنة تثني على تواضعه وما أزهده وما أنبله!! وهو والله ما أهلكه.

---

(1) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩١)وحياة السلف بين القول والعمل (ص: ٤٠٢)

(2) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٢) .

(3) سورة آل عمران ، الآية ١٨٨ .

خامسا: التحدث بكثرة الداخلين عليه والخارجين منه، وأنهم لم يتركوا له وقتا للقراءة وهذه من تلبيس إبليس على العاملين، فتراه يتحين الفرص للجواب عن سؤال عن القراءة أو الإنتاج العلمي؛ ليخبرك أنه مشغول مع الناس وكثرة سوادهم لديه وأنه مقصد لهم، ولهذا ضاعت عليه الساعات الطوال!

قال سهل بن عبد الله التُستَريُّ رضي الله عنه: "نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله – تعالى –، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا"(١).

سادسا: العجب بالنفس، وأعمالها وتفانيها في خدمة الناس وانه قدم وقدم، وفكر وقدر، ومساء البارحة لم تكتحل عينه بالنوم هما وغما لحال المسلمين، فرحم الله حصين بن عبد الرحمن عندما قال: "أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت"(٢).

قال مسروق: "كفى بالمرء علما أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعمله"(٣).

وقال عبد الله بن المبارك في تعريف العجب: " أنْ تَرَى أَنَّ عِنْدَكَ شَيْئًا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكَ (٤)".

وقال ابن القيم في الفوائد: "لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد منة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل له(٥)".

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٨٤)وانظر الأذكار للنووي ت الأرنؤوط (ص: ٧) وبستان العارفين للنووي (ص: ٢٨) .

(٢) رواه مسلم (١/ ١٩٩) .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٥)وأبو نعيم (٢/ ٩٥)والدارمي (١/ ٣٤٦) .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥١٤)وانظر من أعلام أهل السنة والجماعة عبد الله بن المبارك (ص: ٤٢)و الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام (ص: ٣٤٨) سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٣٨٣) .

(٥) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٢) .

وتأمل في حال من أعجبته نفسه في حلة لبسها، قال – ﷺ –: " بينما رجل يتبختر في حلة قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة [1]" [متفق عليه].

سابعا: استغلال الفرص لإبراز الأعمال، فإن ذكرت آسيا فهو الخبير بها، وإن ذكرت أفريقيا قال: لي عشر سنوات وأنا أذهب إليها سنويا مرة أو مرتين، وإن كان الحديث عن أوروبا فإنه هو الذي دفع بالشباب ليذهبوا هناك حيث الدعوة والإغاثة، وأنهم وافقوا بعد جهد وعناء بذله!

وإن تحدثوا عن الفقراء، فهو العليم بأحوالهم المتابع لأخبارهم، ثم يسرد لك ما يعرف وما لا يعرف.

وإن كان من أهل مغاسل الأموات بدأ حديثه بخمسة عشرة جنازة غسلها في يوم واحد، ثم نقلك بحديثه إلى السدر والكافور لكنه ليس مذكرا ومخوفا! بل مدعيا مباهيا.

والآخر مما يعلمون في نصح الناس يسرد لك الأمر سردا، ثم يضاعف الأرقام مضاعفة عجيبة وكيف اهتدوا على يديه! ونسي المسكين أن الأمة هداها الله عز وجل على يد رجل واحد – ﷺ –، وأن أبا بكر– رضي الله عنه– أسلم على يديه ستة من العشرة المبشرين بالجنة. هذا قبل الهجرة فحسب، فأين الثرى من الثريا؟!

ثامنا: ذكر تقدير العلماء والمشايخ له، وأن فلاناً من طلبة العلم خصني بحديث لا يعرفه أحد، وأن فلانا من العلماء سألني عن كذا وكذا وقام وودعني بنفسه! وسلسلة الخرز هذه طويلة إذا انقطعت!

قال مُحَمَّد بن واسع: "إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به [2]".

---

(1) رواه البخاري (٧/ ١٤١) مسلم (٣/ ١٦٥٤).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٧) وانظر صفة الصفوة (٢/ ١٦٠) وحياة السلف بين القول والعمل (ص: ٢٥٣).

تاسعا: ذم الآخرين لإبراز نفسه ووجه نظره، فلو كنت مكان فلان ما فعلت، ولماذا الاستعجال، الأمور تؤخذ بعقل.. ثم يسرد لك موقفا يظهر فيه نفسه وكيف تصرف بحكمة واتزان وأنهى الأمر حسب ما يراه!

قال بعض العلماء: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور[1].

وفي وسط هذه المهلكات- والعياذ بالله- تبرز صور مشرقة لأهل الإيمان ممن قتلوا حظوظ النفس.. فما أجمل صورة ذلك المؤمن الذي يعمل ويكره أن ينسب إليه شيء، وما أعظم من يجد، ويجتهد ولا يرى نفسه إلا أنها حقيرة في جنب الله، بل ما أعظم من كتم حسناته كما يكتم سيئاته!

ولأهل الدعوة يقول ابن الجوزي: "ما أقل من يعمل لله تعالى خالصا، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم، اعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالعمل وإخلاص القصد وستر الحال هو الذي رفع من رفع"[2].

ولأهل الآخرة قال سهل بن عبد الله: "ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها في نصيب"[3]."

عاشرا: لإظهار النفس ترى البعض إذا عرض عليه عمل وإن كان يسيرا اعتذر مباشرة وله الحق إن شاء ذلك، لكن أن يعتذر بادعاء كثرة الأعمال والانشغال وتعدد الارتباطات و..! بل أصبح الادعاء بكثرة الأعمال موضة ظاهرة على ألسن بعض الناس، ومن الطرائف أن رجلا خطب امرأة وذكر لها أنه مشغول بأمر الدعوة وأسهب في ذلك وقد لا يجد الوقت لإعطائها حقها. فردته وقالت إما أنه كاذب أو مراء.

---

(1) انظر موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ١٨٣)و إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك (ص: ١٩٣)و خطوات إلى السعادة (ص: ١٨).

(2) صيد الخاطر (ص: ٢٦٤).

(3) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٨٤) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢/ ٢٦٦).

كاذب يدعي، أو يرائي؛ ليرتفع في عيني، وإلا أين هو من رسول الله – ﷺ –، وأين هو من العلماء العاملين؟!

الحادي عشر: أحدهم يزور مكتبا للدعوة دقائق معدودة كل ثلاثة أشهر، وكلما جلس مجلسا تحدث عن المكتب وأعماله وإنجازاته وتسيد الحديث وكأنه المسؤول الأول عن المكتب فيظهر دقيق الأمور وجليلها، ثم يطرح ما قرأ من مشاريع وطموحات ليوهم أنه يحمل هم الدعوة وأنه يجد مشقة في التردد على المكتب.

الثاني عشر: هناك من تستشرف نفسه لدرع يقدم له أو شهادة شكر تصل باسمه! ويصغي بسمعه أن يثنى عليه وعلى جهده! أو يتحدث ويكتب عن سيرته ماذا قدم وفعل؟!

أخي المسلم: كل عملك الذي تقدمه فهو قليل في جنب الله وإن ظهر لك مثل الجبال. فاجمع على قلبك الخوف والرجاء وتذكر قول ابن عوف: "لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل عنك أم لا؟! إن عملك مغيب عنك كله"[1].

واحفظ عملك بالإخلاص، واكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك، وأبشر بخير عظيم إذا قصدت وجه الله عز وجل، يقول ابن تيمية في هذا الشأن: "والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة". ثم ذكر –رحمه الله– حديث المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها، والرجل الذي

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤٢٨)وانظر جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٢٢).

أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له، ثم قال: "فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها. فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال"[1].

أخي المسلم: أسباب الرياء وبواعثه ترجع إلى ثلاثة أصول:

الأول: حب لذة الحمد والثناء من الناس.

الثاني: الفرار من الذم.

الثالث: الطمع فيما أيدي الناس من مال أو جاه و غيره.

وهذه الأمراض خطيرة على الإنسان وربما تكون سببا في سوء خاتمته؛ لأن ظاهره مخالف لباطنه- والعياذ بالله-.

وليتذكر أحدنا قول الحسن: "رحم الله رجلا لم يغره كثرة ما يرى من الناس. ابن آدم، إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك"[2].

جعل الله أعمال الجميع صوابا خالصة لوجهه الكريم، لا رياء فيها ولا سمعة، ولا عجب ولا منة، بل المنة والفضل لمن هدى ووفق وأعان وسدد جل وعلا.

اثر الإحسان في تزكية النفس

إن الإحسان مشتق من «الحُسن» الذي هو الجمال والبهاء لكل ما يصدر من العبد من خطرات ونبرات وتصرفات، وهو أعلى مقامات الرفعة الإنسانية، والمفتاح السحري لكل أزماتها وجسر سعادتها الأبدية، وكفى الإحسان شرفا أن البشرية جمعاء اتفقت على حبه ومدحه وأجمعت على كره ضده من كافة صنوف الإساءة،

---

(1) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢١٨) .

(2) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٥٥)وحياة السلف بين القول والعمل (ص: ٨٤٤).

ولذلك أولى الإسلام الإحسان عناية بالغة وجعله أسمى هدف تصبو إليه نفوس العابدين، وهو طريق الوصول لمحبة الله تعالى ومعيته ورحمته، بل ورؤيته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، في جنة الخلد، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

من أبلغ الأقوال في الإحسان قول من أوتي جوامع الكلم – ﷺ –: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] .

ففي هذه الكلمات النبوية الجامعة من مقتضيات المراقبة والخشية والإنابة والإتقان والاتباع وصفاء السريرة .. ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. فبيَّن ﷺ أن الإحسان على مرتبتين متفاوتتين:

(أعلاهما) عبادة الله كأنك تراه، وهذا «مقام المشاهدة»، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه حيث يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان. ولذلك لما خطب عروة إِلَى ابن عمر ابنته وهما في الطواف لم يجبه بشيء، ثم رآه بعد ذلك فاعتذر إِلَيْهِ، وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا»[2].

الثاني: «مقام المراقبة» وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات

---

(1) رواه البخاري (١/ ١٩)ومسلم (١/ ٣٧) .

(2) رواه ابو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٩)وانظر جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ١٢٨) وفتح الباري لابن رجب (١/ ٢١٢) .

إلى غير الله تعالى وإرادته بالعمل، قال الحارث المحاسبي: «أوائل المراقبة علم القلب بقرب الرب»[1]، وقال بعض السَّلف: «من عمل لله عَلَى المشاهدة فهو عارف، ومن عمل عَلَى مشاهدة الله إياه فهو مخلص»[2].

ويتفاوت أهل هذين المقامين بحسب نفوذ البصائر ؛ لذلك قال النووي –رحمه الله–: (وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين)[3].

وقالوا أيضا في الإحسان: «فعل الخيرات على أكمل وجه». «تحسين الظاهر والباطن». «الإتيان بغاية ما يمكن من تحسين العمل المأمور به، ولا يترك شيئاً مما أمر به». «امتلاء القلب بحقيقة الألوهية كأنه يشاهد الله عياناً». «مراعاة الخشوع والخضوع».

وبالجملة فالإحسان هو الذي خُلقنا من أجله، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[4] ثم بيّن الحكمة فقال: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}[5] .

والإحسان ذروة الأعمال، وهو أن تقدم الفعل من غير عوض سابق، بل يساء إليك ولا يسعك إلا أن تقدم الإحسان، كما فعل يوسف الصديق عليه السلام {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا

---

(1) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٤٠٩) ومشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه (١/ ٥٣٧) شرح كلمة الإخلاص لابن رجب (ص: ١٢٤) .

(2) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ١٢٩) فتح الباري لابن رجب (١/ ٢١١).

(3) انظر فتح الباري لابن حجر (١/ ١٢٠)

(4) سورة الملك ، الآية ٢ .

(5) سورة الملك ، الآية ٢ .

حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}[1] فعاملهم بالإحسان فلم يعبر لهم الرؤيا فقط بل أعطاهم الحَل معه {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ}.

بل إن الذي يستلفت النظر في قصة يوسف عليه السلام كثرة تكرار صفة الإحسان، فكان محسنا مع ربه ومع الناس –وهما متلازمان– فقد سمى الله قصته {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}[2] أي من أحسنه.

ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[3].ووصفه السجناء بذلك {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[4] .

وبه مكنه الله تعالى في الأرض {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[5].

وقال له إخوته وهم لا يعرفونه {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[6].

---

(1) سورة يوسف ، الآيات ٤٦-٤٨ .
(2) سورة يوسف ، الآية ٣ .
(3) سورة يوسف ، الآية ٢٢ .
(4) سورة يوسف ، الآية ٣٦ .
(5) سورة يوسف ، الآية ٥٦ .
(6) سورة يوسف ، الآية ٧٨ .

وقال عن نفسه وأخيه {قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[1].

ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[2].

فلم يذهب إحسانه سدى، فكل إحسان يفعله العبد حتى فيمن لا يستحقون لابد أن يكافئه عليه الله تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[3] فاصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن صادف أهله فهو أهله، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله.

والإحسان خير مكانة يتبوأها العبد لأنه إن أساء وسعه بعده الإيمان ثم الإسلام، أما من يعيشون على الحد الأدنى للإسلام فهو مع النقص مهدد بكفر الاعتقاد أو كفر النعمة.

قال ابن تيمية: (جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنا، ولا كل مسلم مؤمنا ..)، ثم قال: (وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين)[4].

---

(1) سورة يوسف ، الآية ٩٠ .

(2) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

(3) سورة الرحمن ، الآية ٦٠ .

(4) مجموع الفتاوى (٧/ ٨) .

وخلق الإحسان يتسع ليشمل القول والعمل والعبادات والمعاملات .. فهو إكسير الحياة الذي يحيلها طيبة متآلفة، لـذلك جعـل الله تعـالى رحمتـه ومحبتـه جـائزة المحسـنين {وَاللهُ يُحِـبُّ الْمُحْسِـنِينَ}[1] {إِنَّ رَحْمَـتَ اللهِ قَرِيـبٌ مِّـنَ الْمُحْسِنِينَ} [2].

كما أن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، ولذلك قال –صلى الله عليه وسلم–: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[3] .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم*** فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأعظم ثمرات الإحسان قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [4]الحُسْنَى: أي البالغة الحسن في كل شيء، من جهة الكمال والجمال، وهي الجنة، وقد ثبت عن النبي في صحيح مسلم تفسير الزيادة المذكورة في هذه الآية الكريمة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة، ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الـذين عبـدوا الله كـأنهم يرونـه، جـزاهم علـى ذلـك العمـل النظـر إليـه عيـاناً في الآخـرة {هَـلْ جَـزَاءُ الْإِحْسَـانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[5]وعكس هذا ما أخبر الله به عن الكفار في الآخرة بقوله: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (المطففين: ١٥) {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[6].

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .

(2) سورة الأعراف ، الآية ٥٦ .

(3) رواه الترمذي (٤/ ٣٥٥)و أحمد (٣٥/ ٢٨٤) والطبراني(٤/ ١٢٦) و الدارمي (٣/ ١٨٣٨)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٨١) .

(4) سورة يونس ، الآية ٢٦ .

(5) سورة الرحمن ، الآية ٦٠ .

(6) سورة النجم ، الآية ٣١ .

إن الإحسان هو الأمارة الدالة على الفوز والنجاة. فمن كان من أهل السعادة، عَمِل عَمَل المحسنين، ومن كان من أهل الشقاء عمل عمل المسيئين. فهو طريقك وهدفك ومحل كدك ونصبك .. روى الطبراني عن أبي سلمة عن معاذ –رضي الله عنه– قال: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية»[1] ،[2]

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٧٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٣٨) .

(2) من مقال على الشبكة العنكبوتية بعنوان الاحسان عبادة الابرار للدكتور خالد سعد النجار .

أثر الزكاة في تزكية النفس

إن الزكاة في الشرع هي الحصة المقدرة التي فرضها الله في الأموال الزكوية للمستحقين ، وفي اللغة هي البركة والنماء والطهارة، وإن كانت تنقص المال في الظاهر فإنها تزكيه وتطهره وتنميه في المعنى، كما تزكي مخرجها أي تطهره من الذنوب قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[1] قال البغوي في تفسيره: قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ بها من ذنوبهم وتزكيهم بها أي ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين وقيل تنمي أموالهم[2] .

الزكاة:

فريضة اجتماعية، تقومُ على البذل بالتنازلِ عن جزءٍ من المال الذي يملِكُه المسلم؛ طاعةً لله، وابتغاء ثوابه.

وتؤدَّى الزكاة وَفْق شروط معينة، والزكاة هي تطهيرٌ للمال، وتزكية، وتنمية له بفضل الله عز وجل؛ قال الله – تعالى –: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] ؛ فهي تطهّرُ النفسَ من البخل والقسوة والأثَرة، وتبني مجتمعًا متكاملاً، وهي إحساس بالفضل والنعمة التي أنعم اللهُ بها على الإنسان، والزكاة من الأمور التي تساعد النفسَ على تزكيتها وارتقائها على بذل المال.

---

(1) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(2) تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ٣٨٤) .

(3) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

قال الله – تعالى –: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وللزكاة تأثيرات تربوية بالغة الأهمية في تكوين شخصية الفرد كعضو صالحٍ في المجتمع الذي يعيش فيه، وتشترك معه في تحقيق الأهداف والغايات والمنافع المشتركة.

كما أن الزكاةَ تساعد في إصلاح البشرية، ومنعِ الفساد في الأرض، وإقامة مجتمع متضافرٍ، القوي يأخُذُ بيد الضعيف، والغني يمد يديه للفقير في مودة ورحمة، مطبِّقًا لشرع الله، وإن التربية الإسلامية من شأنها أن تُظهِرَ المواهب والقوى؛ بحيث تخصص كل قوة لِما هي له، فلا تخبو قوةٌ كانت تستطيع العمل، ولا ينطفئُ نورُ عقل كان يمكنُ أن يجتهد ويستنبط، ومن يعجز عن العمل تتكفل الدولة أو الجماعة الإسلامية بسدِّ حاجته، ورفع العوز؛ فقد جُعِل لهؤلاء حقٌّ في أموال الأغنياء.

ومن الآثار التربوية للزكاة:

١) قد قرنت الزكاة بالصلاة؛ فكانت عنوان الأخوة الإسلامية؛ قال الله – تعالى –: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2]. وقال الله – تعالى –: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩.

(٢) سورة التوبة ، الآية ٥.

(٣) سورة التوبة ، الآية ١١ .

٢) تزكية للنفس من الرذائل، وخاصة البخل، والشح والجشع، والطمع والشَّر، التي تنعكس آثارها السلبية على حياة الجماعة.

٣) تساعد الزكاة على إعطاء كل ذي حق حقَّه، وعدم التقاعس في أداء الحقوق، وإعانة كل المحتاجين مع توفر الاستطاعة.

٤) تعوِّد الزكاةُ الإنسان الصالح على التحلّي بالأخلاق والفضائل، وخاصة الإيثار والبذل، والكرَم والجود، والتضحية في سبيل الآخرين.

٥) "تقوِّي الزكاة في المؤمن روحَ الانتماء الاجتماعي، والاهتمام بأمر الجماعة، ومشاركتها الإيجابية الفعالة فيما يحقِّقُ سعادتها، ويخفف من بؤسِها.

٦) تُسهِمُ الزكاة في إقامة المصلحة العامة ذات الأهداف والغايات المشتركة بين مختلف أعضاء الجماعة؛ فقراء وأغنياء، والتي تتوقَّفُ عليها حياةُ الجماعة وسعادتها وتقدمها"[١] .

٧) تقوم الزكاة بالحد من تكدس الأموال لدى الأغنياء، وهي "مما يوجبُ الأمنَ في البلاد؛ لسد الحاجة للفقراء والمحتاجين؛ مما يؤدِّي إلى اتحاد الرعية، وسعادة الجميع وهنائهم"[٢].

٨) شعور المؤمن المؤدي زكاة ماله بالسكينة والطمأنينة في نفسه، والراحة والرضا؛ لإحساسه بأنه أدى حقَّ الله – تعالى – عليه، وطهَّر مالَه وزكَّاه؛ فالزكاةُ مصدر سعادة مستمرة في حياته؛ مما يحفزه على البذل والعطاء والمزيد من العمل؛ حتى يزيد من إعمار الأرض ويحقق خلافته فيها.

---

[١] عبدالحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص: ٣٨٨.

[٢] علي أحمد الحنبلي، حكمة التشريع وفلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ص: ٨٥.

اثر اليقين في تزكية النفس

لليقين آثار كثيرة وثمرات عظيمة في حياة العبد ومعاده، ومن تلك الثمرات ما يلي:

١- اليقين من أعظم أسباب حياة القلب وطمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة، فاليقين يزيل الريب والشك والسخط، ويملأ القلب نوراً وإشراقًا ورجاءً وخوفًا من الله ومحبة له، ورضى بما قدر، وهو من أسباب زيادة أعمال القلوب كالتوكل والإنابة والخوف والخشية وإحسان الظن بالله تعالى، ولابد لليقين من علم صحيح يوصل بالخوف والرجاء فهما يدفعان إلى العمل بتحري الإتباع والإخلاص .

وتأمل حال خليل الرحمن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام عندما سأل ربه قائلًا كما أخبر الله تعالى عنه: (" رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[١] " فإبراهيم عليه السلام بسؤاله هذا " أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة "[٢] فقال الله تعالى له: " أَوَلَمْ تُؤْمِنْ " فأجاب إبراهيم عليه السلام بقوله: " بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " فرضي الله من إبراهيم قوله: " بَلَى" وعلم سبحانه من حال هذا الرسول الكريم أنه يريد زيادة الاطمئنان واليقين، وإزالة ما قد يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان) .فازداد إبراهيم عليه السلام باليقين إيمانًا وقوة حجة وبرهان .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٢٨) .

٢- اليقين من أعظم أسباب قوة الإيمان وزيادته، وبه تنال الإمامة في الدين، يقول ابن القيم سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: " بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى: "(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[١]،[٢] .

كما أن من ثمراته العظيمة قوة التوكل على الله –كما أشرت في الثمرة الأولى - هذا العمل القلبي العظيم، فكلما ازداد اليقين في نفس العبد قوي توكله، قال تعالى: "(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)[٣] والحق هنا هو اليقين كما ذكر ابن القيم رحمه الله[٤].

٣- اليقين سبب لتوفيق الله لعبده للجواب الصحيح حين سؤال الملكين في القبر – نسأل الله الثبات على الحق – كما أن اليقين سبب لدخول الجنة: فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «...ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، فأوحي إلى أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو مُحَمَّد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا، هو مُحَمَّد ثلاثًا، فيقال نم صالحًا قد علمنا إن كنت لموقنًا به، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[٥].

ويشهد لذلك الحديث السابق ذكره وهو قوله ﷺ لأبي هريرة: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا

---

(١) سورة السجدة ، الآية ٢٤ .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٥٣) ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٧٦) وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٠٣) .

(٣) سورة النمل، الآية ٧٩ .

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٥) .

(٥) رواه البخاري (١/ ٤٨)ومسلم (٢/ ٦٢٤) .

إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»[1] وكذلك جاء في سيد الاستغفار قوله ﷺ: «من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[2] .

٤- اليقين من أعظم الأسباب المعينة على العبادات والقيام بالمشروعات والإقدام على الأمر بالمعروف وإنكار المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى ؛ وذلك إن اليقين يمنع ورود الشهوات والشبهات على القلوب، ويدفع عن النفس ما قد تجده من ثقل أو صعوبة في بعض العبادات، يقول ابن القيم: " والقلب متى استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه... زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون، ولان له ما استوعره المترفون "[3] .

ويقول الحسن البصري: " ما طلبت الجنة إلا باليقين، ولا هرب من النار إلا باليقين، ولا صبر على الحق إلا باليقين [4]".

ويقول سفيان الثوري: " لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقًا إلى الجنة وخوفًا من النار[5] .

٥- اليقين من أسباب انشراح الصدر وسلامة النفس من الخوف والقلق والتردد، فاليقين يعين على الصبر والاحتساب والرضا بالقضاء والقدر، ويدفع عن القلب الوساوس والخواطر السيئة .

---

(1) رواه مسلم (١/ ٦٠) .

(2) رواه البخاري (٨/ ٦٧) .

(3) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٩) .

(4) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٥) .

(5) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٥) وفتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨)و تاريخ الإسلام ت بشار (٤/ ٣٩١) .

قال تعالى: ("مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)"[1] فاليقين –كما يقول ابن القيم – من أفضل مواهب الرب لعبده ؛ إذ لا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين، يقول ابن مسعود في تفسير الآية السابقة: " هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم[2] .

يقول ابن القيم: " فهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه "[3] .

ويقول ابن رجب: " فمن حقق اليقين وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة [4]" .

وتأمل قصة مسارعة أبي بكر الصديق إلى تصديق الرسول ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج، فإن فيها من العبر اليقينية الشيء العظيم ؛ فإنه «لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضى الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم ؛ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمي أبو بكر: الصدِّيق»[5].

هذه بعض الثمرات والآثار الحسنة على من تحلى بقوة اليقين، واعتنى بترقيته ومداومة مراجعته في نفسه .

---

(1) سورة التغابن ، الآية ١١ .

(2) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٥)و درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٢٠) .

(3) المرجع السابق .

(4) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ١٨١) .

(5) رواه الحاكم (٣/ ٦٥) وقال: " صحيح الإسناد " ووافقه الذهبي وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة

إنها ثمرات عظيمة فلا تفوتك أخي المسلم، فالوصول إليها سهل ميسور لمن علم الله منه صدق الإخلاص والمتابعة وتحري الحق.

اثر التمسك بالسنة في تزكية النفس

التزكية مقصد من مقاصد بعثة الرسل عموما، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" انتهى[1].

وهي غاية من غايات بعثة النبي ﷺ على وجه الخصوص كما قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)[2]، فهو يزكيهم بمعنى: يدلهم على ما تزكو به نفوسهم، وليس هو فاعل التزكية فيهم، (ولكن الله يزكي من يشاء)[3].

وقد حاز النبي ﷺ على التزكية الربانية في إيمانه وعبادته وخلقه، فأرسله الله لتزكية هذه الأمة، وتطهير النفوس من دسائسها وأمراضها، وملئها بكل خصال الطهر والنقاء، وقد كان ذلك في أصحابه رضوان الله عليهم، الذين تحقق فيهم هذا المقصد العظيم بأبهى صوره، حيث عمل فيهم النبي ﷺ على مسارات التزكية الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، فكانوا صفوة لا تتكرر، وبقيت الأمة تتوارث منهجهم في التزكية، وعلى قدر قرب الأمة وبعدها من هذه القدوات يكون موقعهم من هذا المقصد العظيم (التزكية).

---

(1) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٠).

(2) سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية ١٦٤.

(3) سورة النور، الآية ٢١.

ومفهوم التزكية كما يرى ابن تيميه في الفتاوى: (تكون بعمل الصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير)[1].

ويمكن القول بأن تزكية النفس: عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل، والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا، والفلاح والنجاة في الآخرة.

وإذا كانت التزكية أحد مقاصد بعثة النبي ﷺ، فإننا سنجد ذلك مبثوثا في صفحات السنة النبوية، وهذه بعض الإشارات التي تبرز هذا المقصد لا على جهة الاستيعاب:

مقصد التزكية في الدعاء النبوي:

مطلب التزكية ظاهر في دعائه المأثور، فكان من دعائه ﷺ كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[2].

---

(1) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨).

(2) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨).

اثر الصدقة في تزكية النفس

الصدقة من أعظم أسباب سلامة الصدر؛ لأن الصدقة تطهر القلب وتزكي النفس، كما قال سبحانه: ﴿خُذ مِن أَموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكّيهِم بِها﴾[1] فمن حكم تشريع الزكاة والصدقات تطهير النفس من الحقد والغل والحسد والكراهية، وملء القلب بمحبة المسلمين

تُعرَّف الصدقة في اللغة بأنّها: ما يُبذَل تقرُّباً لله -تعالى-، وأصل تسميتها بهذا الاسم أنّ بَذلها يكون دلالة على صِدق نيّة مُعطيها، وهي تُطلَق بمعناها الشامل على الزكاة وصدقات التطوُّع، فيقال للزكاة صدقة، قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[2].

ويُقال لما يُبذَل تطوُّعاً صدقة.

أمّا معناها في الاصطلاح فهو: ما يُبذَل على وجه التقرُّب لله -تعالى- في الحياة دون عِوض أو مقابل بحيث تكون مُلكاً لآخذها، ويُطلق اسم (الصدقة) في الأصل والغالب على ما يُبذَل تطوُّعاً، أمّا ما يتوجّب بَذله فيُطلَق عليه مُسمّى (الزكاة)، وقد أُطلِق لفظ الصدقة أيضاً على كلّ ما يُبذَل من الهِبات بنيّة تحصيل ثواب الآخرة، ويُعرَف كلّ ما يبقى أثره وثوابه بعد الممات بالصدقة الجارية. وقد تكون الصدقة الجارية من قِبل الإنسان نفسه؛ حيث يبذلها في حياته ليبقى له أجرها بعد مماته، وقد تُبذل الصدقة الجارية من قِبل شخص آخر بنيّة إهداء ثوابها

---

(1) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(2) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

للميت، وأصل مشروعيّة الصدقة الجارية قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((إذا ماتَ الإنسانُ انقَطعَ عنه عملُهُ إلَّا من ثلاثٍ: صَدقةٌ جاريةٌ، وعِلمٌ يُنتَفعُ بِهِ، وولدٌ صالحٌ يدعو لَهُ))[1].

وفي الإسلام الصدقة الجارية هي كل عمل يبقى نافعا للبشرية حتى بعد موت صاحبه، بمعنى آخر من ترك عملا نافعا للبشرية يبقى مأجورا عليه حتى بعد وفاته.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))[2].

وقال الله تعالى:﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].وتكمن اهميتها في كونها تدَفع مِيتة السوء وهي الميتة التي تكون على معصية الله -تعالى-، وكذلك الوقاية من أهوال يوم القيامة قال تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[4] إلى أن قال -تعالى-: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}[5].

ومنها تزكية النفس وتطهيرها من السيّئات قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ}[1].

---

(1) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٥).

(2) رواه ابن ماجه (١/ ٨٨)والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٢٢)وحسنه الالباني في مشكاة المصابيح (١/ ٨٥)وصحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٤٢)

(3) سورة البقرة ، الآية ٢٧٤ .

(4) سورة الإنسان ، الآية ٩ .

(5) سورة الإنسان ، الآية ١١ .

وللصدقة الجارية أهمّية في الحياة الدنيا من الناحية الصحّية، والنفسية، والاجتماعية، وذلك انشراح الصدر، وراحة القلب؛ فالمتصدِّقون أوسع الناس صدراً، وأحسنهم خُلقاً. وزيادة الرزق ونماؤه، وتحقيق التراحم بين الناس، وإشاعة روح التكافل الاجتماعي بينهم، وحلّ مشكلة الفقر في المجتمع، سبب في جَلب مَحبّة الناس، سبب في دفع البلايا والشرور والمهالك عن المجتمع؛ فالصدقة تقي النفس من الشحّ الذي أهلك الأمم السابقة، وتقي الإنسان من الكَرب، وتدفع الأمراض والبلايا، وفي الحديث: ((داووا مرضاكم بالصدقة))[٢]. فضلاً عن تقوية الدين ونصرته.

وأفضل صور الصدقة هي سقاية الماء فهي من أفضل الصدقات عند الله؛ لما جاء في الحديث النبويّ عن سعد بن عبادة أنّه قال: ((يا رسولَ اللهِ ! إنَّ أمي ماتت، أفأتصدقُ عنها؟ قال: نعم، قلتُ: فأيُّ الصدقةِ أفضلُ؟ قال: سقْيُ الماءِ)[٣]، والعِبرة ليست في السُّقيا فقط، وإنّما في كلّ شيء يحتاج إليه الناس.

وأخيراً نذكر ما قاله الإمام الصادق (عليه السلام):((لا تتصدق على أعين الناس ليزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدق له سرا يجزيك علانية))[٤] .جعلنا وإياكم من المتصدقين إلى يوم الدين.

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (ص: ١٢٨) والطبراني (١٠/ ١٢٨)والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٨٤)و أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٤)و صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٥٨) .

(٣) رواه أحمد (٣٩/ ٢٦٤) والنسائي (٦/ ٢٥٤) وابن خزيمة (٤/ ١٢٣)والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٦٨) وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٨/ ٢٣٨، بترقيم الشاملة آليا)و صحيح أبي داود (٥/ ٣٦٦) . وجاء بلفظ (أفضل الصدقة سقي الماء)وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٥٠) .

(٤)

أثر التقوى في تزكية النفس

وتزكية النفوس هي ثمرة التقوى، ويشهد لذلك قول الله عز وجل: {فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[1] فهذه الآية نص صريح على أن التزكية هي التقوى.

وقال الله عز وجل: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}[2] .

وقال الله عز وجل: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[3] .

وحديث الرسول ﷺ أيضاً ينص على أن التقوى هي التزكية، كما في قوله ﷺ: (اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها)[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: النفس تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات[5].

وترك المحرمات مع فعل المأمورات هي التقوى.

وقال ابن عيينة وقتادة في قول الله عز وجل: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}[6] : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح وصالح الأعمال[7].

---

(1) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

(2) سورة الليل ، الآيات ١٧ - ١٨.

(3) سورة الشمس ، الآيات ٧ – ٩ .

(4) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨) .

(5) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٥) والزهد والورع والعبادة (ص: ٥٩) .

(6) سورة الأعلى ، الآية ١٤.

(7) انظر زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥١)وتفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٢٨٤)ومجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٥) .

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: زكاها أي: طهرها من الذنوب والمعاصي.

وهذه المنزلة كبيرة لا تدرك إلا بتزكية النفس كما أخبر الحق سبحانه بقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[1] وقوله جل شأنه {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}[2] . فدلت الآيات على أن تزكية النفس موجبة للفلاح في الدنيا والآخرة.

التقوى : – في أبسط صورها – أن يفعل المسلم ما أمره الله به، ويجتنب المحارم، مخلصًا لله تعالى محتسبًا أجره على الله، ومتابعًا في ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال العلامة مُحَمَّد بن صالح العثيمين – رحمه الله –:

« التقوى اسم مأخوذ من الوقاية، وهو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله. والذي يقيك من عذاب الله هو فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، فإن هذا هو الذي يقي من عذاب الله عزَّ وجلَّ، أن تأخذ أوامر الله وأن تترك ما نهي عنه»[3].

وقد أشار العلامة الفيروزآبادي في كتاب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" إلى آثار التقوى وثمراتها وفوائدها التي ورد ذكرها في كتاب الله عزَّ وجلَّ، فقال – رحمه الله –:

«وأَمّا البِشَارَات الَّتِي بشَّر الله تعالى بها الْمُتَّقِين في القرآن فـ:

الأَوّل: البشرى بالكرامات؛ ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ البشرى ﴾[4].

---

(1) سورة الشمس ، الآيات ٩- ١٠ .

(2) سورة الأعلى ، الآية ١٤ .

(3) « شرح رياض الصالحين» (١/ ٥١٣).

(4) سورة يونس ، الآيات ٦٣- ٦٤ .

الثاني: البشرى بالعون والنّصرة؛ ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾[١].

الثَّالث: بالعلم والحكمة؛ ﴿ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[٢] .

الرّابع: بكفَّارة الذّنوب وتعظيمه؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾[٣] .

السّادس: بالمغفرة؛ ﴿ واتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

السّابع: اليُسْر والسّهولة في الأَمر؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[٥].

الثَّامن: الخروج من الغمّ والمِحنةِ؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾[٦].

التَّاسع: رزق واسع، بأَمن وفراغ؛ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾[٧].

العاشر: النَّجاة من العذاب، والعقوبة؛ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾[٨].

الحادي عشر: الفوز بالمراد؛ ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾[٩]، ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[١٠] .

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٩.
(٣) سورة الطلاق، الآية ٥.
(٤) سورة الأنفال ، الآية ٦٩.
(٥) سورة الطلاق، الآية ٤ .
(٦) سورة الطلاق ،الآية ٢ .
(٧) سورة التحريم ، الآية ٣ .
(٨) سورة مريم ،الآية ٧٢
(٩) سورة الزمر ، الآية ٦١
(١٠) سورة النبأ، الآية ٣١

الثاني عشر: التَّوفيق والعصمة؛ ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[1] ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾[1].

الثالث عشر: الشهادة لهم بالصدق؛ ﴿ أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون ﴾[2].

الرابع عشر: بشارة الكرامة والأكرمية؛ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾[3].

الخامس عشر: بشارة المحبّ؛ ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ﴾[4].

السّادس عشر: الفلاح؛ ﴿ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5].

السّابع عشر: نيل الوصال، والقُربة؛ ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾[6].

الثامن عشر: نيل الجزاء بالمحنة؛ ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾[7].

التَّاسع عشر: قبول الصّدقة؛ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[8].

العشرون: الصّفاء والصّفوة؛ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾[9].

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٧٧
(2) سورة البقرة، الآية ١٧٧
(3) سورة الحجرات، الآية ١٣
(4) سورة التوبة، الآية ٤
(5) سورة البقرة، الآية ١٨٩
(6) سورة الحج، الآية ٣٧
(7) سورة يوسف، الآية ٩٠
(8) سورة المائدة، الآية ٢٧
(9) سورة الحج، الآية ٣٢

الحادي والعشرون: كمال العبودية؛ ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [١].

الثاني والعشرون: الجنَّات والعيون؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[٢].

الثالث والعشرون: الأَمْن من البليّة؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[٣].

الرابع والعشرون: عزّ الفوقيّة على الخَلْق؛ ﴿ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾[٤].

الخامس والعشرون: زوال الخوف والحزن من العقوبة؛ ﴿ فَمَنِ اتقى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٥]

السادس والعشرون: الأَزواج الموافِقة؛ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾، إلى قوله: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾[٦].

السّابع والعشرون: قُرب الحضرة، واللِّقاءِ والرّؤية؛ ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[٧]» [٨].

---

[١] سورة آل عمران، الآية ١٠٢

[٢] سورة الحجر، الآية ٤٥

[٣] سورة الدخان، الآية ٥١

[٤] سورة البقرة، الآية ٢١٢

[٥] سورة الأعراف، الآية ٣٥

[٦] سورة النبأ، الآية ٣١

[٧] سورة القمر، الآيات ٥٤-٥٥

[٨] «انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٣٠١-٣٠٣).

أثر الكلمة الطيبة لا إله إلا الله في تزكية النفس

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ، وفي تزكية النفس منها

١- أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

٢- أن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومن ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحد من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلا من كبريائه وعظمته، لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣- ينشأ من هذه الكلمة، تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٍ من غير كِبْرٍ.

٤- المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار، فإنَّهم يقضون حياتهم في آمال كاذبة؛ فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفارةً لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا. ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته، زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله، فيعتقدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا، غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته، وهو عبدهما.

٥- قائل هذه الكلمة لا يتسرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنَّه يؤمنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

٦- الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والأقدام، والصّبر والثبات والتوكّل، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخهُ وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، فمن أين للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

٧- هذه الكلمة تشجعُ الإنسان، وتملأ قلبه جرأةً، لأن الذي يجبّنُ الإنسان ويوهنُ عزمه شيئان:

-حبه للنفس والمال والأهل.

-واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرء بـ لا إله إلا الله ينزعُ من قلبه الأولَ وهو: "حبّه للنفس والمال والأهل"، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غال ونفيس عنده، كما ينزع الثاني وهو: "اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان" بأن يلقِي في روعهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجله، من أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرّصاص، ولا وابلُ القنابل.

٨- الإيمان بـ لا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩- الإيمان بـ لا إله إلا الله يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظة عليه، فإنَّ المؤمن يعتِقدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشٍ أيٍّ كانَ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ لا إله إلا الله هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

(1) - أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط ٣ ١٩٦١، ص ٨٧.

عشر نصائح مهمة لمن أراد تزكية النفس بصدق وإخلاص وتجرد

تزكية النفس هو علم عمليٌّ ضروري لكل مسلم، يختص بتطهير النفس والقلب من الأمراض والرذائل، التي تمنعها من الله والوصول إلى الدرجات العلا عنده؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] وقال أيضًا: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2]، وذلك بالتطبيق العملي لآيات القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وقد انتقيت عشرَ وصايا مهمة، من تفكُّري في معاني كتاب الله وسنة رسوله، وحِكَمِ علمائنا وآيات ربنا الكونية في خلقه، وهي على اختصارها وقِصَرِها، أسأل الله أن يصل نفعها لكل مسلم، يريد إصلاح أحوال نفسه وغيره.

الوصية الأولى: ينبغي للمسلم أن يعالج نيته قبل كل قول أو فعل، ويراقبها أثناء ذلك، يريد بها مرضاة الله وثوابه وأجره؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[3]، وقال رسول الله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصِيبها أو امرأة ينكِحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه))[4].

الوصية الثانية: ينبغي لطالب العلم أن يوازِنَ بين علوم الآلة، وعلم تزكية النفس؛ لأنه إذا أهمل الثاني، قسا قلبه، ومرِض بالعُجب، والكِبر، والحسد، وحب الرئاسة والظهور، فعلوم الآلة هي لتصحيح الفهم للدين، وعلم التزكية هو لإصلاح العلاقة بين العبد وربّه.

---

(1) سورة الشمس ، الآيات ٩- ١٠ .

(2) سورة الشعراء ، الآية ٨٧ – ٨٩ .

(3) سورة البينة ، الآية ٥ .

(4) رواه البخاري (١/ ٦) ومسلم (٣/ ١٥١٥) .

الوصية الثالثة: ينبغي للمسلم أن يكون دائمَ النظر بقلبه لربِّهِ، مستغنيًا به عن غيره، ولا ينظر إلى الخلق، إلا من نافذة طاعة ربه؛ أي: يتعامل مع الخلق بما يُرضي ربَّه.

الوصية الرابعة: ينبغي للمسلم أن يكون دائم التعظيم للآخرة، دائم التحقير للدنيا، لا يريدها إلا في مرضاة محبوبه سبحانه؛ قال رسول الله ﷺ: ((ازهد في الدنيا، يُحبَّك الله))[1].

الوصية الخامسة: ينبغي للمسلم أن يشغل أغلب وقته بالله، وينوِّع في الطاعات؛ حتى لا يَمَلَّ، يتجول طيلة يومه بين أزهار وورود الطاعات.

الوصية السادسة: ينبغي للمسلم أن تكون له خلوة بربه في كل يوم، يذكره فيها سبحانه، يدعوه ويتفكر في أحواله وذنوبه وعيوبه، يلتمس الدواء الشافي لنفسه، وأن تكون تلك الخلوة أسعدَ أوقات يومه.

الوصية السابعة: ينبغي للمسلم أن يكون معطاءً جوادًا كريمًا، خدومًا مصلحًا متخلقًا محسنًا للخَلْقِ؛ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

الوصية الثامنة: ينبغي للمسلم أن يكون ناصحًا لإخوانه بالحكمة والستر، والموعظة الحسنة والصدق، ولا يذكر عيوب المنصوح إلا للمُعِين على النصح.

الوصية التاسعة: ينبغي للمسلم ألَّا يصاحب إلا صِنفين؛ صالحًا يستفيد من علمه وصلاحه، أو مريضًا معترفًا بمرضه يريد دواءه، أما المريض الذي لا يعترف بمرضه، فيجب أن يبتعد عنه؛ حتى لا يعديه بدائه؛ يقول النبي

---

(1) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٣)والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١١٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢٥٣)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٢٠).

(2)سورة البقرة ، الآية ١٩٥ .

ﷺ: ((لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقِيٌّ))[1].

الوصية العاشرة: ينبغي للمسلم أن يصبر على أذى الناس، ويحتسب الأجر عند الله، ويكون مثل النخلة؛ ترميه بالحجر، ويعطيك التمر؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] .

خاتمة: وفي الأخير أسأل الله تعالى القَبول والتوفيق، للعمل بهذه الوصايا المختصرة، فمن وجد خطأ، فلينصحني وليستغفر لي الله، ومن انتفع بها، فليدعُ لي ولوالديَّ ولشيوخي وأحبائي بالرحمة والخير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد مربي العالمين، وعلى آله وصحبه، وأتباعه أجمعين

اثر قيام الليل في تزكية النفس

قيام الليل سبب تزكية النفس

فلا شك أن قيام الليل من أفضل القربات وأعظم الطاعات، ومن أهم الوسائل لتزكية النفس وشكر الله تعالى على نعمه وحصول ثوابه.

فقد فرض في بداية الإسلام لتربية النفوس وتزكيتها، ولما نسخ فرضه طاف ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة، ولذلك بقي قيام الليل دأب الصالحين وطريقة الموفقين الطائعين، وسنة متبعة عن خاتم الأنبياء والمرسلين من

---

(1) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٩) والترمذي (٤/ ١٧٨)وأحمد (١٧/ ٤٣٧)والدارمي (ص: ٤٩٥) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٣٩٧) وصحيح الجامع (٢/ ١٢٢٦).

(2) سورة فصلت ، الآية ٣٤.

أحياها أحيا الله قلبه ونور بصيرته وبيض وجهه وثبت قدمه، فقد كان ﷺ يقوم حتى تتورم قدماه أو ساقاه فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا[1].

اهمية تزكية النفوس

١-تتجلَّى أهميةُ هذا الموضوع من خلال الأمورِ التالية:

١- أهتمَّ السلفُ الصالحُ بتزكية النفوس، واعتنوا بالأخلاق علماً وفقهاً، كما حقَّقوهُ عملاً وهدياً، فأفردوا كتباً مستقلةً في الزهد والرقائق، بل أنهم يوردون الصفات الأخلاقية في ثنايا كتب العقيدة:

وممَّا يُبينُ أهمية الموضوع:

٢-أن هناك تلازمٌ بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحرافٍ في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن، قال ابنُ تيميه رحمه الله (إذا نقصت الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ، كانَ ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلاُ يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تُعدم الأعمالُ الظاهرةُ الواجبةُ[2].

٣- وتأتي أهمية الموضوُع إذا علمنا: ما يترتبُ على تحقيقِ الجانبِ الخُلُقي من الأجر الكثير والثوابِ الجزيل: قال الله تعالى (أُعدّت للمتقين الذين ينفقُون في السرّاءِ والضرّاءِ، والكاظمين الغيظ)[3]..

قال ﷺ " أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهُم خُلقاً "[1].

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٠) ومسلم (٤/ ٢١٧١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٣٣ .

وقال " إنَّ المؤمنَ ليُدركُ بحُسنِ خلقُه درجة الصائمِ القائمِ[٢] " وقال " ما من شيءً يوضعُ في الميزان أثقلُ من حسن الخلق[٣] " .

وقال ابنُ القيمّ (الدينُ كلُّه خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخُلُقِ زاد عليك في الدين)[٤] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: "كان رسول الله – ﷺ – يصلى ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة "[٥] .

وفى الخبر إنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فيقال – ﷺ –: " ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه "[٦].

وعن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله – ﷺ –: " يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان "[٧].

الآثار:

كان ابن مسعود – رضي الله عنه – إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدويّ النحل حتى يصبح[١] .

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٠)والترمذي (٣/ ٤٥٨) وأحمد (١٢/ ٣٦٤)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٦٦) .

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٢)والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٦٦)أحمد (٤١/ ٤٧٠)وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٠٩) صحيح الجامع (١/ ٣٣٤) .

(٣) رواه أبو داود (٧/ ١٧٧) والترمذي (٤/ ٣٦٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٦٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٩٨) .

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٤) .

(٥) **رواه البخاري (٣/ ٧) ومسلم (٦/ ١٦) .**

(٦) **رواه البخاري (٣/ ٣٤) ومسلم (٦/ ٦٣، ٦٤).**

(٧) **رواه البخاري (٣/ ٣٠) ومسلم (٦/ ٦٥، ٦٦).**

قيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ قال: " لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره [٢]".

وقال: " إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل [٣]".وقال رجل لأحد الصالحين: لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءاً، فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل[٤].

الأسباب المعينة على قيام الليل

١) صدْق النيَّة، والعزم على القيام، ومُجاهَدة النفس في ذلك:

وهذا مِن أعظم الأسباب؛ فإنَّ الله تعالى إذا علم مِن عَبدِه الصدق، أعطاه فوق ما يُريد؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[٥].ومَن أراد شيئًا وأحبه سعى في نيله، واجتهد في تحصيله؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [٧].

فكل من صدق الله صدَقَه الله؛ فعن سهل بن حنيف ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَن سأل الله الشهادة بصدْق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه))[٨] ؛ رواه مسلم.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٥)و تزكية النفوس (ص: ٥٠) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٩٠).

(٢) انظر مختصر منهاج القاصدين (ص: ٦٧) وإحياء علوم الدين (٤/ ٤١٢) وبحر الدموع (ص: ٦١) وتزكية النفوس (ص: ٥٠) .

(٣) انظر إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٥) وتزكية النفوس (ص: ٥٠) .

(٤) انظر تزكية النفوس (ص: ٥٠) .

(٥) سورة محمد، الآية ١٧ .

(٦) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

(٧) سورة الإسراء، الآية ١٩ .

(٨) رواه مسلم (٣/ ١٥١٧)

يا رجال الليل جدُّوا *** ربَّ داعٍ لا يُردُّ

ما يقوم الليلَ إلا ***مَن له عزمٌ وجدُّ[1]

٢) التبكير بالنوم، وتعاطي أسباب الاستيقاظ:

فعن عبدالله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وكان يَنام نصف الليل، ويقوم ثلثَه، ويَنام سدسه، ويصوم يومًا، ويُفطر يومًا))[2]؛ رواه الشيخان.

وفي الصحيحَين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بتُّ عند خالتي مَيمونة فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقَدَ،..."[3] الحديث.

وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يؤخِّر العشاء إلى ثُلُث الليل، ويكره النوم قبلها، والحديث بعدها... [4] الحديث؛ رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ حين قفَل من غزوة خيبر، سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرس[5]، وقال لبلال: ((اكلأ لنا الليل))[6]؛ رواه مسلم.

قال الإمام النووي رحمه الله: "((اكلأ لنا الفجر))؛ أي: ارقبه، واحفظه، واحرسه"[7].

---

[1] "لطائف المعارف" (ص: ٤٤٠).

[2] رواه البخاري (٢/ ٥٠) ومسلم (٢/ ٨١٦).

[3] رواه البخاري (٦/ ٤١) ومسلم (١/ ٥٢٩).

[4] رواه البخاري (١/ ١١٥)ومسلم (١/ ٤٤٧).

[5] قال في "الصحاح": "الكرى: النعاس" (ص: ٢٤٢٧)، "والتعريس: نزول القوم في السفر من آخر الليل، يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم يرتحلون" (ص: ٢٢٤٢).

[6] رواه مسلم (١/ ٤٧١).

[7] "شرح النووي على مسلم (٥/ ١٨٢).

٣) الوضوء قبل النوم، والمحافظة على أذكار النوم:

فعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((إذا أتيتَ مضجعَكَ، فتوضَّأ وضوءَك للصلاة، ثم اضطجِع على شقِّك الأيمن، ثم قل: اللهمَّ أسلمتُ وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظَهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا مَنجا منك إلا إليك، اللهمَّ آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلتَ، فإن متَّ مِن ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخِرَ ما تتكلم به))، قال: فرددتُها على النبي ﷺ، فلما بلغتُ: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: ((لا، ونبيِّك الذي أرسلتَ))[١]؛ رواه الشيخان.

وعنه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: ((اللهم أسلمت نفسي إليك...))[٢]؛ رواه البخاري.

وعن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفَث في كفيه بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٣]، وبالمعوِّذتَين جميعًا، ثم يَمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه مِن جسده[٤]؛ رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((إذا جاء أحدُكم فِراشه فلينفضه بصَنِفة[١] ثوبه ثلاث ثلاث مرات، وليقلْ: باسمك رب وضعتُ جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))[٢].

---

[١] رواه البخاري (١/ ٥٨)، واللفظ له و مسلم (٤/ ٢٠٨١).

[٢] رواه البخاري (٨/ ٦٨) ومسلم (٤/ ٢٠٨٢).

[٣] سورة الصمد، الآية ١.

[٤] رواه البخاري (٧/ ١٣٣).

وفي الصحيحَين عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الآيتان مِن آخر سورة البقرة مَن قرأهما في ليلة كفتاه))[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: وكَّلَني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ.... فقص الحديث، فقال: إذا أويتَ إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يَقربك شيطان حتى تُصبح، وقال النبي ﷺ: ((صدقك، وهو كذوب؛ ذاك شيطان))[٤]؛ رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن علي ﷺ أن فاطمة ﷺ شكت ما تلقى من أثر الرَّحا، فأتى النبي ﷺ سبيٌ، فانطلقت فلم تجدْه، فوجدت عائشة فأخبرَتْها، فلما جاء النبي ﷺ، أخبرته عائشة بمَجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذْنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: ((على مكانكما))، فقعَد بيننا، حتى وجدت بردَ قدميه على صدري، وقال: ((ألا أُعلِّمُكما خيرًا مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجِعَكما، تُكبِّرا أربعًا وثلاثين، وتسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، وتَحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم))[٥].

٤) ذكر الله عند الانتباه:

---

[١] "صنفة الإزار - بكسر النون -: طرفه مما يلي طرّته"، "النهاية في غريب الحديث" (ص: ٥٢٨).

[٢] رواه البخاري (٨/ ٧١)، واللفظ له، و مسلم (٤/ ٢٠٨٣).

[٣] رواه البخاري (٥/ ٨٤)و صحيح مسلم (١/ ٥٥٤).

[٤] رواه البخاري (٣/ ١٠١).

[٥] رواه صحيح البخاري (٥/ ١٩)و مسلم (٤/ ٢٠٩١).

فعن عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((مَن تعارَّ من الليل[1]، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قديرٌ، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهمَّ اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن توضَّأ وصلى قُبلتْ صلاته))[2]؛ رواه البخاري.

٥) المبادرة إلى ذكر الله – عز وجل – حين الاستيقاظ، والتأسِّي به ﷺ في هيئة النوم:

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((يَعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يُضرب كل عقدة مكانها، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقَظَ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضَّأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلَّت عُقَدُه كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان))[3]؛.

وفي الصحيحين عن حذيفة ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجَعه مِن الليل، وضع يدَه تحت خدِّه، ثم يقول: ((اللهمَّ باسمك أموتُ وأحيا))،

وإذا استيقظ، قال: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشور))[4].وفي حديث البراء: ((ثم اضجِعْ على شقك الأيمن))[5]؛ رواه الشيخان.

٦) المبادرة إلى التخلُّص من آثار الشيطان بالاستِنثار، وغسل الكفين ثلاثًا:

---

[1] "من تعارَّ من الليل؛ أي: هبَّ من نومه واستيقظ"؛ "النهاية في غريب الحديث" (ص: ١٠٨).

[2] رواه البخاري (٢/ ٥٤) .

[3] رواه البخاري (٢/ ٥٢) ومسلم (١/ ٥٣٨).

[4] رواه البخاري (٨/ ٦٩) ومسلم (٤/ ٢٠٨٣) .

[5] "سبق تخريجه"

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا استيقَظَ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاث مرات؛ فإن الشيطان يبيت على خياشيمه))[1]؛ رواه البخاري ومسلم.

وظاهر هذه الرِّواية أن الأمر بالاستنثار – هنا – غير الأمر بالاستنثار حال الوضوء، وعلى هذا يُشرع الاستنثار ولو لم يَرد وضوءًا، والله أعلم.

وفي الصحيحين عنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا توضأ أحدكم، فليجعل في أنفه، ثم لينثر، ومَن استجمر فليُوتر، وإذا استيقظ أحدكم من نومه، فليغسل يده قبل أن يُدخلها في وَضوئه، فإنَّ أحدكم لا يدري أين باتتْ يده))[2].

٧) ترك المعاصي والآثام:

فعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يزيد في العمر إلا البرُّ، ولا يردُّ القدَرَ إلا الدعاء، وإن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يُصيبه))[3] رواه أحمد، وابن ماجه.

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "مَن أحسن في نهاره كُوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره"[4].

وأخبر – سبحانه – أن مَن اتقاه جعل له مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[5]، وأي رزق أجلُّ من الإعانة على طاعة الله ومرضاته؟!

---

[1] رواه البخاري (٤/ ١٢٦) و مسلم (١/ ٢١٢)

[2] رواه البخاري (١/ ٤٤)ومسلم (١/ ٢٣٣).

[3] رواه أحمد (٣٧/ ٦٨) و ابن ماجه (١/ ٣٥)والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٤٦٥)وقال شعيب الأرنؤوط حسن لغيره دون قوله: "إن الرجل ليُحرم الرزقَ للخطيئة يعملها وقال الشيخ الألباني: "حسن، دون قوله: وإن الرجل..". انظر صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (١/ ١٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4] "البداية والنهاية" (١٤/ ١٤٨) صفة الصفوة (٢/ ٣٨٤) الرسالة القشيرية (١/ ٦١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٤/ ١٣٥).

[5] سورة الطلاق ٢- ٣.

وقال الحسنُ: "إنَّ العبد ليُذنب الذنب؛ فيُحرم به قيام الليل"[١]، وقال الفُضَيل: "إذا لم تَقدر على قيام الليل وصيام النهار؛ فاعلم أنك محرومٌ مكبَّلٌ، كبَّلتْك خطيئتُك"[٢].

٨) التقلُّل من الأكل والشرب:

فإن مَن أثقلَ معدته بالطعام ثَقُل عليه القيام، وهذا أمر معروف، وفي الحديث: ((ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثُلثٌ لشَرابه، وثُلثٌ لنفَسِه))[٣]، وكان بعضهم يقول: مَن أكل كثيرًا، نام كثيرًا، فخسر كثيرًا.

٩) أن يكون همُّ الآخرة هو الغالب على قلبِه:

فإن المستغرق في هُموم الدنيا يصعب عليه القيام، وإن قام كانت صلاته بلا قلب.

يُخبرني البواب أنك نائمٌ *** وأنت إذا استيقظتَ أيضًا فنائمُ[٤]

١٠) التفكُّر في أهوال الآخرة، مع قصر الأمل:

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٥]، قال ذو النون المصري رحمه الله:

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٥) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١/ ٧٦) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٠٤)

(٢) "لطائف المعارف" (ص: ١١٩) صفة الصفوة (١/ ٤٢٩) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٠٤).

(٣) رواه أحمد (٢٨ / ٤٢٢)، والترمذي، واللفظ له، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم: (٢٣٨٠)، وقال: "حسن صحيح"، وصححه الألباني.

(٤) "إحياء علوم الدين" (١ / ٣٦٢).

(٥) سورة الزمر، الآية ٩.

منع القُرانُ بوعده ووعيدِه ***مُقلَ العيون بلَيلِها أن تهجَعا

فَهِموا عن المِلك الجليل كلامه ***فرقابُهم ذلَّت إليه تخضُّعا[١]

وقال ابن المبارك رحمه الله:

إذا ما الليل أظلم كابَدوه ***فيُسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ

أطار الخوف نومَهم فقاموا ***وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ

لهم تحت الظلام وهم سُجود ***أنينٌ منه تَنفرِج الضلوعُ

وخرسٌ بالنهار لطُول صمتٍ ***عليهم مِن سكينتهم خشوعُ[٢]

١١) معرفة فضل قيام الليل:

فإنَّ ذلك يُعينه على القيام، ويُهيِّجه على اللحاق بركب الصالحين وأولياء الله المتقين، لا سيَّما في زمن الفتن والهرج، وانشغال الناس عن العبادة؛ فعن معقل بن يسار ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((العبادة في الهرج[٣] كهجرة إليَّ)) [٤]؛ رواه مسلم،

وعند أحمد عنه ﷺ: ((العبادة في الفتنة كالهجرة إليَّ)) [٥].

قال الإمام النووي رحمه الله: "وسبب كثرة فضْل العبادة فيه أن الناس يَغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرَّغ لها إلا أفراد"[٦].

---

[١] " لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٧٣) إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٧)عدة المريد الصادق (ص: ٢٧٧)

[٢] " إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٧)"، وينظر: "ديوان عبدالله بن المبارك" (ص: ١٤).

[٣] قال الإمام النووي رحمه الله: "المراد بالهرج - هنا - الفتنة واختلاط أمور الناس"، "شرح مسلم" (١٨ / ٨٨).

[٤] رواه مسلم (٤/ ٢٢٦٨) .

[٥] رواه أحمد (٣٣/ ٤٢٥).

[٦] "شرح مسلم" (١٨ / ٨٨).

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب جملةً صالحة من هذه الفضائل فلتُراجع هناك.

١٢) تحقيق محبة الله جل وعلا:

فإن العبد إذا أحب الله سبحانه وتعالى، أحبَّ الخلوة به، والتنعُّم بمناجاته ولذيذ خطابه، وأحوال المحبين في هذا المقام كثيرة مشهورة، قال علي بن بكار رحمه الله: "منذ أربعين سنة، ما أحزنَني شيء سوى طلوع الفجر[١].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "إذا غربت الشمس، فرحتُ بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليَّ"[٢].

وقال أبو سليمان الداراني: "أهل الليل في ليلهم ألذُّ مِن أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء في الدنيا".

وقال بعض العلماء: "ليس في الدنيا وقتٌ يُشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يَجده أهل التملُّق في قلوبهم بالليل مِن حلاوة المناجاة".

وقال بعضهم: "لذَّة المناجاة ليست من الدنيا، إنما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه، ولا يَجدُها سواهم"؛ ا. هـ[٣].

١٣) الدعاء والتضرع إلى الله:

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) "انظر إحياء علوم الدين" (١ / ٣٦٣ - ٣٦٤).

وهو مِن أجلِّ الأسباب المعينة على قيام الليل، فإن الدعاء يُزيل من قلب العبد آفة الركون إلى نفسه، أو عمله، أو حاله، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه عز وجل مِن العجز والكسل؛ فإنهما "مفتاح كل شر، ويَصدُر عنهما الهم والحزَن، والجبْن والبُخل، وضلَع الدَّين، وغلَبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل"[١].

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبْن والهرم، والبُخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومِن فتنة المحيا والممات"[٢].

فلا أحد يَستغني عن ربه عز وجل مهما بلغ من العبادة، ولهذا كان نبيُّنا ﷺ يقول في دعائه: "اللهمَّ مُصرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا على طاعتك"[٣].

وليحذر العبد من الأماني الفارغة فإنها: "أضرُّ شيء على الإنسان، وتتولَّد من العجز والكسل، وتُولِّد التفريط والحسرة والندم، والمتمني لما فاته مباشرة الحقيقة بحسِّه نحَتَ صورتها في قلبه، وعانَقَها وضمَّها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صوَّرها فكره، وذلك لا يُجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يُصوِّر في وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب، والسكون إلى ذلك واستحلاؤه يدل على خساسة النفس ووضاعتها"[٤].

---

[١] "زاد المعاد" (٢ / ٣٢٦).

[٢] رواه البخاري (٤/ ٢٣) ومسلم (٤/ ٢٠٧٩)

[٣] رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٥) .

[٤] "الداء والدواء" (ص: ٣٥٤ - ٣٥٥)

لماذا تزكية النفس

إنَّ أهم ما ينبغي للناس أن يتعاهدوه تزكية نفوسهم، ولا سيما في هذه الأزمان المتأخرة التي استحكمت فيها الشهوات، وارتطمت فيها أمواج الفتن والشبهات، والتي لم يسلم منها إلا من عصمه الله جل وعلا.

والمراد بتزكية النفس في الشرع هو: تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حديثه عن أمراض القلوب وشفائها "وَالزَّكَاةُ فِي اللُّغَةِ: النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ فِي الصَّلَاحِ . يُقَالُ: زَكَا الشَّيْءُ إذَا نَمَا فِي الصَّلَاحِ، فَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَرَبَّى فَيَنْمُو وَيَزِيدُ حَتَّى يَكْمُلَ وَيَصْلُحَ كَمَا يَحْتَاجُ الْبَدَنُ أَنْ يُرَبَّى بِالْأَغْذِيَةِ الْمُصْلِحَةِ لَهُ وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مَنْعِ مَا يَضُرُّهُ؛ فَلَا يَنْمُو الْبَدَنُ إلَّا بِإِعْطَاءِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَزْكُو فَيَنْمُو وَيَتِمُّ صَلَاحُهُ إلَّا بِحُصُولِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ وَكَذَلِكَ الزَّرْعُ لَا يَزْكُو إلَّا بِهَذَا"[1]

وقد ثبت في تفسير التزكية عن عبد الله بن معاوية الغاضِري أن رسول الله قال "ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ [2]..." وزاد في رواية "وَزَكَّى نَفْسَهُ"، فقال رجل: وما تزكية النفس؟، فقال "أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ[3]"

---

(1) أمراض القلوب وشفاؤها (ص: ٥)و مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٦).

(2) رواه أبو داود (٢/ ١٠٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٤).

(3) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٩)و صححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٤).

لا بدَّ من العلم أن تزكية النفوس لا سبيل إليها إلا عن طريق الشرع المطهَّر باتباع ما جاءت به الرسل عن ربِّ العالمين جلَّ وعلا.

قال ابن القيم: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ..

قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! .. فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان[1]"

(1) مدارج السالكين (2/ 300).

بعض أسرار العبادات

١)سر التوحيد في تزكية النفس

التوحيد .. وقد سماه الله تعالى زكاة في قوله تعالى {.. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) }[١]

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي – وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة – فإنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح، هو: التوحيد[٢].

كما سمى الله تعالى الشرك رجسًا ووسمه بالنجاسة، قال تعالى {.. فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ..}[٣]، وقال {..إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ..}[٤]

فدل مفهوم الآيتين على أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله جلَّ وعلا،،

٢)سر الصلاة في تزكية النفس

الصلاة .. وهي من أعظم ما تزكو به النفوس؛ ولذلك قرن الله تعالى بينها وبين التزكية

---

(١) سورة فصلت ، الآيات ٦- ٧ .

(٢) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٩) .

(٣) سورة الحج ، الآية ٣٠ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .

في قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) } [١] ،وقد شبه النبي تطهير الصلاة للنفوس بتطهير الماء للأبدان فعن أبي هريرة مرفوعًا "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟"، قالوا: لا، يبقى من درنه شيء، قال "فَذَلِكَ مَثل الصَّلَوَات الخَمْس يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا"[٢] [متفق عليه].

٣)سر الصدقة في تزكية النفس

الصدقة .. قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا..}[٣]

قال الشيخ السعدي "وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهَّر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها"[٤]

---

(١) سورة الأعلى ، الآيات ١٤-١٥ .

(٢) رواه البخاري (١/ ١١٢)و مسلم (١/ ٤٦٢) .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ .

(٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥١) .

أثر النوافل في تزكية النفس

عندما يبادر العبد إلى الإكثار من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر وحضور القلب، فإن ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمة في تزكية النفس وترقيتها في مقامات الكمال.

وتلك آثار النوافل في تزكية النفس.

١ – المناجاة بين العبد وربه، والتحقق بمقام العبودية:

أعظم ما يظفر به العبد من آثار الذكر والدعاء والتلاوة أنه يُناجي ربه ويزداد منه تقربا ويتحقق بمقام العبودية الحقة التي تُعلي قدر صاحبها وتجعله في معية الله.

وهذا مصداق قول الحق سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[٢] .

قال الحافظ الشوكاني رحمه الله:" قوله" وأنا معه حين يذكرني" فيه تصريح بأن الله سبحانه وتعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليهم برحمته، ويمدهم بتوفيقه وتسديده، فإن قلت: هو مع جميع عباده،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦١).

كما قال سبحانه: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}[1]، قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص، بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الإكرام له والتفضل عليه ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين وكونه مع الذين اتقوا"[2].

ومن أعظم أنواع الذكر تلاوة القرآن الكريم، فمن أراد أن يناجي ربه فليقرأ القرآن، فهو كلام الله سبحانه، وكلما عظمت محبة الله في قلبك كان إقبالك على تلاوة كتابه أعظم، مع استحضار الخشية منه سبحانه، وتدبر القرآن للتحقق بالعبودية الصادقة والإيمان الكامل.

وأما الدعاء فهو من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله سبحانه، ولهذا أمر الله به وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء وكأنه مستغن عن ربه.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[3].

قال الحافظ ابن كثير:" يستكبرون عن عبادتي، أي: عن دعائي وتوحيدي"[4]

ولذلك ورد في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:" الدعاء هو العبادة"[5].

فما أعظم النعمة التي أكرمنا الله بها، وهي التقرب إليه ومناجاته بالدعاء، فالعبد مفتقر إلى مولاه الذي خلقه ورزقه وأغدق عليه النعم، ثم أمره أن يدعوه ويسأله المزيد من كل خير ووعده بالإجابة، وجعل هذا الدعاء الذي هو

---

(1) سورة الحديد ، الآية ٤ .

(2) تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني (١١).

(3) سورة غافر ، الآية ٦٠ .

(4) تفسير ابن كثير (٤/٨٦).

(5) رواه أبو داود (٢/ ٧٦) والترمذي (٥/ ٦١)وقال حديث حسن صحيح وأحمد (٣٠/ ٢٩٨) و ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)والحاكم في المستدرك(١/ ٤٩٠)،وو افقه الذهبي. وصححه الالباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٤١) .

لمصلحة العبد، عبادة يثيبه عليها، فكيف يترك العبد سؤال ربه وهو مالك الملك، ويسأل العباد وهم لا يملكون له نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله؟!

وما أحسن قول الشاعر:

لا تسألن بني آدم حاجة ***وسل الذي أبوابه لا توصد

الله يغضب إن تركت سؤاله***وبني آدم حين يسأل يغضب

فليستحضر المسلم عظمة مناجاته لربه وهو يدعوه ويرجوه ويتذلل بين يديه، فيجد لذة المناجاة وحلاوة الطاعة، وبخاصة في ساعات الليل الأخيرة التي يأنس بها العباد الصادقون في تقربهم لربه وخشوعهم بين يديه.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له"[1].وفي رواية:" من يقرض غير عديم[2] ولا ظلوم"[3].

وهذا غاية التفضل منه سبحانه على عباده والمؤانسة لهم، فهو سبحانه خالق الخلق وموفقهم إلى طاعته، ومع ذلك سمى طاعة العبد لمولاه قرضا، والله غني عن العالمين لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، ولكنه يدعونا لاغتنام تلك الساعات في جوف الليل لندعوه ونناجيه ونزكي أنفسنا بالتقرب منه، ونتحقق بمقام العبودية الصادقة لله عز وجل.

---

[1] رواه البخاري (١٤٩/٧). ومسلم (١/ ٥٢١)

[2] عديم: من قولهم أعدم الرجل إذا افتقر فهو معدم وعديم (شرح النووي على مسلم(٣٨/٦).

[3] رواه مسلم رقم(٧٥٨).

ولذلك روى مسلم عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، وفي رواية: حتى ورمت قدماه، قالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا"[1].

٢-غذاء القلب وزيادة الإيمان:

وصف الله عباده المؤمنين بأوصاف كثيرة في تأثرهم بالذكر وتلاوة القرآن الكريم وسماعه، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[2].

وقوله سبحانه: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[3].

ولذلك كان الصحابة ﵃ يجتمعون على ذكر الله وتلاوة القرآن ليزدادوا إيمانا وخشية من الله سبحانه وينوروا قلوبهم بذكره وشكره، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، من أبرزها:

عن معاوية ﵁ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك.قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبرائيل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة"[4].

وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول لأبي موسى الأشعري ﵁: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ ويسمعون ويبكون[1].

---

[1] رواه مسلم (٤/ ٢١٧٢)

[2] سورة الأنفال الآية ٢ ،

[3] سورة التوبة ، الآية ١٢٤ .

[4] رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :" ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف، والأحوال الجسيمة، مما لا يتسع ل خطاب ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان"[٢].

ولا شك أن القرآن منهج لتربية النفس وتوجيهها إلى طريق سعادتها وهدايتها، وقد قال المولى سبحانه: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }[٣].

فلقد قرر القرآن الكريم عقيدة التوحيد ورسخ مفهومها في النفس، وحدد معالم الحلال والحرام، وسلك في التربية أساليب متنوعة من الترغيب والترهيب والوعظ والتذكير، والتربية من خلال الأحداث والوقائع، كما دعا إلى تقويم النفوس واستقامة السلوك بما حفلت به آياته من مشاهد القيامة وقصص الأنبياء السابقين.

قال الإمام الآجري رحمه الله:" المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذره مولاه حذره، وما خوفه من عقابه خافه، وما رغب فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته"[٤].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:" ليس كل شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما، وعلى وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة

---

[١] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٥٨) ابن حبان (١٦/ ١٦٩)وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٢/ ٤٨٦).

[٢] مجموع الفتاوى (١٠/٨١).

[٣] سورة الإسراء ، الآيات ٩- ١٠ .

[٤] أخلاق حملة القرآن للآجري (٣٩).

والجنة والنهار في قلبه، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وبالجملة تعرف الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب"[١]

وكذلك الذكر والدعاء وقيام الليل يغذي القلب ويزيد الإيمان ويوجه النفس إلى ما فيه صلاحها، وكثيرا ما تجد أناسا شغلوا بالدنيا وغفلوا عن ربهم ونسوا ذكره، وإذا بهم تهتز أعماق قلوبهم وتنفت أقفالها بسماع دعاء خاشع، أو صلاة ركعتين في جوف الليل، أو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى، فتزول عن القلب غشاوته، ويحيا من غفلته.

وقد أرشد الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال:" من تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن" يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت" أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدا، وقال لي يوما: لهذين الإسمين وهما: الحي القيوم، تأثير عظيم في حياة القلب"[٢].

٣-شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها:

من أبرز آثار الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم أنها شفاء للنفس من أمراضها، وبخاصة تلك الأمراض التي أصبحت داء العصر في أيامنا، وحيرت الأطباء وعلماء النفس في كثرتها وانتشارها، ألا وهي أمراض القلق والكآبة والاضطراب العصبي والكبت ونحو ذلك، فالمؤمن يجد شفاءه وطمأنينة نفسه وهدوء أعصابه بالتوجه إلى خالقه يذكره ويدعوه ويتلو آيات كتابه الكريم. قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[٣].

---

[١] مدارج السالكين (١/٤٥١-٤٥٢).

[٢] مدارج السالكين (١/٤٤٨).

[٣] سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .

وكما أن ذكر الله وتلاوة القرآن شفاء للنفس من القلق والكآبة، فهو أيضا شفاء للقلب من أمراض الشبهات والشهوات التي إذا ملأت القلب أظلمته وأفسدته، فإذا تغذى القلب بالذكر والقرآن عاد إلى صفائه ونقائه.

وقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال:" عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء"[1].

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:" القرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن"[2].

ولعل هذا المعنى الذي أشار إليه الإمام ابن تيمية وهو حاجة القلب إلى غذاء دائم بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن، ليكون ذلك تحصينا له من الأمراض والآفات، هو أحد الحِكم من التأكيد الذي ورد في الكتاب والسنة على الإكثار من الذكر والدعاء، وما يستحب للمسلم أن يداوم عليه من الأدعية والأذكار المأثورة في الصباح والمساء، وعند دخول المنزل أو الخروج منه، وعند دخول السوق أو الأكل أو اللبس، وغير ذلك من أعمال المسلم اليومية، حتى يبقى القلب في وقاية دائمة من كل مرض، فإذا أصيب بمرض عارض كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفوس.

ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة دعاء الكرب الذي ورد فيه أحاديث عديدة منها:

---

[1] الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠١).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٩٥-٩٦).

ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب وفي رواية: كان إذا حزبه أمر، قال:" لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش"[١].

فالمسلم يلجأ إلى الله سبحانه وقت الضيق ليجد المأمن والسكينة، فلا يفزع ولا يقلق وهو موقن بأن الله معه، وأنه ناصره ومؤيده، وأن يجيب دعاء المضطرين. قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }[٢] .

ولا شك أن أعظم ما يورث السكينة في النفس ويغسل صدأ القلب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتدبره والكر وطلب العلم وبخاصة في المساجد، وقد ورد في فضل ذلك أحاديث عديدة منها:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"[٣].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:" لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده"[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:" إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك.

---

[١] رواه البخاري(١٥٤/٧) ومسلم (٢٠٩٢/٤) .

[٢] سورة النمل ، الآية ٦٢ .

[٣] رواه مسلم (٢٠٧٤/٤) .

[٤] رواه مسلم (٢٠٧٤/٤) .

قال: وماذا يسألوني؟ قال: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب! قال: فيكف لو رأوا جنتي؟قالوا ويستجيرونك، قل: ومم يستجرونني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال، وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟قالوا: ويستغفرونك، قال فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال فيقولون: رب! فيهم فلان عبد خطَّاء، إنا مر فجلس معهم، قال فيقول، وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"[1].

فأي بشارة أعظم من ذلك، وأي فضل أكبر من هذا الفضل الذي يكرم الله به عباده الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة، فلا يبقى لأمراض النفس أي سبيل أو مدخل، ولا يتمكن الشيطان من بث سمومه ووساوسه في ذلك القلب المنور بالإيمان ولذلك قال الله تعالى مخبرا عن حمايته لعباده الصالحين من تسلط الشياطين: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[2] .

---

[1] رواه البخاري (٨/ ٨٧) ومسلم (٤/ ٢٠٦٩)واللفظ له .

[2] سورة الحجر ، الآية ٤٢.

ماذا تعنى تزكية النفس؟

تزكية النفس تعني التَّطهُّر والابتعاد عن الذنوب، سواء الكبائر، أو الصَّغائر، وتتمثَّل أهمية تزكية النفس في نيل رضا المولى – عزَّ وجلَّ – والفلاح في الدنيا والآخرة، والتَّحلِّي بالصفات والأخلاق الحميدة في حد ذاته يُشعر الإنسان بسعادةٍ غامرةٍ، كما أن ذلك له تأثير سحري في التعامل المجتمعي بين بني البشر، ويجعل الجميع في وئام وسلام، وبعيدًا عن التَّشاحُن والبغضاء والكراهية.

مـــا حُكم تزكية النفس؟

أجمع فقهاء وعُلماء الأمة الإسلامية على أن تزكية النفس فرض عين على كل مُسلم ومُسلمة، فهي تطهير لما يُصيب النفس البشرية من شرور ومُعاصٍ.

السعادة في التزكية:

إن من أعظم فوائد التزكية وعواقبها على أصحابها أنها تهبهم سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، قال ابن الجوزي: من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال: قال تعالى: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)[1]،[2]

اجمل ما قيل عن تزكية النفس؟

([1]) سورة الجن ، الآية ١٦ .

([2])صيد الخاطر (ص: ٣١) .

وقال الداراني: "من صفى صفي له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله[1].

وكان بعض المشايخ يدور على المجالس يقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله [2].

أخبرنا الحقُّ سبحانه عن طبيعة النفس فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[3]، وأن الفلاح في تزكيتها، فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [4].

وموضوع تزكية النفس موضوعٌ عريض، وقد كتب فيه العلماءُ الكثيرَ الطيب، ومما ينفع في هذا الباب التوجُّه إلى الله سبحانه، والاستعانة به في تزكية النفس وصلاح القلب.

وقد لاحظت اهتمام كثيرٍ من الناس بالاستعاذة من شرور الآخرين، وهذا حقٌّ، فقد علَّمنا الحقُّ سبحانه أن نستعيذ من خمسةِ شرور في سورتي المعوذتين، هي:

١- شر المخلوقات كلِّها.

٢- والشرور التي تحدثُ في الليل عندما يُقبِل بظلامه.

٣- وشر النفوس الخبيثة من السواحر.

٤- وشر الحاسدين الذين يتمنَّون زوالَ النِّعم عن أصحابها.

٥- وشرِّ شياطين الجن والإنس.

---

(١) انظر ذم الهوى (ص: ١٨٥) وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٤)و صيد الخاطر (ص: ٣١) .

(٢) صيد الخاطر (ص: ٣١) .

(٣) سورة الشمس، الآيات ٧- ٨ .

(٤) سورة الشمس ، الآيات ٩- ١٠ .

ولكن بعض الناس ربما لا يعلمون خطورة شرِّ النفس، وأثر ذلك على دينه ودنياه.

وقد ورَد أن النبي ﷺ قد خص النفس بدعوات مباركة لإصلاحها وتزكيتها، والاستعاذة بالله سبحانه من شرورها.

اثر العلم في تزكية النفس

كي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس، لابد من أن يتحقق فيه شرطان:

- أن يصحبه العمل الصالح مع الإخلاص لله سبحانه والتزام الآداب المطلوبة للعالم والمتعلم.
- أن يتجنب المسلم المراء والخصام في مسائل العلم.

ولنبدأ بالشرط الأول: العلم والعمل

العلم النافع هو العلم الذي يتبعه العمل ويلتزم صاحبه بالخلق الفاضل والآداب الكامل والاعتصام بالكتاب والسنة وإخلاص القصد لله سبحانه، وبذلك يثمر ثمراته المرجوة في تزكية النفس.

ولقد حذرنا الله سبحانه من العلم الذي لا يصاحبه العمل، ومن القول الذي لا يتبعه الفعل، فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}[١] . وقال سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٢]، كما بين الرسول ﷺ أن العالم سيسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل فيه وهل أثمر عنده الخشية من الله والتقرب إليه بالعمل الصالح أم اتخذه وسيلة للتظاهر والتباهي أمام الناس؟

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة

---

(١) سورة الصف ، الآيات ٢-٣.

(٢) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)[1] .

وروى مسلم عن أسامة بن زيد ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)[2].

وهذه عقوبة من لا يعمل بما آتاه الله من علم، ولا ينتفع به، وإنما يكتفي بأمر الناس ونهيهم، ويترك نفسه لتناسق وراء المعاصي في غفلة عن أعين الناس، ولكن الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية، والذي ستره في الدنيا حتى ظن الناس به الصلاح، يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

ولذلك كان الصحابة ﷺ مع تقواهم وتمسكهم بالكتاب والسنة يخشون هذا الموقف العصيب يوم القيامة.

فعن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: (إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أو جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله عز وجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة هل ازدجرت، فأعوذ بالله من علم لا ينفع)[3].

وعنه ﷺ أنه قال: (لا تكون عالمِا حتى تكون بالعلم عاملًا)[4].

ولقد كان الرسول ﷺ يسأل ربه العلم النافع ويتعوذ به من العلم الذي لا ينفع.

---

[1] رواه الترمذي (٤/ ٦١٢) وقال حديث حسن صحيح والدارمي (١/ ٤٥٣)وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٢) .

[2] رواه البخاري (٩/ ٥٥)مسلم (٤/ ٢٢٩٠) واللفظ له .

[3] جامع بيان العلم وفضله، للإمام ابن عبد البر، ص٣/٢.

[4] أخلاق العلماء، للإمام الأجري، ص ٥٧.

روى مسلم عن زيد بن أرقم ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)[١].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (من فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالًا وحجة عليه، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طالبًا، ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه)[٢].

ولقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على العلم النافع الذي يزكي النفس، وبذلك تخرج من مدرسة النبوة هذا الجيل القرآني الفذ الذي حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق، وتسلم وراثة النبوة ليسلمها لمن بعده بأمانة وإخلاص، وتعاقبت الأجيال الفاضلة التي تتلقى العلم للعمل وتتأدب العلم وتتحلى بفضائله.

روى الخطيب البغدادي عن مالك بن انس قال: قال ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم"[٣].

وعن مالك أيضًا عن ابن شهاب أنه قال: (إن هذا العلم أدب الله الذي أدب به نبيه ﷺ، وأدب النبي ﷺ أمته، أمانة الله إلى رسوله، ليؤديه على ما أدى إليه، فمن سمع علمًا فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل)[٤].

وعن إبراهيم بن حبيب قال: قال لي أبي: (يا بني إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلى لك من كثير من الحديث)[٥].

---

[١] رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨)

[٢] فضل علم السلف على الخلف، للإمام ابن رجب الحنبلي، ص ١٢٢

[٣] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للإمام الخطيب البغدادي، ص٧٩/١.

[٤] المرجع السابق

[٥] المرجع السابق، ص ٨٠/١

ولذلك كانت العلامة التي يتميز بها أهل العلم النافع أنهم يتواضعون ولا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا ويكرهون المدح وثناء الناس عليهم، ولا يتكبرون على أحد، وتراهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، يواظبون على عبادة ربهم، وكلما ازدادوا علمًا ازدادوا تواضعًا لله وخشية وانكسارًا وذلًا له سبحانه[1].

وقد حدد الإمام الشاطبي رحمه الله شروط العالم المتحقق بالعلم، وهي ثلاثة:

- العلم بما علم حتى يكون قوله مطابقًا لفعله.
- أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم.
- الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بآدابه فلما تركت هذه الأوصاف رفعت البدع رؤوسها وحل اتباع الهوى محل الاقتداء[2].

المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم:

الشرط الثاني الذي لابد من تحققه لكي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس وترقية حالها هو تجنب الخصام والمراء والجدال في مسائل العلم.

والدليل على ذلك ما رواه أصحاب السنن، عن أبي أمامه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ: {وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[3]،[4]

---

[1] فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلي، ص ١٢٨- ١٢٩.

[2] الموافقات للإمام الشاطبي، ص١/٥٤- ٥٥.

[3] سورة الزخرف ، الآية ٥٨ .

[4] رواه الترمذي (٥/ ٣٧٩)وأحمد (٣٦/ ٤٩٣)والحاكم (٢/ ٤٨٦)و البيهقي في شعب الإيمان (١١/ ١٩)وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٦٣).

وقال بعض السلف: (إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل)[١].

وقال مالك رحمه الله: (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم)[٢].

وقال أيضاً : (المراء في العلم يقسي القلب)[٣].

وسمع الحسن البصري قومًا يتجادلون فقال: (هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا)[٤].

وقال مُحَمَّد بن جعفر الصادق: (إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق)[٥].

وقد علق الإمام ابن رجب الحنبلي بعد أن أورد هذه الأقوال عن علماء السلف، فقال: (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض... فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به الحق ويميز به بينه وبين الباطل)[٦].

---

[١] فضل علم السلف على الخلف، (ص ٨٦) وقوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١/ ٢٣٩) وطبقات الحنابلة (١/ ٣٨٤).

[٢] ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٢/ ٣٩) .

[٣] الاعتقاد للبيهقي (ص: ٢٣٩) شعب الإيمان (١١/ ٤١) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٣٠) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٤، بترقيم الشاملة آليا).

[٤] الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٢٠) وبيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٤، بترقيم الشاملة آليا) وحلية طالب العلم (ص: ٢٠٢)

[٥] جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٣٢)و الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٢٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٥، بترقيم الشاملة آليا).

[٦] بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٥، بترقيم الشاملة آليا)

ثم قال: (وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين)[1].

وبعد هذا البيان لضرورة البعد عن الجدال والمراء في مسائل العلم وضع لنا الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله ضوابط للعلم النافع البعيد عن الجدل والخصام فقال: (العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل)[2].

ولا شك أن هذا التحديد يشمل كل علم نافع يسير في ركاب الكتاب والسنة ويلتزم بمنهج السلف الصالح ويحذر صاحبه غرور النفس وهواها.

---

[1] المرجع السابق.

[2] فضل علم السلف على الخلف، ص ٦

اثر الصيام في تزكية النفس

أثر الصوم في حفظ النفس

الصوم ركن من أركان الإسلام الخمسة، وعبادة من عباداته الأساسية التي يقوم عليها بنائه، وشعيرة من شعائره التي تثبت هويته الإسلامية.

والعبادات في الاسلام شرعت لتهذيب الأنفس وترتيبها على الطاعة والاستقامة، وجلب المصالح لها، ودفع المفاسد عنها، وفي ذلك كله حفظ لها في العاجل والآجل، وصيانة لها في المعاش والمعاد، وفي الحال والمآل، والصوم واحد من العبادات يحصل به حفظ الأنفس فيما ذكر، حفظا صحيا وحفظا معنويا.

كيف يؤثر الصيام في سلوك المسلم؟ تتجلّى آثار فريضة الصيام في سلوك المسلم في العديد من الأمور، وفيما يأتي بيان البعض منها: زيادة التقوى في القلوب، وتجديد الإيمان فيها قال الله -تعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1]

فللصيام أثرٌ واضحٌ في وقاية المسلم من الوقوع في الشهوات، أو اقتراف الذنوب والمعاصي؛ إذ يمتنع العبد من الوقوع فيما يُغضب الله -تعالى-، ويُلزم الطاعات، والأعمال الصالحة؛ ولذلك كان الأجر المترتّب على الصيام مختلفاً عن الأُجور المترتّبة على باقي الأعمال، قال النبيّ -عليه الصلاة والسلام- فيما يرويه عن ربّه -عزّ وجلّ-: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له إلَّا الصَّوْمَ، فإنَّه لي وأنا أجْزِي به، ولَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِن رِيحِ المِسْكِ[2] .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٨٣ .

(2) رواه البخاري (٧/ ١٦٤) .

وقد اختصّ الله الصيامَ بالأجر العظيم؛ بسبب ما ينطوي عليه من الإخلاص؛ إذ إنّ نيّته مَخفيّةٌ فيما بين العبد وربّه؛ لتدلّ على حقيقة ومنزلة إيمان المسلم وتقواه، ويُراد بالتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين الوقوع في غضب الله حاجزاً يمنعه من الوقوع فيه، بالرضا التامّ عن كلّ ما أمر به الله –سبحانه–، وأداء تلك الأوامر بقناعةٍ، واجتناب المحرّمات والنواهي جميعها .

استشعار مراقبة الله في السرّ والعلن الصيام يُقوّي العلاقة الروحيّة بين العبد وربّه؛ فيستشعر مراقبته –سبحانه– في الأحوال جميعها، فيبتعد عن كل ما يغضب الله، ويقترب من كل ما يرضيه –سبحانه–.

التربية على تحقيق التوازن والاعتدال في حياته الصيام يُهذّب النفس الإنسانيّة؛ إذ إنّ الإفطار والإمساك مُحدّدان بموعدٍ مُعيّنٍ، وبذلك تعتاد النفس على القناعة، وتنظيم قضاء شهوة الطعام، وفي ذلك اقتداءٌ بالنبيّ –عليه الصلاة والسلام–؛ إذ كان يبيت الليالي لا يأكل شيئاً، كما روى عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما–: (كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَبيتُ اللَّيالي المتتابعةَ طاويًا وأَهلُهُ لا يجدونَ عَشاءً وَكانَ أَكثرُ خبزِهم خبزَ الشَّعيرِ)[1].

إدراك النِّعم الكثيرة على العباد المسلم يُدرك قيمة النِّعم التي منحه إيّاها الله بشكلٍ أكبرٍ إن فقدها؛ ولذلك فإنّ الصائم يستشعر فضل الله عليه، بنِعَم الطعام، والشراب، والنِّكاح؛ بسبب امتناعه عنها مُؤقّتاً، ممّا يُعزّز في النفس الإنسانيّة الإحساس بحاجات الفقراء والمساكين، وغيرهم من المحتاجين

تربية النفس على لزوم الصدق في القول والعمل ذلك من خلال لزوم الحقّ والصواب، والوفاء بعهد النفس على الطاعة والعمل، وموافقة الظاهر للباطن، بعيداً عن الكذب، والنفاق، فتتعزّز الأخلاق العظيمة في النفس أيضاً؛ بإدراك الأجر المترتّب على الصيام، والحرص على عدم ضياعها؛ بالزور، أو الكذب، فيحمل المسلم نفسه بذلك

(1) رواه الترمذي (٤/ ٥٨٠) وابن ماجه (٢/ ١١١١) وأحمد (٤/ ١٥٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٨١) .

على لزوم الصدق، والطاعة في صيامه؛ ليضمن بذلك تحقيق الأجر المترتّب عليه، وفي ذلك أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أنّ النبيّ -عليه الصلاة والسلام- قال: (مَن لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ)[1]، وتحقُّق الصدق في النفس الإنسانيّة يؤدّي إلى لزوم معالي الأمور ومحاسنها، واجتناب سفاسف الأعمال

تحرّي الدقّة والحقيقة في الأمور كلّها سواءً كانت قوليةً، أو عمليّةً؛ فالصيام يمنع ارتكاب أيّ عملٍ ينافي الصدق في الأمور، أو يخالفه، وبالتالي ينال المسلم محبّة الله -سبحانه-، والقُرب منه، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنهما-، عن النبيّ -عليه الصلاة والسلام-: (إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا)[2].

الصيام في تربية شخصيّة المسلم يُحدث الصيام أثراً كبيراً في شخصيّة المسلم، ويُذكَر من ذلك:

تقوية إرادة المسلم إذ يُعلّمه الصيام القدرة على ضبط نفسه، ومقاومة رغباتها، كما يسمو بالنفس الإنسانيّة من الناحية الخُلُقيّة؛ لينال بذلك مرتبة الصائم القائم، قال النبيّ -عليه الصلاة والسلام-: (إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصَّائمِ القائمِ)[3].

تربية النفس على خُلق الصبر المتضمِّن للصبر على طاعة الله يكون ذلك بحبس النفس، ومنعها من الطعام، والشراب، وغيرهما من الشهوات؛ لتحقيق مرضاة الله -سبحانه-، كما أنّ في الصيام صبرٌ عن الشهوات والمعاصي؛

---

(1) رواه البخاري (٣/ ٢٦).

(2) رواه البخاري (٨/ ٢٥)ومسلم (٤/ ٢٠١٢).

(3) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٩١).

وبهذا يحقّق الصائم الممتنِع عن المعاصي لذّة الصبر عمّا حرّمه الله، بالإضافة إلى الصبر على ما قدّره الله؛ بما يكون من الصبر على الجوع، والعطش.

تعويد النفس الإنسانيّة على شُكر الله وحمده الصوم وسيلة إلى شكر النعم؛ لأن كفّ النفس عن الأكل، والشرب، وسائر المفطرات من أجلِّ النعم وأعلاها؛ لأن الامتناع عن هذه النعم زماناً معتبراً يُعرِّفُ قدرها؛ لأن النعم مجهولة، فإذا فقدت عُرفت، فيحمل ذلك على القيام بشكر الله تعالى؛ ولهذا إذا أفطر الصائم وجد لذة عظيمة للشراب البارد على الظمأ، وكذلك الطعام، فيحمله ذلك على شكر الله -عز وجل-، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك أثناء الكلام عن الصيام قال الله تعالى:(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون)[1].

أثر الصيام في المجتمع تربية المجتمع المسلم على التكافل الاجتماعي ذلك اقتداءً بالنبيّ -عليه الصلاة والسلام-؛ إذ كان كثير العطاء والسخاء في شهر رمضان، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عبّاس -رضي الله عنهما-: (كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بالخَيْرِ، وَكانَ أَجْوَدَ ما يَكونُ في شَهْرِ رَمَضَانَ)[2] فيُضاعَف أجر المسلم في رمضان بخِلاف غيره من الشهور، كما ضرب السلف الصالح -رضي الله عنهم- أروع الأمثلة في صنائع المعروف في شهر رمضان؛ فرُوِي عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- أنّه كان يضع الطعام بين يديه للإفطار بعد الصيام، فيدخل عليه السائل، فيُقدّم له طعامه، وكان التابعيّ الحسن البصريّ يُعِدّ الولائم للفقراء، والمساكين، واليتامى في

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

(2) رواه مسلم (٤/ ١٨٠٣) .

رمضان؛ عملاً بقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: (مَن فطَّرَ صائمًا كانَ لَهُ مثلُ أجرِهِ، غيرَ أنَّهُ لا ينقُصُ من أجرِ الصَّائمِ شيئًا)[1].

ومن شأن اجتماع المسلمين مع بعضهم على موائد الإفطار تعزيز الروابط فيما بينهم، والتأليف بين قلوبهم؛ فتقوى نفوسهم على الطاعة والعمل، إضافة إلى أنّ شهر رمضان فرصةٌ عظيمةٌ لسَدّ حاجات الفقراء والمحتاجين؛ التماساً للأجر والثواب من الله -سبحانه-، فيصل المسلمون إلى مرتبة الإحسان الذي يُعدّ أعلى مراتب الإيمان، وبالتالي نَيل مَحبّة الله -سبحانه- القائل: (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[2].

تعزيز الوحدة بين مستويات المجتمع المسلم إذ تتجلّى في شهر رمضان الوحدة والأُخوّة في أسمى معانيها وصُورها؛ فالمسلمون على اختلاف أجناسهم، ومراتبهم، ولُغاتهم يصومون في وقتٍ واحدٍ، ويفطرون في وقتٍ واحدٍ، لا فرق في ذلك بين غنيٍّ وفقيرٍ، أو ذكرٍ وأنثى، كما تظهر معاني وحدة المسلمين في وقوفهم صفّاً واحداً للصلاة، على اختلاف مستوياتهم، ومكانتهم. تحقيق المساواة بين جميع أفراد المجتمع، ومنع الاختلاف بينهم الصوم عامل مهم وفعال فى الارتقاء بمستوى الافراد والمجتمعات علي كافة الاصعدة الروحية والنفسية والتربوية والاجتماعية والصحية والامنية وهو يحقق للجميع مزيدا من الرقي والسمو المادي والمعنوي، وبهذا الأثر تزداد روابط الأخوة ويتحقق معنى حديث النبيّ -عليه الصلاة والسلام-: (تَرَى المؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)[3]

---

(1) رواه الترمذي (٣/ ١٦٢)والنسائي (٣/ ٣٧٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٩٥) .

(2) سورة ال عمران ، الآية ١٤٨ .

(3) رواه البخاري (٨/ ١٠)و مسلم (٤/ ١٩٩٩) .

والقلب هو محور الإنسان وقطب رحاه، وهو مصدر الصلاح أو الفساد فيه، يصدق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ[1] .

وصلاح القلب إنما هو تربيته على الطاعة والصلة بالله عز وجل، وحفظه من موجبات الفساد، وصيانته من الغفلة، وحمايته من الغلطة والقسوة.

ولتحقيق ذلك وتعميقه وضمان استمراره في العبد افترض الله عليه العبادات، ومنها الصوم فهو تربية للقلب، ومحطة لتليينه وترقيقه وتجنيبه القسوة.

وقد ذكر العلماء أن من فوائد الصوم العائدة على القلب: اكتسابه الصفاء والرقة، وأن من أجاع بطنه بالصوم فطن قلبه، وأن من شبع ومن قسا قلبه، ونقل عن بعض الحكماء أن حب الشبع فيه قساوة القلب، ومفهوم ذلك: أن الصوم يورث رقة القلب

خلاصة المقال: الصيام شعيرة عظيمة شرعها الله عزوجل في الأساس لتحقيق التقوى وتزكية النفس وتطهيرها، وإذا أداها المسلم على أكمل وجه انعكس أثرها على جميع نواحي الحياة؛ لما لها من أثر طيب في زيادة مستوى الإيمان وتربية النفس وتعويدها على الصبر والمجاهدة، فالصيام يعتبر بحق مدرسة تدريبية تقرب المسلم من الله تعالى، ولا يقتصر أثر الصيام على مستوى الفرد فقط بل يتعدى ذلك إلى مستوى المجتمع، فنلحظ في هذا الشهر ازدياد مظاهر التكافل الاجتماعي وازدياد روابط الأخوة بين المسلِمين

[1] رواه البخاري (١/ ٢٠)و مسلم (٣/ ١٢١٩) .

اثر الحج في تزكية النفس

شرع الله لنا العبادات حتى نُزَكِّي بها نفوسنا، ونصلح بها قلوبَنا، وإذا زكت النفوس أفلحتْ ونجتْ؛ كما قال – تعالى –: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[1].

والحج مِن العبادات العظيمة التي جعلَها الله طهارةً، وتربيةً، وغُفرانًا لذنوب عباده. والكثيرُ من الناس يرى العبادات – ومنها الحج – مجرَّد تعبير عن الإيمان، وحصول أجْر، وينتهي الأمرُ، وليس الأمر كذلك، بل إنَّ العبادات مع تحقيق الإيمان، وتحصيل الأجر – هي علامات يهتدي بها العبدُ في دروب الحياة المختلفة، وفيها تحقيق التوازنِ الصحيح بين عمَل الدنيا، وعمل الآخرة. ورحلةُ الحج هي مثالٌ مصغَّرٌ لرحلة الحياة خلال أيام معدودة؛ ينتقل الحاجُّ مِن بلده المألوف إلى بلدٍ آخر، هو خيرُ البلاد كلها، ويُمارس عبادات وطاعات بطريقةٍ معينة، مع انتقال من مكان إلى مكان، ويعيش مع أناس آخرين، مع اختلاف الألْوان والأجناس والبلاد، ويُشاركهم في الظعن، والإقامة، واليقَظة، والنَّوْم، والطَّعام، والشراب، ثُم بعد ذلك يكون الافتراقُ والوداع، وهكذا تكون الحياة.

وعبادةُ الحجِّ قد خلتْ عند الكثيرين من معانيها الصحيحة، التي توصلُ الحاج إلى تزكيةِ نفسِه بهذه العبادة العظيمة، وعند النظَر في وسائل التزكية بالحج نجد أنَّ هناك ثلاث مراحل ومستويات لوسائل تزكية النفوس بالحج:

أولها: ما قبل الحج.

وثانيها: ما يكون خلال العبادة.

وثالثها: ما يكون بعد أداء النُّسُك.

علمًا بأنَّ هذه الوسائل صالحة للعبادات كلها، وتفصيلها كالآتي:

---

[1] سورة الشمس، الآية ٩.

أولاً: وسائل التزْكية قبل العبادة:

١ – إخلاص العبادة لله – تعالى –: وذلك بأن ينوي العبدُ أن هذه العبادة لله – تعالى – لا رياء، ولا سُمعة، ولا غرَض مِن أغراض الدنيا؛ بل خالصة لله – تعالى.

وتأمَّل قوله – تعالى – في تحقيق الإخلاص في الحج؛ {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}[١]، ((مَن حج لله، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدتْه أمه))[٢].

٢ – مُتابعة النبي – ﷺ– والاقتداء به في كلِّ عملٍ من أعمال الحج: ومعنى هذا أن تبحثَ عن أتم وأكمل الأعمال التي أتى بها النبيُّ – ﷺ– في حجِّه، لا أن تبحثَ عن الرخَص والأعذار المقطعة للنسُك أو العمل. واعلم دائمًا أنك تسعى لغايةٍ عظيمة في حجك، ((والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٣]؛ لذا لا يحسن بك أن تُضيع بر حجك، وإتمامه، وصيانته، من خلال البحْث عن الرُّخَص، وتضييع فريضة الله عليك. ولذا ينبغي تعلُّم أحْكام الحج، مِن خلال قراءة كتابٍ في صفة الحج الصحيحة، أو استماع درس، أو غير ذلك.

٣ – تدْريبُ النفس على الحج: من خلال العمرة وتَكْرارها، وهذا واضِحٌ في العبادات كلِّها، ولذا جاءت الشريعةُ بعبادات تطوُّع مِن جنس الفرائض، وهي في غالبها تدريبٌ وتعويدٌ على أداء الفريضة، وذلك مثل: السنَن الراتبة للصلاة، وكذلك صوم غالب شعبان استعدادًا لرمضان، وهكذا نجد هنا في الحج التعوُّد على العمرة؛ يقول النبي – ﷺ–: ((العمرة إلى العمرة كفَّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٤]، تأمَّل كيف قرن النبيُّ –

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ .

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٣٣) واللفظ له ومسلم (٢/ ٩٨٣).

(٣) رواه البخاري (٣/ ٢) ومسلم (٢/ ٩٨٣) .

(٤) رواه البخاري (٣/ ٢) ومسلم (٢/ ٩٨٣) .

ﷺ- بين العمرة وبين الحج في حُصُول الثواب مع ابتدائه بالاعتمار، فكانت العمرةُ هي مِن أسباب فَهْم وتدبُّر الحج؛ حتى يُحَصِّلَ العبدُ الأجرَ المترتِّب على الحج، ويقول النبي - ﷺ-: ((تابِعوا بين الحج والعمرة))[1].

ولعل المعنى اتَّضح من سياق هذه الأحاديث.

٤- النظَر في فضائل الحج، وتشويق النفْس إلى بلَد الله الحرام من خلال الآيات والأحاديث وكلام أهل العلم في بثِّ الهمَم لحج بيت الله الحرام، وتأمَّل دعاء إبراهيم - عليه السلام - في حب الناس لمكة: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ}[2]، ولعل الله كتب في القلوب هذه المحبة والهوى لبيته العتيق.

ثانيًا: وسائل التزكية أثناء العبادة:

١ - الثبات على الإخلاص لله والتوحيد، واستشعاره في كلِّ عمَل منَ الأعمال، خاصة وأن الحج يظهر فيه التوحيدُ واضحًا جليًّا، وانظر إلى قول الله - تعالى - عن إبراهيم: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا}[3].

وتأمل التوحيد في تلْبية النبي - ﷺ- وفي دعائه على الصفا والمروة، وفي مواقيت الحج المختلفة، بل ثبت عنه عند إحرامه، وهو يُعلِّم الناس الإخلاص لله، وعدم النظر إلى متاع الدنيا، ولا إلى ثناء الناس؛ يقول أنس: حج النبيُّ - ﷺ- على رحْل رث وقطيفة لا تُساوي أربعة دراهم، وقال: ((اللهم هذه حجة، لا رياء فيها، ولا سمعة))[4].

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ١٦٦)والنسائي (٥/ ١١٥)وأحمد (٦/ ١٨٥)وابن خزيمة (٤/ ١٣٠)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٦٠).

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧.

(٣) سورة الحج ، الآية ٢٦.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٠٨)وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ٢٢٧).

٢ – الاقتداءُ بالقُدوة – ﷺ– الذي علَّم الأمَّة كيف تؤدِّي هذه الفريضة؛ حيث حجَّ بالأمَّة، وقال لهم: ((لِتأخذوا عني مناسككم))[١].

٣ – البُعد عنْ كل ما يَحُول بين العبد وبين اغتنام فريضة الحج، وذلك بالبُعد عن المعاصي والذنوب؛ {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}[٢] .

وكذلك اجتناب ما حَرَّم عليه لأجل إحْرامِه مِن محْظورات الإحرام، فإنَّ هذا كله مِن تعظيم الحج والنُّسُك الذي تلبس به الحاج، ولذا مَنْ عَظَّم هذه الشعائر رَزَقَهُ الله التقوى، وحُسن العمل؛ {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[٣] .

٤ – الوقوف على المشاعر، والتأمُّل في تاريخها ومعانيها وعلاقتها بالتوحيد، والتوكل، والتعظيم لله – تعالى – يقول النبي – ﷺ–: ((قفوا على المشاعر؛ فإنها من إرث أبيكم إبراهيم))[٤]. تأمل في السعْي بين الصفا والمروة، وتذكر أسرة آل إبراهيم، وكيف أكرمهم الله، وخلَّد ذِكْرهم، بأن جعل المناسك على طريقتهم.

تأمل في الطواف، وتذكر أن إبراهيم – وغيره من الأنبياء – طاف بهذا البيت، ورجا الله – تعالى – ودعاه، بل وتذكر ما يحاذيه في السماء من البيت المعمور، وأولئك الملائكة الذين يَطُوفون به، ثم لا يعودون إليه أبدًا إلى يوم القيامة، وأنت – أيها الحاج – تعود مرات ومرات، تذكَّر ونافس وسابق عبادَ الله الصالحين في عمَل الصالحات.

ولهذا؛ كلما تأمَّلَ الحاجُّ في هذه الأنساك، ازداد قربًا منَ الله، وعرَف مقدار نعمة الله عليه، بأداء هذا الشعيرة.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٩٤٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٣٢ .

(٤) رواه أبو داود (٢/ ١٨٩)والترمذي (٣/ ٢٢١)وابن ماجه (٢/ ١٠٠١) وأحمد (٢٨/ ٤٦٨) والنسائي (٥/ ٢٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٤١) .

٥ – الصبر على ما قد يُواجِه الحاج من مشاق خلال أداء نُسُكه، لكنَّه إذا عرف عظيم الأجر، هان عليه كلُّ تعَبٍ. ولذا منَع الله – تعالى – ما ينقص الأُجُور؛ فقال – تعالى –: {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}[1]، وانظر إلى الخِصام والجدل، كم يحرم الحاج من أجور عظيمة!

ثالثًا: وسائل الثبَات على التزكية بعد العبادة:

*حاسب نفسك واسألها ما بين البداية والنهاية: هل غفر الله لي ذنبي؟ هل تقبَّل عمَلي؟ هل حججتُ الحج المبرور؟

أحْسِن الظن بالله في قَبُول عبادتك، واعلم أنَّ حُسن الظن بربّك يُوجب عدم الاغترار بجميل ستره – تعالى – عليك.

*لا تُحَدِّث نفسك بمعصية الله؛ لأنَّ بعضَ الناس وهو في العبادة أو قارَب ختمها يبدأ يُفَكِّر في ذنوب ومعاصٍ قد تاب منها، فسبحان الله! أهكذا يكون شُكْرُ نعمة الله – تعالى – عليك الذي وفَّقك وهداك، ويسَّر لك أن تكون من حُجاج بيته، ثم تهمُّ بمعصيته – تعالى – وأنت لَم تخرج من بيته العظيم؟! غفرانك اللهم ربي!

*أيها التائب، اثْبُت على التوبة والإنابة، وادْعُ ربَّك: "اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك، واجعلنا ممن يحج ويعتمر، مع غفران ذنب، وصلاح قلب".

وأخيرًا:

بكى أحد الصالحين وهو يودِّع الحجاج، وهم في طريقهم إلى الحج، وقال يُخاطب نفسه: وا أسفاه! يتأسف على

---

[1] سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

عدم قدرته على حج بيت الله الحرام، ويقول: هذه حسرة مَن انقطع عن البيت، فكيف بِمَن انقطع عن ربِّ البيت؟!

أسأل الله ألا يحرمنا حج بيته، والتلذُّذ بمناجاته، والتودُّد إليه عامًا بعد عام، تقبَّل الله من الجميع.

الحج مؤتمر يقام كل عام على نحو تعجز أقوى أمم العالم وأدقها تنظيماً أن تقيم مثله ولو في الدهر مرة قال تعالى:{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}[1]، ولا تكاد توجد جماعة من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا وفي هذا المؤتمر من يمثلها.

وإذا علمنا أن لكل عبادة غايتها المثلى، وهدفها الأسمى؛ فإن للحج من الغايات الكريمة، والعوائد المحمودة ما لا يستطيع القلم أن يحصيه عداً، أو يستوعبه دراسة وبحثاً؛ وإنه مهما تكلم المتكلمون، وحاضر المحاضرون حول أي عبادة افترضها الله – تعالى – وأسرارها؟ ودلالاتها، والغاية التي من أجلها فرض الله هذه العبادة؛ فلن يوفوها حقها، ولن يصلوا إلا إلى اليسير منها؛ لأنه لا يعلم هذه الأمور كلها إلا ربنا – عز وجل –؛ ولكن لنقف وقفات يسيرة مما يسهله الله – تعالى – لنا، وعلى حسب أفهامنا، والله المستعان، وعليه التكلان.

من آثار الحج في تزكية النفس:

١. أن الحج فيه معنى الامتثال لله – تبارك وتعالى – حق الامتثال، والاستجابة لأداء الواجب الذي افترضه الله – تبارك وتعالى – {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ

[1] سورة الحج ، الآيات (٢٧-٢٩).

الْعَالَمِينَ}[1] فاللام في قوله: {لِلَّهِ} هي التي يقال لها "لام الإيجاب والإلزام"، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف "على" فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب؛ كما إذا قال القائل: لفلان عليّ كذا، فذكر الله – سبحانه – الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب

تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصه الدليل كالصبي والعبد. وقوله: {مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً} في محل جرّ على أنه بدل بعض من الناس، وبه قال أكثر النحويُّون، وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج، والتقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إن {من} حرف شرط، والجزاء محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج.[2]

٢. أن في الحج يعيش المؤمن أقوى درجات الإيمان؛ لأنه يمتنع عن أن يفكر في المعصية، بل أن يفكر حتى وهو ببيته ووطنه؛ ولأنه – تعالى- يقول: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[3]، فقوله: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} أي: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، وقوله: {بِظُلْمٍ} أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، قال العَوْفي: عن ابن عباس – ﷺ -: "{بِظُلْمٍ} هو أن تَستحلَ من الحرم ما حَرّم الله عليك من لسان، أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَلَ ذلك فقد وجب له العذاب الأليم"، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر إذا كان عازما عليه وإن لم يوقعه، فعن ابن مسعود- ﷺ – في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: "لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعَدَن أبينَ؛ أذاقه الله من العذاب الأليم"[4].

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٩٧).

(٢) فتح القدير (٤٩٨/١).

(٣) سورة الحج ، الآية (٢٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٤١١/٥).

٣. في الحج تتحقق درجات الصبر الثلاث: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله مما يصيب الحاج من المشقة والجهد، والعنت وفقد المال، وبعد الأهل والأحباب، وهو تدريب واقعي للمسلم على الصبر والطاعة، وآثاره تظهر في حياة المسلم الذي يؤدي هذه الفريضة.

٤. الحج مدرسة للبذل والتضحية والعطاء: فهو يتعلم دروساً في البذل والتضحية، ولذا كان الحج باباً من أبواب الجهاد، أليس الحاج يترك وطنه وأهله وأحبابه؟ أليس الحاج يبذل المال قربة لله؟ أليس الحاج يجهد نفسه، ويخلع ثيابه، ويتجرد من كل شيء طاعة لله، وامتثالاً لأمره، وهذا لون من ألوان الجهاد بالمال، والجهد، والوقت.

٥- في الحج تذكير بالموت ويوم المحشر: فهو يذكِّر المسلم بيوم لقاء الله، وذلك إذا تجرد الحاج من ثيابه، ولبى محرماً، ووقف بصعيد عرفات، ورأى كثرة الناس، ولباسهم واحد يشبه الأكفان، وهنا تجول الخواطر في مواقف سيتعرض لها المسلم بعد وفاته، فيدعوه ذلك للاستعداد لها، وأخذ الزاد قبل لقاء الله.

٦- في الحج تعويد للمسلم احترام ما حوله من شجر وحجر... الخ، وأن يقف عند حدود الله، فلا يجوز له أن يقطع الشجر، ولا يقتل الصيد أثناء إحرامه، ولا يأخذ لقطة قال – تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[1]، فالحاج يقف عن إيذاء كل شيء، وله في ذلك حدود وضوابط، فهو يقف أولاً عند الحرم فلا يفكر في إحداث شيء لأن {مَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[2]، ويقف عند الشجر فلا يقطعه لأنه ((لا يُعَضَّدُ شَجَرُهُ، وَلا يُخْتَشُّ حَشِيشُهُ))، ويقف عند الحجر الأسود – وهو حجر – فيقبله، وهو يتذكر

---

[1] سورة المائدة، الآية ٩٥.

(٢) سورة الحج، الآية ٢٥.

حديث ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمٍ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَالَ: "قَبَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَجَرَ ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ"[1]... إلخ الأمور التي يقف المسلم أمامها محترماً لها، معظماً لها؛ لأنه مأمور به شرعاً.

٧- في الحج يتحقق معنى أن الأمة الإسلامية أمة واحدة: فمن خلال الحج يشعر المسلمون أنهم أمة واحدة، وهنا تسقط الشعارات الزائفة في تفريق الأمة، وجعلها أمم متناحرة، فترى موسم الحج يحقق معنى قول الله – تعالى -: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[2]، فمهما تباعدت المسافات، ومهما حُكِمَ بتفريق الأمة؛ يأتي الحج ليبطل كل هذه الدعوات الزائفة.

٨- الحج جهاد: فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ-: ((الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ))[3].

٩- الحج يهدم ما قبله: فعن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال: ".. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي – ﷺ– فقلت: أبسط يمينك لأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ((ما لك يا عمرو؟)) قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: ((تشترط بماذا؟)) قلت: أن يغفر لي، قال: ((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله))..."[4].

١٠- جزاء الحج المبرور الجنة: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– قَالَ: ((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))[5].

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٤٩)ومسلم (٢/ ٩٢٥)

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥٢.

(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ٩٦٨) وأحمد (٤٤/ ١٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٠٦).

(٤) رواه مسلم (١/ ١١٢) .

(٥) **رواه البخاري (٣/ ٢)ومسلم (٢/ ٩٨٣) .**

١١- في الحج اقتداء بمن سبقنا: فإن الحاج حين يذهب لأداء فريضة الحج فهو يتأسى بمن كان قبله، يتأسى بالنبي – صلى الله عليه وسلم –، فعن جَابِر – رضي الله عنه – قال: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ يَقُولُ لَنَا: ((لتأخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ))"[١]، وفي الحج اقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – حين أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}[٢]، وكتب الله لمن شاء من عباده أن يلبوا هذا النداء رجالاً أو ركباناً، وفي الحج اقتداء بالصالحين، وتأسي بمن أمرنا الله أن نتأسى بهم، ونجعلهم قدوة حسنة لنا حيث قال – تعالى –: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ... إلى قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ.. }[٣].

هذه بعض آثار الحج في النفوس المؤمنة؛ إلا أن هذه الآثار لا تنطبق على المرء إلا إذا رجع من حجه وقد تغير سلوكه، ومعاملته؛ لأنه إذا علم قول النبي – ﷺ – ((الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))[٤]، وقوله –ﷺ–: ((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))[٥]، فإنه أدعى وأحرى أن يكون في أشد الحرص على أن ينال هذه المرتبة العظيمة.

نسأل الله أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يوفقنا إلى كل خير، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

---

[١] رواه مسلم (٢/ ٩٤٣).
[٢] سورة الحج، الآية ٢٧.
[٣] سورة الممتحنة، الآيات ٤-٦.
[٤] رواه البخاري (٣/ ٢) ومسلم (٢/ ٩٨٣).
[٥] رواه البخاري (٢/ ١٣٣) واللفظ له ومسلم (٢/ ٩٨٣).

أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك المؤمن ومواقفه

يقول الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[١]

ويقول: (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)[٢].

ويقول الرسول ـ ﷺ ـ: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة [٣]" متفق عليه.

والإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته ومعرفتها، له الكثير من الآثار الطيبة والثمرات العظيمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، قال العز بن عبد السلام: "اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالا علية، وأقوالا سَنية، وأفعالا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجات أخروية"[٤].

ومن هذه الآثار والثمرات المترتبة على معرفة الله بأسمائه وصفاته:

افتح قلبك حتى أحدثك عن نادي الكبار، أو عن دورة إيمانية ربانية مدتها ثلاثة شهور وتسعة أيام، أو مائة يوم إلا يوم واحد، إنها مدرسة الأسماء الحسنى، روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة[٥].

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٠

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١١٠

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٩٨)ومسلم (٤/ ٢٠٦٣)

(٤) الموسوعة العقدية - الدرر السنية (٢/ ٣٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

(٥) تقدم تخريجه في الحاشية رقم ٣ .

وإني أحب لك تعيش في كل يوم مع واحد من هذه الأسماء الكريمة، تعيش معها حياة تنعش قلبك وروحك، وتدفع بجسدك للحركة والمبادرة في الخيرات دون تردد ولا تأخير. إنها أسماء الله؛ أثنى بها على نفسه، ونحن لا نحسن ثناءً عليه: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[1]، {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ}[2] ، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[3].

فيا من تبحث عن البركة في عمرك وعملك ومالك وولدك، تعال معي إلى مدرسة البركة الربانية: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[4]، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[5] ، {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[6] ، ، {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[7] .

إن العيش مع الاسم الحسن؛ يرفع الهمّ والغمّ والحزن، فلا تبخل على نفسك وعلى أهلك كل يوم من أن تعيش مع واحد من الأسماء الحسنى حتى تحصيها كلها، وإحصاء كل اسم يمرّ بأربعة مراحل، يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله: أحصاها يعني:

أولاً: حفظها.

ثانياً: عرف معانيها.

---

(1) سورة طه ، الآية ٨ .
(2) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .
(3) سورة الشورى ، الآية ١١ .
(4) سورة الملك ، الآية ١ .
(5) سورة المؤمنون ، الآية ١٤ .
(6) سورة [الأعراف ، الآية ٥٤ .
(7) سورة الرحمن ، الآية ٧٨ .

ثالثا: تخلَّق بمعانيها[1].

وأضاف الإمام ابن القيم الرابعة فقال: أن يدعو الله تعالى بها.

فالواجب علينا مع اسم الله اللطيف مثلاً؛ أن نحفظ هذا الاسم بكثرة تكراره؛ لأن الذي يتكرر في النفس يتقرر.

وأن نعرف معنى اللطيف، فمن معاني اللطف الرباني: التخفيف والتيسير بالخلق: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[2] . وأن ندعو الله تعالى باسمه اللطيف: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}[3] بأن نقول مثلاً: اللهم يا لطيف، اجعل بلاءنا خفيفاً، اللهم دبِّر لنا فإنَّا لا نُحسن التدبير، والطف بنا فيما جرت به المقادير.

ثم أن نتخلق بمعاني هذا الاسم الكريم بأن نجمع اللطف والذوق الحسن والرقة واللين لخلق الله تعالى، بشرًا كان هذا الخلق أو حيوانًا أو شجرًا، وما أجمل أن يتسمى العبد اللطيف باسم عبد اللطيف، وهذه اللوازم تلزم الأسماء كلها.

ونعيدها للأهمية: نحفظ الاسم الحسن من أسماء الله الحسنى، ونفهم معانيه، ونتخلق بهذه المعاني، وندعو الله تعالى بها تبركًا لنجد الإجابة على الفور إن صادف ذلك اسم الله الأعظم لعباد ربانيين: {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[4].

إن التزامنا بأسماء ربنا سبحانه وتعالى فيه صلاح لمعاشنا ومعادنا على حدٍّ سواء، وماذا نريد أكثر من أن نحصل على الحسنات والبركات في الدنيا والآخرة: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[5].

---

(1) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٠٦) التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٣٨).

(2) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(3) سورة الأعراف ، الآية ١٨٠

(4) سورة يونس ، الآية ٦٢ .

(5) سورة البقرة ، الآية ٢٠١ .

– فاسم الله الرحمن واسمه الرحيم، لو جاء في حياتنا لرحمنا بعضنا، ولو رحمنا بعضنا لرحمَنا ربنا، وجاء عن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[1].

– واسم الله العزيز يدعونا لأن نكون أعزة: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[2] .

– واسم الله العلي يدعونا لأن نكون أصحاب علو ورفعة وشموخ، وعيب على مسلم يقبل على نفسه السفوف والانحطاط ثم يأتي ليقرأ معنا قول الله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}[3].

– واسم الله الحق يدعونا لأن ننحاز إلى الله تعالى وأن نتابع الحق ولو على رقابنا، فالحق أحق أن يتبع: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[4] .

– واسم الله الودود يدعونا لأن نتودد للمؤمنين؛ ليجعل الله تعالى لنا ودًا يوم الدين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}[5] .

– واسم الله القدوس يدعونا لأن نحفظ أنفسنا من النجاسات المادية والمعنوية: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}[6] .

– واسم الله الصمد يدعونا؛ لأن نصمد ونثبت في وجه التحديات، ولا نضعف لكثرة ما يطلب منا في سبيل أولادنا وأوطاننا ودِيننا من طلبات وواجبات. – واسم الله الواسع يدعونا لأن نوسّع آفاق تفكيرنا لنخرج به عن

---

(1) رواه أبو داود (٤/ ٢٨٥)والترمذي (٤/ ٣٢٤) وأحمد (١١/ ٣٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٦١) .

(2) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(3) سورة الأعلى ، الآية ١ .

(4) سورة الإسراء ، الآية ٨١.

(5) سورة مريم ، الآية ٩٦ .

(6) سورة المدثر ، الآيات ٣-٥.

ذواتنا الصغيرة؛ لنحل لغز آلام أمتنا المقهورة، ونفكّ السحر عن أجيال بال الشيطان في أذنها، فلم تنهض لفجر، ولم تتحرك لطلب النصر. – واسم الله القوي المتين يدعونا؛ لأن نطلب القوة في كل شيء؛ قوة البدن والروح والفكر: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}[1] ، وقوة العلم والتعليم: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2].

– واسم الله الكريم يدعونا لأن ننفق وأن نعطي عطاء من لا يخشى الفقر: «أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً»[3]، {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[4].

يا من تطلب كرم ربك والعطاء منه، هلا أظهرت بعض كرمك لخلقه من غير منٍّ ولا أذى. – مع اسم الله الأول ينبغي أن تكون الأول في كل برٍّ ومعروف.

– ومع اسم الله الآخر ينبغي أن تكون عند الشرور والفتن في آخر الصفوف، ولا يزال أقوام يتأخرون عن الطاعة حتى يؤخّرهم الله، ولا يزال أقوام يتقدمون إليها حتى يقدّمهم الله.

– مع اسم الله العفو ينبغي أن تصفح عن خلق الله تعالى، وأن تقبل عذرهم وتتجاوز عن زلاتهم وتنسى تقصيرهم في حقك؛ لأنه من صفح عن الخلق صفح عنه الخالق: {وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}[5].

---

(1) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(2) سورة البقرة ، الآية ٦٣ .

(3) رواه البزار (١٧/ ٢٤٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٨٤) والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣٤٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٥٩١) والسلسلة الصحيحة (٦/ ٣٤٧) .

(4) سورة الإنسان ، الآية ٩ .

(5) سورة البقرة ، الآية ٢٣٧ .

- مع اسم الله السلام نكثر من طرح السلام على إخواننا، وكان عبد الله بن عمر ﷺ يغدو إلى السوق يوميًا دون أن يشتري شيئًا، فلما سألوه عن سرّ ذلك قال: "إنما نغدو إلى السوق يوميًا من أجل السلام"[١]، لكنه سلام مع المؤمنين الموحدين، لا سلام مع الكفرة المعتدين من اليهود والصليبيين.

- مع اسم الله المنتقم الجبار نقف في وجوه المجرمين: {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ}[٢]، {فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ}[٣] ، {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[٤] ، {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}[٥].

- نحن باسم الله نحيا ونعبد، وإن غفلنا تبنا ورجعنا.

- باسم الله نبدأ كل أمر من الأمور.

- بسم الله نقرأ القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[٦] .

- وباسم الله نصلي.

- باسم الله نأكل ونشرب.

- باسم الله نداعب الصغار ونعاشر النساء.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٢)والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٣٤٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٢٠٤) وصححه الألباني في الأدب المفرد (ص: ٥٦١).

(٢) سورة الشورى ، الآية ٤١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ١٢ .

(٥) سورة النور ، الآية ٢.

(٦) سورة العلق ، الآية ١.

- باسم الله نقود السيارة والطيارة وسفينة النجاة: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [1].

- باسم الله نكفّن موتانا.

- وباسم الله نصلّي عليهم، وباسم الله يُدفنون.

إنها الأسماء الحسنى معنا من الميلاد إلى الوفاة، أو الاستشهاد، فهلا جددنا العلاقة معها لنفتح بها البلاد والعباد.

- باسم الله نضرب عدو الله العظيم لأنه: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ} [2].

- باسم الله الغني نطلب غنى الله، ونُغني عباده عن المسألة.

- باسم الله المعطي نطلب عطاء الله ونعطي عباده من عطائه.

- باسم الله الهادي نطلب هدى الله ونسعى لأن نكون حملة الهداية لخلق لله: "اللهم اجعلنا هداة مهديين، ولا تجعلنا ضالين ولا مضلين".

- باسم الله الشكور نشكر به ربنا، ونسعى لشكر خلق الله على الإحسان؛ لأنه: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [3].

- باسم الله البديع نتدبر بديع خلق ربنا، ونسعى إلى الإبداع والتقدم في كل مصالح الحياة.

وإذا شرح الله صدرك وأحصيت أسماء ربك الحسنى حفظًا وفهمًا وعملاً ودعاءً؛ فقد أحصيت العلوم كلها،

---

(1) سورة هود ، الآية ٤١ .

(2) سورة الأنفال ، الآية ١٧.

(3) رواه أبو داود (٤/ ٢٥٥)وأحمد (١٣/ ٣٢٢) وابن حبان (٨/ ١٩٩)والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٣٧٦)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٧٦) .

يقول ابن القيم: "العلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ}[1]، [2]".

أما الدعاء بالأسماء الحسنى فإننا نخصص لكل اسم حاجة تليق به؛ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول في دعاء الكرب: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...»[3] هذه المقدمة ولك أن تدعو بعدها بما شئت.

اللهم يا رحيم ارحمنا، ويا لطيف الطف بنا، ويا ذا العفو اعفُ عنا، ويا متين اشدد أزرنا، ويا حفيظ احفظنا، ويا فتاح افتح علينا، ويا شافي اشفنا، ويا رزاق ارزقنا، ويا وليّ تولَّ أمرنا، ويا عليُّ ارفع شأننا.

---

(1) سورة محمد، الآية ١٩.

(2) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣) وفائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص: ٢٨).

(3) رواه أحمد (٧/ ٣٤١) وابن حبان (٣/ ٢٥٣)والطبراني (١٠/ ١٦٩)والحاكم (١/ ٦٩٠)وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٨٣)

أثر التواضع في تزكية النفس

قال الله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}[1]، فقد دعت الآية الكريمة إلى خُلق إنسانيّ عظيم، وهو التواضع وتجنُّب التكبُّر على الآخرين، ويُعرَّف التواضع بأنَّه أن يتعامل الإنسان مع غيره من الناس بلطف ولباقة، فيحرص على مراعاة مشاعرهم والابتسامة في وجوههم ومعاملتهم بإحسان وتوجيه الحديث إليهم برقة وبنفس بشوشة مهما كان منصبه ومهما كانت مكانته الاجتماعيَّة .

التواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)[2] ، وقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[3] ، وهو قيامه ﷺ بعبودية الله المتنوعة، وبالإحسان الكامل للخلق، فكان خلُقه ﷺ التواضع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله، ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه[4] .

وللتواضع أسباب لا يكون المسلم متخلقاً به إلا بتحصيلها، وقد بيَّنها الإمام ابن القيم بقوله:

التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو " التواضع "، وهو انكسار

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٣٧.

(2) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(3) سورة القلم ، الآية ٤ .

(4) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي " (٥ / ٤٤٢، ٤٤٣).

القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقّاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خلُق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبُّه، ويكرمه، ويقربه[1] ".

وقد جاء في ثواب التواضع الفضل الكبير، ومنه:

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: " ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله [2]" .رواه مسلم وبوَّب عليه النووي بقوله " استحباب العفو والتواضع.

قال النووي: قوله ﷺ: " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ": فيه وجهان: أحدهما: يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه .

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا .

قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم [3]".

والتواضع يكون في أشياء، منها:

١. تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً .

قال ابن القيم: فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء هرباً من العبودية، وتتوقف عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه: فقد تواضع للعبودية[4] .

---

(١) الروح (ص: ٢٣٣) .

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠١) .

(٣) شرح النووي علي مسلم " (١٦ / ١٤٢) .

(٤) " الروح " (ص ٢٣٣) بتصرف .

٢. تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه .

قال ابن القيم: فكلما شمخت نفسُه: ذَكَر عظمة الرب تعالى، وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخْبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس . (أي يستلزم التواضع لأمر الله ونهيه، وقد يتواضع لأمر الله ونهيه من لم يتواضع لعظمته) والمتواضع حقيقة: من رزق الأمرين، والله المستعان[١] ..

٣. التواضع في اللباس والمشية .

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: " بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة "[٢] .

وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، ولفظ البخاري: " بينما رجل يمشي في حلَّة تعجبه نفسه مرجِّل جمَّته إذ خَسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة "[٣] .

يتجلجل: ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً .

مرجل جمته: الترجيل هو تسريح الشعر ودهنه .

والجمة: هي الشعر المتدلي من الرأس إلى المنكبين .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٤١) ومسلم (٣/ ١٦٥٣)

٤. التواضع مع المفضول فيعمل معه ويعينه .

عن البراء بن عازب قال كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه يقول:

لولا أنت ما اهتدينا نحن ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا إن الألى وربما قال الملا قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا أبينا يرفع بها صوته[١] .

٥. التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها .

عن الأسود قال: سألتُ عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – تعني: خدمة أهله –، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[٢] .

قال الحافظ ابن حجر:

وفيه: الترغيب في التواضع وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله[٣] .

٦. التواضع مع الصغار ومازحتهم

عن أنس قال: كان النبي ﷺ أحسنَ الناس خلُقاً، وكان لي أخ يقال له " أبو عمير " – قال: أحسبه فطيماً – وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير[٤] .

قال النووي:

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٦)ومسلم (٣/ ١٤٣٠) .

(٢)رواه البخاري (١/ ١٣٦).

(٣) فتح الباري " (٢ / ١٦٣) .

(٤) رواه البخاري (٨/ ٣١) ومسلم (٣/ ١٦٩٢) .

" النُّغيْر " وهو طائر صغير .

و" الفطيم " بمعنى المفطوم .

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة جدّاً منها: ... ملاطفة الصبيان وتأنيسهم ، وبيان ما كان النبي ﷺ من حسن الخُلق وكرم الشمائل والتواضع[1] .

٧. التواضع مع الخدم والعبيد .

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه وليَ حرَّه وعلاجَه [2].

ومعنى " ولي حرَّه وعلاجه ": أي عانى مشقة صُنع الطعام والقيام على تقديمه، وفي رواية مسلم " وليَ حرَّه ودخانه " .نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتواضعين لعظمته .

---

(1) شرح النووي على مسلم " (١٤ / ١٢٩) .

(2) رواه البخاري (٣/ ١٥٠)و مسلم (٣/ ١٢٨٤) .

أثر التواضع على الفرد والمجتمع

أثر التواضع على الفرد:

- تزكية النفس البشريَّة، وتهذيبها على الأخلاق الحسنة التي يحبها الله عز وجل، ويرضى عنها. - رفع مكانة الفرد بين الناس، فينال محبتهم واحترامهم ويجدهم حوله في كل الظروف.

- تطهير الفرد من الأخلاق الذميمة وجبله على خشية الله سبحانه وتعالى والحرص على طاعته. الاتصاف بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واتباع سنة سيدنا مُحَمَّد ﷺ. تهيئة الفرد للوصول إلى النجاح والارتفاع في المناصب وتحقيق الأهداف بطريقة أكثر سهولة. بناء الكثير من العلاقات الاجتماعيَّة الناجحة، وتوسيع دائرة المعارف، وبالتالي حصوله على نجاحات أكثر.

أثر التواضع على المجتمع:

- تحقيق مفهوم التكافل الاجتماعيَّ، والتخلُّص من التفرقة بين طبقات المجتمع المختلفة.

- نشر المودة والمحبة بين أفراد المجتمع الواحد، فتسمو العلاقات بأكملها نحو الخير.

- حماية المجتمع من وقوع الخلافات، وارتكاب الجرائم المختلفة بسبب الحقد الطبقيّ.

- ضبط النفوس البشريَّة وتهذيبها، وخلق نوع من القناعة الداخليَّة والرضا.

- الوصول إلى النجاحات بطريقة أسرع والتخلُّص من النزاعات الناتجة عن الاختلاف.

- بثّ روح التعاون بين الناس ومنحهم القدرة على التسامح مع الآخرين والعفو عنهم.

أثر الخوف من الله في تزكية النفس

إن من أعظم المهمات التي بعث لأجلها النبي ﷺ تزكية النفوس وتطهيرها، كما قال الله عز وجل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[١].

وقد جعل الله تعالى فلاح العبد منوطًا بتزكية نفسه، فقال سبحانه وتعالى بعد أحد عشر قسمًا متواليًا: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)[٢].

ومما لا شك فيه أن من أهم الوسائل لتزكية النفوس هو تربيتها على الخوف من الله عز وجل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الخوف، وهي من أجلِّ منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد"[٣].

وقال أيضًا رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر[٤]".

وإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها؛ إذ الخوف سوط الله الذي يقوِّم به الشاردين عن بابه ويصدهم به عن نار الجحيم والعذاب الأليم.

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ٢ .

(٢) سورة الشمس ، الآيات ٩- ١٠ .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠٧) .

(٤) المرجع السابق (١/ ٥١٣) .

قال الفضيل رحمه الله: من خاف الله دله الخوف على كل خير[1].

واعلم أن الخوف إذا فارق القلب خَرِب، وتجرأ صاحبه على المعاصي، وكيف لا يخاف العبد في هذه الدار وهو يعلم أنه مقبل على أهوال عظام:

فهو لا يدري بماذا يختم له.. قال سهل: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...)[2]،[3].

ولما احتضر سفيان الثوري – رحمه الله – بكى بكاءً شديدًا. فقيل له: عليك بالرجاء؛ فإن عفو الله أعظم من ذنوبك. فقال: أو على ذنوبي أبكي؟! لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا[4].ثم هو مقبل على القبر وسؤال الملكين، ولا يدري أيثبت أم لا؟.. جلس النبي ﷺ على شفير قبر فبكى ثم قال: "أي إخواني لمثل هذا فأعدوا"[5].

ثم إذا أعمل فكرة في أهوال الحشر، والميزان، والصراط، وانصراف الناس إما إلى جنة وإما إلى نار لاستولى الخوف على قلبه فحجزه عن الكثير من المحرمات. فكل من خاف شيئًا فر منه، لكن من خاف الله فر إليه: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)[6] .

---

(1) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦١)و الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٣٧)

(2) سورة المؤمنون ، الآية ٦٠ .

(3) إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٢)و قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١/ ٣٨٧)ل محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) .

(4) المرجع السابق .

(5) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٣) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٣٠٤) .

(6) سورة الذاريات ، الآية ٥٠ .

درجات الخوف

ذكر بعضهم أن للخوف درجات:

الدرجة الأولى: خوف العقوبة:

وهو الخوف الذي يصح به الإيمان، وهو خوف العامة، وهذا الخوف يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة، وترحل هذا الخوف من القلب علامة ترحل الإيمان منه.. قال الله تعالى: (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[1].

الدرجة الثانية: خوف المكر:

فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال، فبُدِّل بالأُنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا.

وأعلى الدرجات: خوف العبد الحجاب عن الرب: وهذا خوف العارفين.

وكلما كان العبد أعلم بالله وأعرف بصفاته سبحانه كلما كان خوفه أشد.. قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[2]. ولهذا وجدنا سيد الخلق محمدًا ﷺ أخوف الناس، فقد قيل له: يا رسول الله شِبْتَ! قال: "شيبتني هود وأخواتها"[3]. وهو ﷺ الذي قال عن نفسه: "إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية"[4].

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٧٥ .

(2) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٢٨٦)وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٣٥٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩٢) .

(4) رواه أحمد (٤١/ ٣٩٦) وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم.

مسلم.

وقد ذكر بعض العلماء أن الخوف له قصور، وإفراط، واعتدال، فالمحمود منه هو الاعتدال والوسط، وذلك الذي يحمل صاحبه على فعل الواجبات وترك المحرمات، فإن زاد بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والكف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات؛ كان أفضل وأحسن.

وأما القاصر فذلك الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عن وجود سبب من الأسباب كسماع آية أو موعظة أو غير ذلك، فتفيض الدموع ويوجل القلب، ثم إذا زال السبب عاد لما كان عليه من الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى.

وأما الإفراط في الخوف بحيث يخرج صاحبه إلى اليأس والقنوط أو يورث مرضًا أو همًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المحبوبة لله، فإن ذلك مذموم غير محمود.

رزقنا الله خشيته ومخافته في السر والعلن،

اثر خشية الله في تزكية النفس

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [١].

معنى الخشية في اللغة:"الخشية: الخوف"[٢] .

معنى الخشية في الاصطلاح: خشية وخوف تكون في القلب، تظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون[٣].

الفرق بين الخوف والخشية:

الخوف: هروب القلب مِن حلول المكروه عند الشعور به.

الخشية: انجماع وانقباض وسكون، والخوف حركة، والخشية أخصُّ من الخوف[٤].

إن خشية الله تعالى من أجلِّ أعمال القلوب التي تقوم عليها العبادة، فهي من العبادات القلبية التي تُعين المؤمن على مراقبة الله في الخلوة، والخشية في حال الغيبة عن الناس أعلى مراتب المراقبة لله، وكلما كان العبد أكثر علمًا ومعرفةً بالله عز وجل، اشتدَّت خشيته من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٥]

فمن آمَن بقدرة الله وقوته، وأنه شديد ذو انتقام، وأنه خلَق الجنة والنار، أورثه ذلك خوفًا وخشيةً منه، والاستعداد للقاء من يخافه ويخشاه، ويجازي الله أهل خشيته يوم القيامة برضاه عنهم ودخول جنته؛

---

[١] سورة الملك ، الآية ١٢ .

[٢] تهذيب اللغة ٧/ ١٩٤، معجم مقاييس اللغة ٢ /١٨٤.

[٣] انظر: أضواء البيان ٧ /٥٤٧.

[٤] انظر: مدارج السالكين ١ /٥٠٨.

[٥] سورة فاطر ، الآية ٢٨.

قال تعالى ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[1]، [2].

فنحن بأمس الحاجة لمدارسة هذا الموضوع ومراجعته وتدبر النصوص الواردة فيه تعظيماً لما عظمه الله تعالى في هذه العبادة القلبية، فالفتن تحيط بنا من كل جانب خصوصاً ذنوب الخلوات التي زينها شياطين الإنس والجن.. والعلاج الأساس في مواجهة هذه الذنوب إقامة عبادة خشية الله تعالى بالغيب فتمنعُه بإذن الله من تعاطي المحرمات بالنظر أو السماع أو اللسان أو الطعام أو المشي ..الخ.

ومن آثار الخشية: قيام العدل والإنصاف والصدق والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا أردت تحقيق هذه العبودية فلتكن حالك في الخلوة أفضلَ عند الله من حال مشاهدة الناس، ولا تجعل اللهَ تعالى أهونَ الناظرين إليك.

ومن آثار الخشية: مغفرة الذنوب ودخولِ الجنة والأجرِ الكبير.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[3].وقال تعالى:{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}[4]وقال الله تعالى في وصف عباده المتقين:{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ}[5].

---

(1) سورة البينة ، الآية ٨ .

(2) انظر: أضواء البيان ٩(/٥٥)و تفسير السعدي (٦٨٨) والتحرير والتنوير (٣٠/ ٧٧) ومدارج السالكين (١ /١٥٦).

(3) سورة الملك ، الآية ١٢ .

(4) سورة ق ، الآية ٣٣ .

(5) سورة الأنبياء ، الآية ٤٩ .

وقال الله تعالى في بيان صفات الذين يستجيبون لنذارة الرسول:{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ}[1].

ومن خاف وقوفه أمام الله يوم القيامة للحساب كانت الجنّةُ مأواه، قال الله تعالى:{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[2].وقال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[3].

وخشية الله بالغيب هي علامة الصدق والإيمان والعلم بالله تعالى بأنه السميع البصير العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخشى، ولذلك رفع الله تعالى مقام الخشية، فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[4].

واعلم أن الله تعالى يبتلي عبده فتَدْنُوا مِنه المعصية، ويَسْهُلُ عليه اقترافها حال بُعْدِ أنظار الناس عنه؛ ابتلاءً له من الله تعالى؛ هل عبدُه يَخْشَى اللهَ تعالى بالغيب أو لا يخشاه إلا بحضور الناس فقط؟.

فانتبه لذلك دائماً حينما تكون خالياً، واجعل نُصب عينيك قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[5]

ومن الأعمال التي لا يراها الناس أعمالُ القلوب ؛ فاحذر معصية الله بقلبك. وأعظمها الشرك ؛ فلا يتعلَّق قلبُك ولا يخشى ولا يرجو إلا اللهَ تعالى وحده.

ومن معاصي القلب: الكِبرُ، والإعجابُ بالنفس، والحسد، والغرور، والرياء، وحبُ السمعة والظهور.

---

(1) سورة فاطر ، الآية ١٨ .

(2) سورة النازعات ، الآيات ٤٠-٤١ .

(3) سورة الرحمن ، الآية ٤٦ .

(4)سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(5) سورة المائدة ، الآية ٩٤ .

ومن علامات مرض القلب بالشهوات: الطمع بغير ما أحل الله تعالى، قال الله تعالى:{ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}(١).

فدلَّ على أن الطَّمَعَ بغيرِ ما أحلَّ اللهُ علامةٌ على مرضِ القلب، فاحذر كلَّ الحَذَرِ من هذه العلامة الدالة على مرض القلب، ولا رادع لها إلا خشية الله بالغيب.

فما أعظم مقام عبودية قلب المؤمن لله وحده وقد طَهَّره الله من الشرك، ومن التعلق بالدنيا، ومن أمراض الشبهات والشهوات.

قال نبينا ﷺ:" إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم"(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجَ مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات"(٣).

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:".. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحَت صَلُحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فسدت فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، ألا وهي القلب"(٤).وقال الله تعالى:{ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}(٥).

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٦) .

(٣) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٦)

(٤) رواه البخاري (١/ ٢٠)و مسلم (٣/ ١٢١٩).

(٥) سورة الحج ، الآية ٣٢.

وقد كان رِضَى الله تعالى وثناؤه على أهل البيعة تحت الشجرة لعلمه بحقيقة ما وقر في قلوبهم، قال الله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}[1]

.

ولذلك كان من المشروع في حق المؤمن أن يدعو بدعاء الراسخين في العلم، قال الله تعالى: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ، رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ }[2].

وكان من دعاء النبي ﷺ: "اللهم مصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك"[3]. أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما.

ومن أهم أسباب طمأنينة القلب ذكر الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[4].

ومن أنواع الانحراف في الخشية التي حذرنا الله تعالى منها تقديم خشية الناس على خشية الله؛ أو أن يخشى الناس كما يخشى الله، فيسكتُ عن الحق، أو يَتَكَلَّم بالباطل خشيةَ الناس، أو خوفاً من ردة فعل السلطان، أو ضغط أهل الباطل في وسائل الإعلام.. فيسكت عن بيان الحق أو يسكت عن النهي عن الباطل.

---

(1) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

(2) سورة آل عمران ، الآية ٨ .

(3) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٥) .

(4) سورة الرعد ، الآية ٢٨.

وأعظَمُ من ذلك أن يتكلَّم بالباطل خوفاً منهم. والصواب أن يُبَيِّن الحقَّ بالأسلوبِ الأمثل ولا يخاف لومة لائم.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[1].

وقال الله تعالى: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}[2].

وسبب خوف بعض الناس من غير الله هو الشيطان الذي يوسوس لهم ويخوفهم من أوليائه الظلمة. فالحذر الحذر من ذلك وإنما الواجب أن يُخْلصِ عبادة الخوف لله وحده. قال الله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[3]. وقال الله تعالى: {فلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}[4]، وقال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[5].

اللهم أصلح قلوبنا وطهرها وارزقنا خشيتك بالغيب والشهادة. والحمد لله رب العالمين.

الآثار الإيمانية المترتبة عند الخشية من الله:

١) الخشية من الله خلق لا يتَّصف به إلا عباد الله المتقون وأولياؤه المحسنون.

٢) الخشية من الله تُبعد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والسيئات.

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٧٧ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٥ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٣٩ .

٣) الخشية من الله سبب لإخلاص العمل لله تعالى؛ قال النبي ﷺ: (أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك)[١].

[١] رواه مسلم (١/ ٤٠).

أثر الصبر في تزكية النفس

إنَ أهم ما يُلزم على الإنسان في هذه الحياة بعد العلم بحقيقتها وآفاقها وغاياتها من خلال الإيمان بالله سبحانه ورسله الى خلقه والدار الآخرة هو توعيته لنفسه وتزكيته إياها، بتحليتها بالفضائل وتنقيتها من الرذائل، حتى يتمثل علمه في عمله واعتقاده في سلوكه، فيكون نوراً يستضيء به في هذه الحياة ويسير بين يديه وبإيمانه في يوم القيامة.

لا ينبغي ان يتكاسل المرء ويصطنع لنفسه المعاذير، بل عليه أن يكون صبوراً على القيم والممارسات الفاضلة، قال سبحانه وتعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)[1] وليتذكر ما ورد في القران الكريم والاثر من أحوال الصالحين وصبرهم على العبادة ومكارم الاخلاق.

ولا يخلطن المرء بين الكبت والصبر، فإن الكبت خديعة للنفس وصدٌّ لها من غير وجه حكمة أو فضيلة، وأما الصبر فتبصرة ثبات طلباً للحكمة ورجاء للفضيلة.

ما أشد الحاجة إلى الصبر، لاسيما في هذه الأزمان التي اشتدت فيها الغربة، وكثرت فيها الفتن، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر.

إن هذه الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء، فلا يسلم المؤمن في هذه الدار الدنيا من المصائب، فمن فيها لم يصب بمصيبة؟!

المرء رهن مصائب لا تنقضي.. ... ..حتى يوسد جسمه في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلقى الردى في غيره.. ... ..ومعجَّل يلقى الردى في نفسهِ

---

(1) سورة طه ، الآية ١٣٢ .

تعريف الصبر:

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به صاحبه من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل.

وقد عرفه بعضهم بأنه: حبس النفس عن الجزع[١]، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم، وشق الجيوب، ونحو ذلك[٢].

فضيلة الصبر والصابرين:

إن الله تعالى قد جعل للصابرين ما ليس لغيرهم؛ قال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[٣] .

والمصيبة كل ما يؤذي الإنسان ويصيبه، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: نعم العدلان، ونعمت العلاوة للصابرين[٤]. يقصد بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى.

وقال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[٥].

- كما فاز الصابرون بمعية الرحمن، (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [٦]، فهو معهم يثبت قلوبهم ويحوطهم بعنايته وتأييده.

---

(١)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٠٦)و مختار الصحاح (ص: ١٧٢)وتاج العروس (١٢/ ٢٧٢) .

(٢) انظر عدة الصابرين (ص: ١٥) ومدارج السالكين (٢/ ١٥٥) .

(٣) سورة البقرة ، الآيات ١٥٥-١٥٧ .

(٤) رواه البخاري (٢/ ٨٣) .

(٥) سورة الزمر ، الآية ١٠ .

(٦) سورة الأنفال ، الآية ٤٦ .

- والصابرون هم أهل الإمامة في الدين: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)[١] .

- وهم أهل محبة الله: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)[٢] .

- ثم هم يفوزون بالجنة و النجاة من النار: (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)[٣] .

- وما من مصيبة تصيب العبد إلاَّ كفر الله بها عنه.

وإليك أيها القارئ الكريم هذه الطائفة العطرة من أقوال المصطفى ﷺ في فضيلة الصبر والصابرين:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر"[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه" أي يصيبه ببلاء[٥]؟.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما من مصيبة تصيب المؤمن إلاَّ كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يُشَاكُها[٦]".

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا [٧].

---

(١) سورة السجدة ، الآية ٢٤.
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤٦.
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١١١ .
(٤) رواه البخاري (٢/ ١٢٢)ومسلم (٢/ ٧٢٩) .
(٥) رواه البخاري (٧/ ١١٥) .
(٦) رواه البخاري (٧/ ١١٤)ومسلم (٤/ ١٩٩٢) .
(٧) رواه البخاري (٤/ ٥٧) .

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي. قال: "إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيكِ". فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله لي ألاَّ أتكشف، فدعا لها"[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الجنة ثم احتسبه إلاَّ الجنة"[(٢)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة"[(٣)].

وعن أم سلمة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[(٤)]، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلاَّ أخلف الله خيرًا منها". فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ."[(٥)]. :.

السلف الصالح والصبر*

قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلاَّ كان ما عوضه خيرًا

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١١٦)و مسلم (٤/ ١٩٩٤).
(٢) رواه البخاري (٨/ ٩٠).
(٣) رواه البخاري (٧/ ١١٦).
(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
(٥) رواه مسلم (٢/ ٦٣١).

مما انتزعه[1].

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن؛ ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم يصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه[2].

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: (سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)[3]. قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عمَّا نهو عنه[4].

وقالوا: الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر.

وقال أبو الدرداء ﷺ: إنا لله عز وجل إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به[5].

وقالت رابعة: إن الله عز وجل إذا قضى لأوليائه قضاءً لم يتسخَّطُوه[6].

وقال الحسن: من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه[7].

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٣٧١) وابن أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه (ص: ٣٠) وانظر عدة الصابرين (ص: ٩٥)و إحياء علوم الدين (٤/ ٧٢)و تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ٢٣١) .

(2) رواه أبو نعيم حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢٦٢)وابن أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه (ص: ٨٥)وانظر عدة الصابرين (ص: ٩٧) .

(3) سورة الرعد ، الآية ٢٤ .

(4) عدة الصابرين (ص: ٧١)و غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٢٣)ل شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى : ١١٨٨هـ) .

(5) رواه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (ص: ٤٧)وانظر جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٦)و وصايا العلماء عند حضور الموت لابن زبر الربعي (ص: ٥٦)ل أبي سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن خالد بن عبد الرحمن بن زبر الربعي (المتوفى: ٣٧٩هـ) ومختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٥٣) .

(6) الثبات عند الممات (ص: ٣٥)ل جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) .

(7) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٥٤) .

وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء[1].

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر – جمع بعير – كثيرة فقال:

لاَ والذي أنا عبدٌ في عبادَته.. ... ..لولا شمَاتَةُ أعداءٍ ذَوي إِحَنِ

ما سرَّني أنَّ إبلي في مَبَارِكَها.. ... ..وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكُنِ[2]

دوافع تعين على الصبر:*

هناك أمور كثيرة تعين على الصبر، وسنسردها سردًا بغير ذكرٍ لأدلتها خشية الإطالة، ومنها:

١- تدبر الآيات والأحاديث الواردة في فضيلة الصبر.

٢- اليقين بأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله تعالى.

٣- تذكر كثرة نعم الله عليه.

٤- العلم بأن الجزع وقلة الصبر لا ترد المصيبة.

٥- استحضار الأجر والثواب، والتفكر في عاقبة الصبر.

٦- العلم بأن اختيار الله له أحسن من اختياره لنفسه.

٧- استحضار أن أشد الناس بلاءً الأنبياء والصالحون.

٨- أن يعلم أن زمن البلاء ساعة وستنقضي.

٩- مطالعة سير السابقين من الصالحين، ودراسة مواقفهم المباركة في الصبر ليأنس بهم.

---

(١) فيض القدير (٦/ ١٣٨).

(٢) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠) ومختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٥٤).

نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين..

للاستزادة:*

- عدة الصابرين؛ للإمام ابن القيم رحمه الله.
- مواقف إيمانية؛ الشيخ. أحمد فريد.
- صلاح الأمة؛ الشيخ. سيد حسين عناني.
- الأخلاق الإسلامية؛ الشيخ. عبد الرحمن حنبكة الميداني.

أثر الصدق في تزكية النفس

الصدق من أجَلِّ الأخلاق وأعظمها، وهو منبع كثير من الفضائل الخلقية حيث يتشعب منه الأمانة والعفة والوفاء والشجاعة وغيرها، وهو غير قاصر على صدق القول بل يشمل صدق الفعل والحال، كما قال المحاسبي: "الصدق في ثلاثة أشياء لا يتم إلا بها صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام"[(١)].

وصدق الحال أن يتطابق ما بين ظاهر المرء وباطنه، فلا يكون مرائيًا أو متظاهرًا بما ليس حقيقة واقعة فقد قال المصطفى ﷺ: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور»[(٢)].

وصدق الفعل هو مطابقة فعل الإنسان لقوله، فإن وعد وفى، وإن استعد لأمر أمضاه. وكذب الفعل أشنع من كذب القول؛ لأنه يظهر فيه القصد والعمد بشدة كما فعل إخوة يوسف وجاءوا على قميصه بدم كذب.

وقد وردت مخالفة الفعل للقول في معرض التحذير والذم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}[(٣)].

وصدق القول هو الأشهر والأظهر، فكل قول خالف الحقيقة فهو كذب {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}[(٤)].

---

(١) رسالة المسترشدين (ص: ١٧٠) للحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٥) ومسلم (٣/ ١٦٨١).

(٣) سورة الصف، الآية ٢.

(٤) سورة يونس، الآية ٦٩.

. والصدق له مكانة عظيمة في الإسلام فبه "تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال"[١] .

. وقد أمر الله به المؤمنين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[٢] ، ووعدهم بأجزل المثوبة عليه فقال: {لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ}[٣] ، وبيّن لهم أن عاقبته في الدنيا خير: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}[٤]، ونوّه بأثره في الآخرة فقال: {هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}[٥].

والصدق هو الخُلق الذي اتصف به الرسول ﷺ قبل بعثته حتى لُقِّب بالصادق الأمين، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام آثار كل من الصدق والكذب النفسية فقال: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة» [٦] .

فالصادق مطمئن النفس منشرح الصدر عالم بأنه أخبر بالحق ونطق بالصدق فلا يخشى أن ينكشف شيء على خلاف ما قاله، وعنده توافق بين ظاهره وباطنه فلا تناقض ولا تعارض، بينما الكذب يُبقي صاحبه في شك وحيرة واضطراب فلا هو مطمئن ولا متوافق مع نفسه لأنه يعلم أنه قال أو فعل خلاف الحق، ولا هو مرتاح في تعامله مع الآخرين، لخوفه أن ينكشف أو يفتضح أمره، وإضافة لذلك بيّن عليه الصلاة والسلام مآل كل منهما فقال: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص٣٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٩ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٤ .

(٤) سورة محمد ، الآية ٢١.

(٥) سورة المائدة ، الآية ١١٩ .

(٦) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨)و أحمد (٣/ ٢٤٩) والحاكم (٤/ ١١٠)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧).

صِدّيقًا، والكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»[١] .

كما بيّن أثرهما في التعامل بين الناس فقال شأن المتبايعين: «فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[٢] .

الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه. ويقال: صدق فلان في الحديث صدقًا: أخبر بالواقع[٣] .

والصدق يدعو إليه العقل والشرع، بخلاف الكذب. ومن هنا جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة، حتى تصل إلى درجة التواتر، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة[٤].

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، يقول بعض العلماء: «واعلم -رحمك الله- أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس، وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم... فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقًا، وصدق النية فى الأعمال، وصدق اللفظ فى الكلام»[٥].

وإنما كان الصدق فضيلة؛ لأنه أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقى المجتمع؛ ذلك لأنه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٥)ومسلم (٤/ ٢٠١٢) .

(٢) رواه البخاري (٣/ ٥٨)ومسلم (٣/ ١١٦٤).

(٣) المعجم الوسيط، (١/ ٥٣٠) .

(٤) أدب الدنيا والدين، الماوردى، (ص ٢٦٠-٢٦١).

(٥) رسالة المسترشدين، المحاسبى، (ص ١٧١) .

التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما فى نفسه من الحقائق إلى الآخرين، وهذا هو الصدق[١].

وقد حث الإسلام على الصدق وبيّن فضائله، وأكد أنه من صفات النبوة، يقول تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا }[٢] ويقول الله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)[٣] وأمر عباده المؤمنين بالصدق، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }[٤] .

ومن أهم فضائل الصدق:

١- أن الصدق في القول يؤدى إلى الصدق في العمل والصلاح في الأحوال:

يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }[٥] فالصدق في القول يؤدى إلى الصدق في الفعل، وهذا هو العمل الصالح[٦].

٢- الصدق يهدى الإنسان إلى البر والخير:

يقول – ﷺ-: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله

---

[١] كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص ١٩٩-٢٠٠.

[٢] سورة مريم ، الآية ٤١ .

[٣] سورة مريم ، الآية ٥٤ .

[٤] سورة التوبة ، الآية ١١٩ .

[٥] سورة الأحزاب ، الآيات ٧٠-٧١ .

[٦] الأخلاق الإسلامية، د. عبد اللطيف العبد، ص ١٥١-١٥٢.

صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1]،[2].

والبر الذى يهدى إليه الصدق هو الذى بيّنه الله – عز وجل – فى قوله تعالى: { لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }[3].

٣– الصدق فيه النجاة:

يقول تعالى: { قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[4] . أي أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة.

وفى الحديث: «تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»[5].

٤– الصدق فيه الربح والفوز:

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما: «أربع من كن فيه ربح: الصدق، والحياء وحسن الخلق، والشكر».

---

[1] تقدم تخريجه .

[2] مكارم الأخلاق، ابن أبى الدنيا، ص ٤٥،

[3] سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

[4] سورة المائدة ، الآية ١١٩ .

[5] رواه ابن أبى الدنيا في كتاب الصمت عن منصوربن المعتمر مرسلاً، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير، وكنز العمال،(٣٤٥/٣).

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما– أن النبى – ﷺ – قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة»[1].

مراتب الصدق:

أشار الإمام أبو حامد الغزالي إلى أن للصدق مراتب عديدة نلخصها فيما يلى:

١– صدق اللسان: وذلك لا يكون إلا في الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار ماضيًا أو مستقبلا، ويندرج تحته الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأشهرها.

٢– الصدق في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو ألا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى. فإن مازجه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذابًا.

٣– صدق العزم: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه، إن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها. فهذه عزيمة تحتاج إلى صدق؛ لأنه بمنزلة التمام والقوة لها كيلا يضعف أو يتغير وقت التنفيذ. ولذلك روى الإمام مسلم عن سهل بن حنيف –رضى الله عنه– أن النبي – ﷺ – قال: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[2].

---

[1] رواه أحمد (١١/ ٢٣٣)والطبراني جـ١٣، ١٤ (ص: ٣٢٢) والبيهقي (٧/ ٢٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢١٢).

[2] رواه مسلم (٣/ ١٥١٧).

٤- الوفاء بالعزم: ذلك أن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم. لكن إذا حقت الحقائق وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، ولم يتفق الوفاء، ولهذا مدح الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذى وفوا بعزائمهم فقال سبحانه { رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }[١].

٥- الصدق في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، وعلى المسلم هنا أن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر.

٦- الصدق في مقامات الدين: وهو أعلى الدرجات وأعزها، ومن أمثلته: الصدق في الخوف، والرجاء، والتعظيم، والزهد، والرضا، والتوكل، وحب الله تعالى، ورسوله – ﷺ."[٢] .

آثار الصدق ونتائجه:

للصدق آثار عظيمة، ونتائج جليلة منها :

١- للصدق رابطة قوية بالإيمان، فالصادق قوى الإيمان، والكاذب لا إيمان له،

٢- الصدق يجعل صاحبه قليل الكلام، محتاط في استعماله، حتى لا يقع في زلات كثيرة، فإذا وجدت الرجل يكثر الكلام، فاعلم أنه على خطر عظيم، قال رسول الله –ﷺ-: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[٣].

٣- الصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد، ولذلك جاء في تعريفات الصدق: «القول بالحق في مواطن الهلكة»[٤].

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٨٩) .

(٣) رواه مسلم (١/ ١٠) .

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٨.

٤- من آثار الصدق -أيضًا- تفريج الهم، والنجاة من الكرب، كما في قصة كعب بن مالك - رضى الله عنه- وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، فقد عاقبهم رسول الله -ﷺ- بنهى المسلمين عن كلامهم خمسين يومًا، وقد شق ذلك عليهم، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة، فاتصل ملك غسان بكعب، يعرض عليه أن يلجأ إليه، فيواسيه، ويترك الإسلام، فرفض كعب، ولما تاب الله عليهم ذهب إلى رسول الله -ﷺ- وقال له: «يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت»[١].

٥- من آثار الصدق -أيضًا- الهدوء النفسي والطمأنينة القلبية، يقول النبي -ﷺ-: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[٢].

إن الإسلام لا يعلِّم المسلمين فضيلة الكلمة الصادقة وحسب، ولكنه يعلمهم أيضًا كيف يجب أن يكون تلقيهم لها، وكيف يجب أن تكون كفالتهم لها ولأهلها، وكيف يجب أن يكون مسلكهم إزاء الكذب والتضليل[٣].

ولا يدين الإسلام الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من الرذائل، ودرجات من الإثم، كلها تتصل بانتهاك المعرفة الصحيحة[٤].

والمسلم الحق هو الذى لا يستحل الكذب أبدًا، مهما نال بسببه من مكاسب، فما قيمة مكسب دنيوى رخيص يغضب الله عز وجل!!

وعلى الذين يحلفون كذبًا لترويج سلعة ما، أن يتوبوا إلى ربهم، ويعلموا أن هذا حرام وباطل، وأن بركته ضائعة. وعلى أصحاب المهن والصنائع أيضًا، أن يستغفروا ربهم من تلك الذنوب التي يقعون فيها، نتيجة المماطلة وخلف

---

[١] رواه مسلم (٤/ ٢١٢٧).

[٢] تقدم تخريجه.

[٣] الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى.(ص ١٦٥-١٦٦).

[٤] الفضائل الخلقية في الإسلام، (ص ١٣٧-١).

الوعد وتغيير العقود والعهود. ومثلهم -أيضًا- أصحاب الولايات والمناصب، الذين يصرحون بأنهم سيفعلون كذا وكذا، وتتعلق أفئدة الجمهور بهم، ثم لا يفوا بمعشار ما أعلنوا. وكان بإمكانهم أن يؤجلوا الإعلان بعد العمل، حتى لا تضعف ثقة الجمهور فيهم، ولا يقتدى بهم العامة، فيظهر الفساد في البر والبحر. ـــــ

أثر الإستغفار في تزكية النفس

الاستغفار هو طلب المغفرة، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها، أي أن الله عز وجل يستر على العبد فلا يفضحه في الدنيا ويستر عليه في الآخرة فلا يفضحه في عرصاتها ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته .

وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله تعالى (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١] ،وتارة يمدح أهله كقوله تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)[٢]: ، وتارة يذكر الله عز وجل أنه يغفر لمن استغفره كقوله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً) [٣].

وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء، إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لاسيما إذا خرج من قلب منكسر بالذنوب، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات، وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة، كما في حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: " سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "[٤] .

وقوله: " أبوء لك بنعمتك علي " أي أعترف لك، و " أبوء بذنبي " أي أعترف وأقر بذنبي .

---

(١) سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٠ .

(٤) رواه البخاري (٨/ ٦٧) .

وفي حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: قل: " اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم [1].

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: " أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه [2]" .

وقد ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من قاله: " غفر له وإن كان فر من الزحف " .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن كنا لنعد لرسول الله ـ ﷺ ـ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: " رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور [3].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "[4].

وعن النبي ـ ﷺ ـ قال: " إنه لَيُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة [5]" .

وقد ورد في حديث أنس أهم الأسباب التي يغفر الله عز وجل بها الذنوب، فقال ـ ﷺ ـ قال الله تعالى: " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني

---

(1) رواه البخاري (١/ ١٦٦)و مسلم (٤/ ٢٠٧٨) .

(2) رواه أبو داود (٢/ ٨٥)والترمذي (٥/ ٥٦٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٢)و صحيح وضعيف سنن أبي داود (ص: ٢، بترقيم الشاملة آليا) .

(3) رواه الترمذي (٥/ ٤٩٥) وأحمد (٨/ ٣٥٠)والنسائي (٩/ ١٧٢) وابن ماجه (٤/ ٧١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٥٦) .

(4) رواه البخاري (٨/ ٦٧) .

(5) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)

غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة[1] .

وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة:

أحدها: الدعاء مع الرجاء: فإن الدعاء مأمور به موعود عليه بالإجابة، كما قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[2]، فالدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه، ومن أعظم شرائطه حضور القلب ورجاء الإجابة من الله تعالى، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يرج مغفرة من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره فقوله: " إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي " يعني على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاظمني ذلك ولا أستكثره .

وفي الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء[3].

فذنوب العباد وإن عظمت فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها، كما قال الإمام الشافعي عند موته:

وَلما قَسَا قَلْبِي وَضَاقَت مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمًا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعظَمَ

الثاني: الاستغفار: فلو عظمت الذنوب وبلغت الكثرة عنان السماء ـ وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر منها ـ ثم استغفر العبد ربه عز وجل، فإن الله يغفرها له .

---

(1) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٩٩) .

(2) سورة غافر ، الآية ٦٠ .

(3) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٣) .

روي عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني عود لسانك اللهم اغفر لي فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً [١].

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متي تنزل المغفرة[٢] .

الثالث: التوحيد: وهو السبب الأعظم ومن فقده حُرِمَ المغفرة، ومن أتى به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[٣] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معنى قوله: " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة" يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضةٌ، والدافع لها قوي، ومعنى " قُراب الأرض " ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذب بعدله وحكمته، وهو المحمود على كل حال[٤] .

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه والسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٨)و مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (ص: ٢٥)ل عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعي، وجيه الدين، المعروف بابن الديبع (المتوفى: ٩٤٤هـ) و أسباب المغفرة (ص: ٣،) لابن رجب الحنبلي .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٨)و سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ٧٣٩) .

(٣) سورة النساء ، الآية ٤٨ .

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٦٤) .

سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلاً، وحينئذٍ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات[1] .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كما أن الله عز وجل لا يقبل طاعات المشركين فنرجو أن يغفر الله عز وجل ذنوب الموحدين أو معناه[2] .

الآثار في فضل الاستغفار:

قالت عائشة ﵂ ـ: طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا [3].

وقال علي ﵁ ـ: ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه [4].

وقال قتادة رحمه الله ـ: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار[5].

وسمعوا أعرابيًا وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري لَلَؤمٌ، وإن تركي استغفارَكَ مع

---

(1) انظر فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٧/ ٢١٢، بترقيم الشاملة آليا) .

(2) المرجع السابق .

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٥١) من قول عائشة ﵂ ورواه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٤)مرفوعا عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ وانظر صحيح الجامع (٢/ ٧٢٩) .

(4) انظر إحياء علوم الدين (١/ ٣١٣)و الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٤٧٤)

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٤٧) وابن أبي الدنيا في التوبة (ص: ٨٩) .

علمي بسعة عفوك لعجزٌ، فكم تتجبب إليَّ بالنعم مع غناك عني، وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وَفّى، وإذا أوعد عفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين[1] .

لكن قوله: " إذا أوعد عفا " مخالفٌ لعقيدة السلف ـ ﷺ ـ فوعد الله عز وجل ووعيده حق، كما قال تعالى: (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيّ)[2] .

فهو سبحانه إن شاء عفا وإن شاء عاقب، نسأل الله المغفرة والعفو والعافية.

فلا شك أن الاستغفار له أثر عظيم في صلاح العبد وسعادته واستقامة أحواله وتخلصه من الآثام والشرور والفتن.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يواظب على الاستغفار مائة مرة في اليوم والليلة كما ثبت في الصحيحين قال النبي ـ ﷺ ـ: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[3].

إن الاستغفار يقوي صلة العبد بربه ويجدد العهد مع الله ويحقق عبوديته لأن حقيقته يقول العبد أنا عبدك يا ربي قد أذنبت وقصرت في حقك فاغفر لي ذنبي واسترني وتجاوز عني.

إن الاستغفار يتضمن اعتراف العبد بفقره لمولاه وحاجته لرحمته وإحسانه ولذلك جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع رسول ﷺ يقول: " إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا – وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا – فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ – فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – أَوْ أَصَبْتُ – آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ:

---

(1) انظر إحياء علوم الدين (١/ ٣١٣)ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٧٤) .

(2) سورة ق ، الآية ٢٩ .

(3) تقدم تخريجه .

قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ – أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ – آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاَثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ ")[1].

إن الاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا والرزايا ولذلك جاء في الحديث: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم)[2].

إن الاستغفار يحقق للعبد الرضا والطمأنينة وراحة البال لأن القرب من الله يورث العبد ذلك. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً)[3].

إن الاستغفار يطرد الهم ويزيل الغم ويجعل روح المؤمن في سعادة وسرور وحبور .

إن الاستغفار طريق لمحبة الله والفوز بمرضاته لأن الله يحب التوابين كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)[4].

وإذا استشعر المؤمن هذا المقام أكسبه ذلك سعادة وفرحة وبهجة لا يحيط بها وصف ولا تفسرها كلمات.

إن الاستغفار يهذب النفس ويزكي الروح ويكسبها خشوع وسكينة وهدوء لأنه يطهر القلب من الأدران ويطرد الشيطان ويصقل الروح ويطيب الخاطر ومن واظب عليه عاش لحظات سعيدة من عمره.

إن الاستغفار يورث القلب انكسارا والجوارح تواضعا ويخلص العبد من الكبر والخيلاء لأن المستغفر يشعر بحسرة الذنب قد كسرت قلبه المعصية ويطلب الستر مطأطئ الجناح وهذا المقام ينافي الكبر ويقتضي الإخبات.

---

(1) رواه البخاري (٩/ ١٤٥) واللفظ له ،ومسلم (٤/ ٢١١٢)

(2) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤) .

(3) سورة هود ، الآية ٣ .

(4) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .

إن كثرة الاستغفار يحفظ اللسان من الآثام والعين من الخيانة والجوارح من الذنوب.

إن الاستغفار أعظم دواء وشفاء لمن أسرف على نفسه بالسيئات وصار أسيرا للشهوات وأراد أن يحرر نفسه ويعتقها من عبودية الشيطان. قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب وأما دوائكم فالاستغفار)[1].

إن الاستغفار يحمل العبد على رحمة الخلق ولين الجانب معهم والتجاوز عن زلاتهم لأن المستغفر يطلب التجاوز والرحمة من المولى فلا يليق بحال المستغفر أن يؤاخذ غيره ممن أخطأ في حقه وينزل به العقوبة ولا يسامح. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[2].

ومن طمع في رحمة الله ومغفرته فليرحم الخلق لتتنزل عليه الرحمات والنفحات.

إن كثرة الاستغفار ولزومه يحل الأزمات ويرفع البلاء وينفس الكرب ويحقق الفرج بعد الشدة.

إن الاستغفار يجلب الرزق ويبارك فيه ويوسع على العبد في دنياه وله أثر عظيم في تيسير الأمور. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً)[3].

إن الاستغفار سبب عظيم بإذن الله لرزق العبد نعمة الولد. قال تعالى: (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)[4]. ومن كان عقيما أو عنده مشكلة في الإنجاب فليكثر من الاستغفار.

---

(1) تقدم تخريجه .

(2) رواه أبو داود (٤/ ٢٨٥)والترمذي (٤/ ٣٢٤)أحمد (١١/ ٣٣)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٦١) .

(3) سورة نوح ، الآيات ١٠-١١ .

(4) سورة نوح ، الآية ١٢ .

إن الاستغفار يزيد المؤمن قوة في بدنه وماله وولده وأهله ويقيه من الآفات والعلل. قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)[1].

إن الاستغفار يمنع من نزول العقوبة على العبد في الدنيا ويدرأ عنه العذاب في الآخرة. قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[2].

ويستحب الاستغفار للمؤمن في كل ساعة من ليل ونهار ولكنه يتأكد في مواطن:

١- في السحر. قال تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)[3].

٢- عند الفراغ من صلاة الفريضة كما ثبت في السنة. والفراغ من الحج.

٣- عند الوقوع في الذنب. قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)[4].

٤- عند حصول الغفلة والتعرض للشبهات والشهوات.

والاستغفار يجزئ بأي صيغة تتضمن طلب المغفرة والستر من الرحمن كقولك: أستغفر الله. أو أستغفر الله وأتوب إليه. وقد ورد في النصوص بصيغ متنوعة ومن أفضل الصيغ ما ورد في صحيح البخاري عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: (سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على

---

(١) سورة هود، الآية ٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٤.

(٣) سورة ال عمران، الآية ١٧.

(٤) سورة النساء، الآية ١١٠.

عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[١].

وكذلك ما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[٢].

فينبغي للمؤمن أن يغتنم فراغه بالاستغفار ويعود لسانه على المواظبة عليه ويستكثر منه. قالت أم المؤمنين عائشة ﵂: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا)[٣].

وقال الحسن: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة)[٤].

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

تزكية النفس تولد الأمانة العامة

التزكية هي الممارسة الأساس من بين جميع مهام الاستخلاف الإيماني، لأن بناء النفوس القوية الأمينة تظل شرطا أوليا لكل المهام الاستخلافية التي يزاولها الإنسان في الواقع.

ـ إن التزكية هي الغاية والوسيلة معا لكل تربية جديرة بالانتماء للإسلام، سواء كانت تربية فردية أو جماعية، أو كانت تربية مجتمعية عامة أو تربية مدرسية خاصة.

الأمانة في الشرع لها معنيان ؛ معنى عام وآخر خاص .

فالمعنى العام: هو أنها تتناول جميع أوامر الشرع ونواهيه .

ومما يدلّ على ذلك ؛ قول الله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[1].

ساق ابن كثير رحمه الله تعالى مجموعة من أقوال علماء السلف في تفسير لفظ " الأمانة "، ثمّ قال:

" وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها: التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان " انتهى[2]".

وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ؛ حيث قال:

---

(1) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ .

(2) تفسير ابن كثير " (٦ / ٤٨٩) .

" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عُنِي بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس . وذلك أن الله لم يَخُصّ بقوله (عَرَضْنَا الأَمَانَةَ) بعض معاني الأمانات لما وصفنا " انتهى[1]"

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والأمانة تعمّ جميع وظائف الدّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور انتهى[2]".

وقال الله تعالى:(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)[3].

قال الشيخ المفسر مُحَمَّد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: والأمانة تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس ... انتهى[4] ".

والمعنى الخاص للأمانة:

تواترت نصوص الشرع على الأمر بحفظه، وعدم تضييعه، أو خيانته ؛ واشتهر في كتب أهل العلم والفقه، وعلى ألسنة الناس، ولعله هو مراد السائل هنا بسؤاله عن الأمانة .

والمراد بها على ذلك: كل ما يجب على الإنسان حفظه وأداؤه من حقوق الآخرين .

ولها ثلاث صور مشهورة:

الصورة الأولى: الحقوق المالية الثابتة بعقود، كالودائع، والقروض، والإجارات ونحوها، أو بدون عقود كاللقطة وما يجده الإنسان من أموال الناس الضائعة منهم .

---

(1) تفسير الطبري " (١٩ / ٢٠٤ - ٢٠٥).

(2) تفسير القرطبي " (١٧ / ٢٤٤)

(3) سورة المؤمنون ، الآية ٨ .

(4) أضواء البيان " (٥ / ٨٤٦)

جاء في " الموسوعة الفقهية الكويتية ":

" وبالتتبع تبين أن الأمانة قد استعملها الفقهاء بمعنيين:

أحدهما: بمعنى الشيء الذي يوجد عند الأمين، وذلك يكون في:

أ – العقد الذي تكون الأمانة فيه هي المقصد الأصلي، وهو الوديعة، وهي العين التي توضع عند شخص ليحفظها، فهي أخص من الأمانة، فكل وديعة أمانة ولا عكس.

ب – العقد الذي تكون الأمانة فيه ضمنا، وليست أصلا، بل تبعا، كالإجارة والعارية والمضاربة والوكالة والشركة والرهن .

ج – ما كانت بدون عقد، كاللقطة، وكما إذا ألقت الريح في دار أحد مال جاره، وذلك ما يسمى بالأمانات الشرعية " انتهى[1] .

الصورة الثانية: حفظ أسرار الناس .

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا)[2].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ الْتَفَتَ: فَهِيَ أَمَانَةٌ) [3].

---

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية " (٦ / ٢٣٦) .

(2) رواه مسلم (٢/ ١٠٦١) .

(3) رواه أبو داود (٤/ ٢٦٧)و الترمذي (٤/ ٣٤١) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٨١) .

الصورة الثالثة: المسؤوليات والمناصب العامة والخاصة: فهي أمانة يجب القيام فيها بالحق والعدل، فمنصب الحكم أمانة، ومنصب القضاء أمانة، ومنصب المدير في أي مؤسسة أمانة، ومسؤولية الأسرة أمانة، وهكذا كل المسؤوليات والمناصب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: (إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)[1] .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[2] ".

ثانيا: الواجب في الأمانات العامة والخاصة أن تحفظ وتؤدى على الوجه المطلوب شرعا، ويحرم إضاعتها وخيانتها .

قال الله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [3].

وقال الله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)[4].

وخيانة الأمانة علامة من علامات النفاق .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[1] .

([1]) رواه البخاري (٨/ ١٠٤) .

([2]) رواه مسلم (٣/ ١٤٥٧) .

([3]) سورة الأنفال ، الآية ٢٧ .

([4]) سورة النساء ، الآية ٥٨ .

ثالثا: خيانة الأمانة هي ذنب من الذنوب، وكبيرة من الكبائر . ورغم عظم هذا الذنب إلّا أنّ باب التوبة مفتوح .

قال الله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[٢] .

وقال الله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)[٣] .

وعن أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيهِ)[٤] .

والتوبة الصادقة النصوح: هي المسارعة إلى ترك الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العودة إليه .

ثمّ ينظر المذنب المضيع للأمانة ؛ فإذا كانت هذه الأمانة التي أضاعها تتعلق بحقوق الله، فيجب . زيادة على التوبة والاستغفار .: أن ينظر إذا ما كان هناك تكليف شرعي لجبر هذه الإضاعة فيجب القيام به، كالقضاء أو الكفارة . فمثلا المضيع لأمانة الصوم بأن أفطر متعمدا في رمضان، عليه، مع توبته، قضاء الأيام التي أفطرها، وإذا كان إفطاره حصل بجماع: فعليه أن يؤدي الكفارة، وهكذا باقي أمور الشرع.

أمّا إذا كانت الأمانة التي خانها تتعلق بحقوق الناس، فعليه، مع ما سبق بيانه من أمر توبته: أن يؤدي الحق إلى صاحبه، أو يطلب منه العفو والمسامحة .

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦)و مسلم (١/ ٧٨) .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٢٥ .

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٦) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ)[1] .

قال النووي رحمه الله تعالى: " قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية .

والثاني: أن يندم على فعلها .

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه: رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مَكَّنَه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة: استحله منها " انتهى[2] "

---

(1) رواه البخاري (٣/ ١٣٠) .

(2) انظر رياض الصالحين (ص: ٣٣)و شرح النووي على مسلم (٢/ ٤٥) .

اثر الكسب الحلال والطعام الحلال في تزكية النفس

أحلّ لنا الطيّبات وحرّم علينا الخبائث، وجعل ذلك من صفات نبيه ﷺ المذكورة في الكتب السابقة، قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[1].

الأصل في الأشياء الإباحة

الأصل في الأشياء الإباحة، أما المحرمات إنما هي أشياء مستثناة، قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}[2].

فالحلال الطيب هو الأصل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[3]، وقال: {يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[4]، وقال أيضًا: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ

---

(1) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(2) رواه المائدة ، الآية ٣ .

(3) سورة البقرة ، الآية ١٦٨ .

(4) سورة المائدة ، الآية ٤ .

لَهُمْ}[1]، وطعام الذين أوتوا الكتاب هي ذبائحهم باتفاق المفسرين إذا ذبحوا بمُحدد في مَنحرٍ جاز لنا أن نأكل منها.

لا تحرموا الطيبات

قد يترك الإنسان ما يشتبه ويختلط عليه تورعًا، والورع من الدين، ولكن لا يسعه تحريم الطيبات بمقتضى ذلك على عموم الخلق. قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}[2] . وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[3] . وقال: {وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}[4].

إن تحريم الطيبات كاللحم والسمك والخضروات والفاكهة لا يقل في خطورته عن تحليل الحرام كالخمر والزنى والقمار.. بل قد يزيد، إذ تحريم الحلال قرين الشرك، ففي الحديث القدسي: "إني خلقت عبادي حنفاء وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا[5]".

فإذا ثبت حصول المضرة، فالضرر يُزال، والضرورة تُقدر بقدرها، ولا يجوز المغالاة في تحريم الطيبات بتحاليل معملية أو فحوصات مجهرية، فالنجاسة تُعرف بلون أو طعم أو رائحة.

---

(1) سورة المائدة: ، الآية ٥ .
(2) سورة الأعراف ، الآية ٣٢ .
(3) سورة المائدة ، الآية ٨٧ .
(4) سورة النحل ، الآية ١١٦ .
(5) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧) .

شريعة ترفع الحرج وتبيح الطيبات

إنّ من سمات هذه الشريعة المطهرة رفع الحرج والأصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، ومن صور ذلك إباحة الطيبات.

وقد وردت النصوص والآثار تدل على ذلك، فعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا، وكسبه من طيّب"[(١)] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيّب، إلا أخذها الله بيمينه، فيُربيها كما يُربي أحدكم فلوَّه أو قَلوصَه، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم [(٢)]" .

وعن المقدام بن معد يكرب الزُّبيدي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده. وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة"[(٣)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيُّها الناس، إنّ الله طيبٌ لا يقبل إلاّ طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[(٤)] ، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[(٥)] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمُدُّ يديه

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٨٤) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٩/ ١٢٦)ومسلم (٢/ ٧٠٢) واللفظ له .

(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٨) .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟"[1].

أفضل الكسب ما كان من عمل اليد

وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنّ أطيب ما أكل الرّجل مِن كسبِهِ، وإنّ ولده من كسبه"[2].

وعن أبي هريرة ﵁ عن النّبيّ ﷺ قال: "خير الكسب كَسْبُ يَدِ العامل إذا نصح"[3].

وعن الزُّبير بن العوام ﵁ عن النّبيّ ﷺ قال: "لأن يأخذ أحدكم أحبلاً فيأخذ حزمة من حطبٍ فيبيع فيكُفَّ الله بها وجهه خيرٌ من أن يسأل الناس أُعطي أم مُنع"[4].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: "لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به ويستغني به من الناس، خيرٌ له من أن يسأل رجلاً، أعطاه أو منعه ذلك، فإنّ اليد العُليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول[5]" .

وعن المقدام ﵁ عن النّبيّ ﷺ قال: "ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[1]

---

(1) رواه مسلم (٢/ ٧٠٣).

(2) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٢٣) و أحمد (٤٠/ ٣٤)والنسائي (٧/ ٢٤٠) ورواه سنن الترمذي (٣/ ٦٣١) بلفظ إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٢٣٠) و مشكاة المصابيح (٢/ ٨٤٤).

(3) رواه أحمد (١٤/ ١٣٦) والبيهقي في الآداب (ص: ٣١٦) وفي شعب الإيمان (٢/ ٤٤٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٢٢) و صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٧٩).

(4) رواه البخاري (٣/ ١١٣).

(5) رواه مسلم (٢/ ٧٢١)

وقال أبو عبد الله الباجي الزاهد: "خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل ومعرفة الحق، وإخلاصُ العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال"[٢].

وقال ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – بعد قوله ﷺ: "إنّ الله – تعالى – طيّبٌ لا يقبلُ إلاّ طيبًا، وإن الله – تعالى – أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.." قال: المراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال وبالعمل الصالح[٣].

قال ابن كثير عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً}[٤] ، أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيبًا، أي مُستطابًا في نفسه غير ضارٍّ للأبدان ولا للعقول"[٥].

وقال عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا}[٦] ، "والأكل من الحلال سببٌ لتقبُّل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة"[٧].

وقال الحسن البصري عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ}[٨] ، قال: "أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه"[٩].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٥٧).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٢).
(٣) المرجع السابق.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٦٨.
(٥) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٤٧٨).
(٦) سورة البقرة، الآية ١٧٢.
(٧) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٤٨٠).
(٨) سورة المؤمنون، الآية ٥١.
(٩) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٤٧٧).

وقال سعيد بن جُبير والضحاك {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} يعني الحلال[١]. وقال عمرو بن شُرحبيل: "كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه"[٢].

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال يومًا: "إني أكلت حُمُّصًا وعدسًا فنفخني" فقال له بعض القوم: يا أمير المؤمنين إن الله يقول في كتابه: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[٣] فقال عمر: "هيهات ذهَبْتَ به إلى غير مذهبه، إنما يُريد يُريد به طيب الكسب ولا يُريد به طيب الطعام"[٤].

فلماذا نتخطى دائرة الحلال والمباح الواسعة إلى دائرة الحرام الضيقة، والتي من شأنها أن تمحق البركات وتُدمر البلاد والعباد، إن تعاطي الحلال وأكل الطيبات طريق موصل إلى محبة الله وجنته وسبب لإجابة الدعاء وحصول البركة في العمر والنماء في المال كما أنه عنوان السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة، يورث حلاوة المقال والفعال والبركة في الذرية وصلاح

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٢.

(٤) الدر المنثور (١/ ٤٠٦).

افضل كتاب في تزكية النفس

فكتب الرقائق والسلوك عموماً محورها وغايتها هو تزكية النفس، ومن أبرز تلك الكتب كتب العلامة ابن قيم الجوزية مثل: لداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان- طريق الهجرتين- مدارج السالكين. مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي- تلبيس إبليس لابن الجوزي. ومما يعين على تزكية النفس مطالعة كتب الترغيب والترهيب، ككتاب الترغيب والترهيب للمنذري، أو صحيح الترغيب والترهيب للألباني، وكذلك الكتب المتعلقة بأحوال الموتى والدار الآخرة، ككتاب حادي الأرواح لابن القيم، وكتاب التخويف من النار لابن رجب، وكتاب التذكرة للقرطبي، فإن هذه من أنفع العلوم لصلاح الباطن وحصول الاستقامة.

والله أعلم.

المؤمن السالك طريق الهداية بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محدود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء، ولا يقصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهما والله الموفق للخيرات الهادى لأعلى الدرجات.

أ – الرجاء

هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده[1].

وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإذا كان الأمر مقطوعاً فلا يسمى رجاء إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس، ولن يمكن أن يقال: أرجو نزول المطر.

وقد علم علماء القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض والإيمان كالبذور فيها، والطاعة جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو بذر إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب، وسوء أخلاقه، وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع كل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع

(1) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٨٤٤)وإحياء علوم الدين (٤/ ١٤٢)

نبات البذرة أو يفسده، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سُمي انتظاره رجاءاً، وإن بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة لا تصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سُمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءاً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختيار العبد، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهّر قلبه من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاءاً حقيقياً.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]

يعني أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء.

ومن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة، زاجراً له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كان رجاؤه داعياً له إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور [2].

([1]) سورة (البقرة ، الآية ٢١٨.

([2]) تزكية النفوس (ص: ١٠٤) .

البخل والشح

إن البخل دليل على قلة العقل وسوء التدبير، وهو أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى خصال ذميمة، ولا يجتمع مع الإيمان، بل من شأنه أن يهلك الإنسان ويدمر الأخلاق كما أنه دليل على سوء الظن بالله عز وجل، يُؤخر صاحبه، ويبعده عن صفات الأنبياء والصالحين.

فالبخيل محروم في الدنيا مؤاخذ في الآخرة، وهو مكروه من الله عز وجل مبغوض من الناس، ومن هنا قال القائل: جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

وقال آخر: البخل هو محو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية.

وقد تتسع دائرة البخل حتى تشمل امتناع المرء عن أداء ما أوجب الله تعالى عليه فترى البعض يبخل بنفسه وماله ووقته، وقد يمتنع عن تأدية حقوق الله أو النفس أو الخلق، قال الجاحظ: البخل خُلقٌ مكروه من جميع الناس إلاّ أنه من النساء أقل كراهية، بل قد يستحب من النساء البخل (بمال أزواجهن إلاّ أن يؤذن بالجود) فأما سائر الناس فإن البخل يشينهم وخاصة الملوك والعظماء، فإن البخل أبغض منهم أكثر مما هو أبغض من الرعية والعوام ويقدح في ملكهم؛ لأنه يقطع الأطماع منهم، ويبغضهم إلى رعيتهم[1]".

والشح أشد في الذم من البخل ويجتمع فيه البخل مع الحرص، وقد يبخل الإنسان بأشياء نفسه، وأشد منه دعوة الآخرين للبخل، قال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}[2].

---

(1) تهذيب الأخلاق للجاحظ (٣٣).

(2) سورة النساء، الآية ٣٧.

وقد يصل البخل بصاحبه إلى أن يبخل على نفسه، بحيث يمرض فلا يتداوى، وفي المقابل فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

قال تعالى: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(١)

وقال: {الذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}(٢)

وكان من دعائه ﷺ: "اللهم إنّي أعوذُ بك من الهَمّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكسَل، والبُخْلِ والجبنِ، وضلع الدّين، وغَلَبَة الرّجَالِ..." الحديث(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "الظلم ظُلُمات يومَ القيامة، وإيّاكم والفُحش، فإنَّ الله لا يُحبّ الفحش ولا التّفحّش، وإياكم والشُّحّ، فإنّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبَخِلوا، وأمرهم بالفجور ففجَرُوا (٤) .

وعن عبد الله بن الشّخير ﷺ قال: أتيتُ النبيّ ﷺ وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكاثُرُ} قال: "يقول ابن آدم: مالي، مالي. قال: وهل لك يا ابنَ آدم من مالكَ إلاّ ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟"(٥)

.

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٠.

(٢) سورة النساء ، الآية ٣٧ .

(٣) رواه البخاري (٤/ ٣٦)واللفظ له و مسلم (٤/ ٢٠٧٩) .

(٤) رواه أحمد (١١/ ٢٦) وابن حبان -(١١/ ٥٧٩)والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٥٢٨) ورواه مسلم (٤/ ١٩٩٦)بلفظ «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»

(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٣) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثٌ مُنجيات: خشية الله تعالى في السّرِ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى. وثلاث مُهْلِكاتٌ: هَوَىً مُتَّبع، وشُحٌ مُطاع، وإعْجابُ المرء بنفسه"[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يُصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفِقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تَلفًا"[2] .

فإياك والبخل، فقد علمت ما جاء فيه من الذم، ودرِّبْ نفسك على الجود والكرم وتعامل مع الرب الكريم الذي لا تضيع عنده مثاقيل الذر، فعندك من النباهة والفطنة ما يخلصك من المعرة في الدنيا والآخرة.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٩٧) والبزار في البحر الزخار (٨/ ٢٩٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٣) .

(2) رواه البخاري (٢/ ١١٥) ومسلم (٢/ ٧٠٠) .

علاج البخل

لعلاج البخل مثل الأمراض الأخرى، يجب على المرء أولاً معرفة أضرار البخل وآثار وفوائد الوجود والانفاق، ثم البحث عن علاجه؛

قال الله تعالى " (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[١] " وقال تعالى " (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٢] " وقال تعالى "(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)[٣] ".

وقال ﷺ " إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال ﷺ " إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم[٤] .

وقال ﷺ "وقال ﷺ " ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[٥] .وقال ﷺ " مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق شيئاً

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٢) سورة ال عمران ، الآية ١٨٠ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٣٧ .

(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٦)

(٥) تقدم تخريجه .

إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقه مكانه حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع[1] .

، وقال ﷺ " اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى ارذل العمر[2] ، وقال ﷺ " إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة[3] .

أي أن على البخيل أن يفكر كثيراً في آثار ونتائج البخل – التي وردت في النصوص الدينية–، وكذلك فوائد الكرم و الجود التي وردت في التعاليم الدينية ويتأمل فيها،و يكثر من التفكير في الآيات والأحاديث التي جاء الكلام فيها عن خساسة البخلاء وذلّتهم والتي تبشر بالمكافأة على الوجود والكرم.

يجب على البخيل أن يعتقد أن أمامه عالم آخر غير هذا العالم، والذي سيسافر ويرحل إليه عاجلاً أم آجلاً، وأنه يحتاج إلى ارسال بعض ما لديه بالفعل في هذا العالم إلى عالم آخر وادخاره هناك حتى يتمكن من استخدم ذلك في يوم عجزه وفقره.

فعندما عرف البخيل هذه الامور اعتقد بها، فعليه أن يكره نفسه على البذل، ويخلي قلبه من حب الثروة والمال، ويبذل وينفق باستمرار؛ ويقوم بالاحسان إلى الفقراء حتى يميل طبعه البشري إلى صفة البذل والاحسان.

ومن أراد أن يتخلص من هذه الرذيلة الاخلاقية ، فعليه أن لا يتعلل في عمله عندما يريد بذل شيء من ماله، لأن الشيطان يغريه ويخوفه من الفقر وقلة المال.

---

(1) رواه البخاري (٢/ ١١٥).

(2) رواه البخاري (٤/ ٢٣) .

(3) رواه الحاكم (١/ ٥٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٥٢٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٧٠١) وهو عند مسلم بلفظ اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الخ وعند البخاري (٣/ ١٢٩) مختصرا بلفظ «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»

إذا تجذر مرض البخل في نفس الإنسان فعليه أن يقنع نفسه بأن بذله وانفاقه سيجعله معروفاً بين الناس بالكرم، وعليه أن يتذكر المعروفين بالجود والكرم، حتى يتمكن بذلك من إقناع نفسه وبسط يده للبذل والانفاق.

بالطبع أن البذل والعطاء بهذه النية وبهذا الشكل رغم أنه ليس حقيقة السخاء والكرم ويعتبر صفة رذيلة عند أولياء الله ولكن لا إشكال ولا ضرر في ذلك إذا كان بدافع التشجيع والترغيب حتى ينتزع المرؤ حب المال من قلبه، وبعد ذلك يقوم بتصحيح نيته وقصده.

جدير بالذكر أن أهم طريق لعلاج هذه الصفة هو قطع جذور هذا المرض وهو حب المال الذي يدعو إلى حب الدنيا.

السخاء والكرم

السخاء أساس كثير من الفضائل، أساس الألفة والمحبة والتعاون.

والسخاء والجود والكرم ألفاظ جميلة، معانيها نبيلة، وحديثها عذب شيق، ينعش الأرواح ويشرح الصدور، إنه يخلد الذكر وهي تبقى لصاحبها لسان صدق. هؤلاء الأسخياء إن عاشوا فهم في أعين الناس عظماء وإن ماتوا فهم في أعين الناس أحياء.

وحد السخاء هو بذل المال مما أعطاك الله في الأمور المحمودة دون مقابل أو عوض ودونما إسراف ولا تفريط لا سيما إذا كان لسد حاجة أو لإغاثة ملهوف أو حفظ نفس من الوقوع في المذلة والهوان.

ولقد حث دستور الحياة على الإنفاق ورغب في البذل والسخاء ففي الكتاب الكريم آيات كثيرة تدعو إلى ذلك وترغب فيه. يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1] . ويقول: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾[2].

ويبين أن المال أمانة وحق في يد الإنسان وهو مستخلف فيه فيقول: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3] .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٥٤ .

(2) سورة إبراهيم ، الآية ٣١ .

(3) سورة الحديد ، الآية ٧ .

ولقد جعل الإنفاق والبذل من خصال البر، فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَئِكَةِ وَالْكِتٰبِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[1] .

ألا ما أعظم فضل السخاء إنه الخلق الذي يجب أن يتزين به كل إنسان وأن يتحلّى به كل مسلم أحبه الله واتصف به فهو جواد كريم وهو أكرم الكرماء يرزق من يشاء بغير حساب، ويعطى ولا راد لعطائه ولا تنفد خزائنه، وجمل بالسخاء أنبياءه ورسله؛ فقد كان مُحَمَّد ﷺ أجود الناس .

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس وان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[2].

كذلك كان أصحابه (رضوان الله عليهم) وفي غزوة العسرة ظهر السخاء في أرفع صوره، جاء أبوبكر بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لأولادك يا أبا بكر» قال بمنطق الإيمان: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بنصف ماله وتصدق عثمان بالكثير والكثير حتى لقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه»[3].

وكذلك كان سائر أصحابه وكذلك السابقون كانوا كرماء أسخياء لا يريدون بسخائهم إلا وجه الله (عز وجل)؛ ولذلك سجل الله ذكرهم في القرآن الكريم ووعدهم في الدنيا بالنجاح والفلاح وأمنهم على أنفسهم من فزع

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٧٧.

(2) رواه البخاري (١/ ٨)ومسلم (٤/ ١٨٠٣) .

(3) رواه أبو داود (٢/ ١٢٩) و الترمذي (٥/ ٦١٥)وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٦٩٩) .

يوم القيامة ولقاهم بعد ذلك كله نضرةً وسرورًا ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾(١).

ولو أن الناس يعلمون ما في الكرم من مآثر وحسنات لأسرعوا ولجادوا بأنفسهم وأرواحهم في سبيل الحصول على هذه المفاخر.

إن السخي يحبه الناس في حياته وبعد موته ويجلونه في حضرته وغيبته ويقلدونه في قوله، وفعله كلمته مسموعة وأمره مطاع ورأيه سديد وحكمه نافذ.

إن السخاء يقلل الأعداء ويكثر الأحباء ويغفر الزلات ويستر العيوب.

يغطى بالسماحة كل عيب***وكم عيب يغطيه السخاء

إن السخاء عمدة مكارم الأخلاق يفتخر به الأبناء والأحفاد وتتناقله الأخبار الركبان وتدونه الصحف والكتب ويسجله التاريخ بمداد الفخر على صفحات الأيام:

وكم مات قوم وما ماتت مآثرهم***وعاش قوم وهم في الناس أموات

إنه حصن الأمان ودليل المروءة، وباعثه إنما هو جود النفس وسخاؤها وسموها وكرمها يقول الشافعي ﷺ ثقة فيما عند الله:

توكلت في رزقي على الله خالقي*** وأيقنت أن الله لا شك رازقي

وما كان من رزقي فليس يفوتني ***وإن كان في قاع البحار الوامق

سيأتي به الله العظيم بفضله ***ولو لم يكن مني اللسان بناطق

(١) سورة الإنسان ، الآيات ٩-١١ .

ففي أي شيء تذهب النفس حسرةً*** وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

شرف الله السخاء فجعله صفة من صفات المتقين وقرنه بالصلاة ثم قرنه بالإيمان بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[1] ووعد أولئك المتقين المقيمين للصلاة المؤمنين بالغيب بالفلاح، وقصر الفلاح عليهم دونما سواهم، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] والفلاح اسم جامع لسعادة الدنيا والآخرة.

يظن بعض الناس أن السخاء والبذل يضر بثروتهم، وينقص مالهم ويجلب لهم الفقر الذي يزعجهم، وينغص عليهم سعادتهم في هذه الحياة. وهذا الظن الشيء إنما هو من وسوسة الشيطان يكره البذل والإنفاق، ولذلك فلا شيء أغيظ للشيطان وأقتل لكيده وأبطل لوسواسه من الإنفاق في وجوه الخير، لذلك يثنيها عن الجود والإعطاء ويحبب إليها الشح والإمساك، وصدق الله العظيم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] .

إن ما يبذله الإنسان وما تسخو به نفسه من ألوان الصدقات كالزكاة والهبة والتبرع والصلات وسائر ما ينفقه في وجوه الخير، كل ذلك يعود على صاحبه بعظيم النفع وجليل الآثار في دنياه وفي آخرته في حياته وبعد مماته.

ومن أعظم هذه الآثار:

أولاً: أن السخاء سبب النماء، وقد اعتبره الله قرضًا حسنًا لا يرده لصاحبه مثلاً ولا مثلين وإنما يرده أضعافًا

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٣ .

(2) سورة البقرة ، الآية ٥ .

(3) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ .

مضاعفةً ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١)

لقد وعد الكريم ووعده حق وصدق، أن يعوض المنفقين عما أنفقوا بأن يغمرهم في هذه الحياة بعطائه، الذي لا ينفد وبخيراته التي لا تحد. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢) ، ويقول رب العزة في الحديث القدسي: «يا عبدي أنفق أنفق عليك، يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؛ فإنه لم يغض ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع»:(٣).

وإن في قصص التاريخ لعبرة وعظة. فقد كان معن بن زائدة من أجود وأسخى أمراء المسلمين، وحدث أن جاء إلى مجلسه رجل من البوادي يحمل جرة، فسخر بعض الناس منه، وقالوا لمعن: سل هذا الرجل كيف ولم جاء بهذه الجرة إلى مجلسك هذا؟ فسأله معن فقال الرجل:

لما رأيت الناس شدوا رحالهم***إلى بحرك الطامي أتيت بجرتي

فأعجب لفصاحته معن، وقال لعماله: املؤوها له ذهبًا. فخرج الرجل بها، وما أسرع ما التف الفقراء حوله، فجعل ينفق منها يمينًا وشمالاً حتى نفدت عن آخرها، ورآه بعض من كان في مجلس معن، فأوعزوا إلى معن وقالوا له: لو كان هذا يعرف قيمة ما أخذ ما أنفقه كله فقال: عليَّ به، فجاءه الرجل وهو يقول هذا البيت:

يجود علينا الخيرون بمالهم ***ونحن بمال الخيرين نجود

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٥ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٩ .

(٣) رواه البخاري (٦/ ٧٣) ومسلم (٢/ ٦٩١) .

فأعجب به أكثر، وقال لعماله املؤوها له ذهبًا عشر مرات. فقال الرجل. صدق الله العظيم: ﴿مَنْ جَاء بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]،[2].

هذا ما أعده الله من خيراته للمتصدقين في الدنيا.

فأما الآخرة فإن الأجر عظيم، والثواب جزيل، والله عنده حسن الثواب. فلقد وعد المتصدقين والمتصدقات بالأجر العظيم في الآخرة، فضلاً عن مضاعفة الحسنات، وذلك في غير آية من كتاب الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[3] وقال تعالى ﴿إِن المُصَّدِّقِيْنَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[4].

ومن آثار البذل والجود ثانيا: أنه يحصن المال ولا يتلفه، وإنما يحفظه ويحرسه.يقول في حديث آخر: « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، »[5].

ثالثًا: ومن هذه الآثار الطيبة الكريمة أنه دواء من أدوية المرضى فليس ذلك بعجيب. فقد قال من لا ينطق عن الهوى: «داووا مرضاكم بالصدقة»[6].

رابعًا: أن الصدقة تقي صاحبها من كثير من البلايا والمصائب يقول ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»[1].

---

(1) سورة الأنعام ، الآية ١٦٠.

(2) انظر مجاني الأدب في حدائق العرب (٢/ ١٤٧).

(3) سورة الحديد ، الآية ١١ .

(4) سورة الحديد ، الآية ١٨.

(5) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠١).

(6) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥٣٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٤)و صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٥٨).

خامسًا: ومن هذه الآثار الجليلة: التغاضي عن زلات وهفوات السخي. فلقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس عنه: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر».

سادسًا: أن البذل الواقع عن إخلاص ورحمة يحط الخطايا ويغفر الذنوب ويكفر السيئات ، يقول تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [٣] .

سابعًا: إن السخاء ذخيرة الرجل لأولاده بعد موته، به يكرمون وبسببه ينالون جميل العطف، ويدفع عنهم كثيرًا من نوائب الدهر.

ثامنًا: أن صدقة السر تطفئ غضب الرب كما جاء ذلك في الحديث الصحيح [٤].

تاسعًا: ممن يظلهم الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه [٥].

وبعد فيا أيها الأخ الكريم لعل فيما قدمناه إليك ما يغري بالبذل والسماحة، والسخاء والجود، ويجمل بك إن كنت ممن أفاء الله عليه بالخيرات الكثيرة والأرزاق الوفيرة أن تتشبه بالكرام؛ فإن التشبه بهم فلاح في الدنيا، وسعادة وفوز عظيم في الآخرة.

---

(١) رواه الطبراني (١/ ٢٨٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٠٧) .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧١ .

(٣) سورة التغابن ، الآية ١٧ .

(٤) رواه الطبراني (٢/ ٢٠٥) والحاكم (٣/ ٦٥٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥١) وأبو نعيم (٣/ ١٣٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٠٢) .

(٥) رواه البخاري (٢/ ١١١)مسلم (٢/ ٧١٥) .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *** إن التشبه بالكـرام فلاح

السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، ولما كانت الأخلاق الفاضلة مكتسبة بنوع من التربية والمجاهدة ،فإن المسلم يعمل على تنمية الخلق الفاضل في نفسه وفي اهله

(وليست بعد الإيثار درجة في السخاء ،وقد أثنى الله- تعالى- على أصحاب رسول الله- ﷺ- بالإيثار فقال: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة)[1]،[2] .

الأحاديث الواردة في (السخاء) منها:

١- حديث حكيم بن حزام- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله- ﷺ- فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال: (يا حكيم: إن هذا المال خضرة حلوه، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى)[3]

وإن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَرايا ***وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ

تَسَتَّر بِالسَخاءِ فَكُلُّ عَيبٍ *** يُغَطّيهِ كَما قيلَ السَخاءُ

ينبغي لكل مسلم ومسلمة أن يتخلق بهذا الخلق الفاضل، ألا وهو- خلق السخاء-: لما فيه من الفوائد العظيمة والأثر الطيب في حياة الناس، فإن صاحبه محمود في الدنيا والآخرة، والسخاء دليل الزهد في الدنيا وحب الآخرة، ويكسب صاحبه السيادة في الدنيا والآخرة، وهو طريق من طرق النبيين والسلف الصالح .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٢) انظر مختصر منهاج القاصدين (٢٠٥) .

(٣) رواه البخاري (٢/ ١٢٣) ومسلم (٢/ ٧١٧) .

الخاتمة نسأل الله حسنها

لقد عشنا في رياض هذا السفر الكريم ، تزكية النفس وكيف تكون نفسا مشرقة، وأتيتا للخاتمة لنجمل ما كان مفصلا لتعم الفائدة .

إن تزكية النفوس من كبرى مقاصد الرسالات الإلهية وبعث الرسل، فقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [1]، وقال سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[2] ، ويقول رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[3] .

وتزكية النفس سبيل فلاحها وسلامتِها من عقبى الخيبة، كما أكدّه المولى جل وعلا بأحد عشر قَسَماً: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)}[4] .

وبتلك التزكية يُذاق طعم الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد طَعِم طَعْم الإيمان»[5]، وذكر منها: {وزكّى نفسه}.

---

(1) سورة النازعات ، الآيات ١٧-١٩ .

(2) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

(3) رواه أحمد (١٤/ ٥١٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٥٢)وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٦٤) .

(4) سورة الشمس، الآيات ١-١٠ .

(5) رواه أبو داود (٢/ ١٠٤)و البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٩)وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٣) .

ودرجات الجنة العلى جزاء من تزكى، يقول الله تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[1]، وقد بيّن النبي ﷺ علوّ ذلك النزل في قوله: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا»[2].

إن زكاة النفس منّة يكرم الله سبحانه بها من سبقت له الحسنى لديه؛ تفضلاً ورحمةً لا استحقاقاً، يقول الله سبحان: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[3]، وإنّ طلب المكلّف تلك المنّة فرض لازم عليه، وذلك بفعل ما تزكو به نفسه من الأعمال التي شرع الله جل وعلا. وأعظم تلك الأعمال توحيد الله سبحانه؛ فالتوحيد أعظم ما تُزكّى به النفوس، والشرك أقبح ما تَنْجس به، يقول الله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}[4].

-أي: التوحيد- والصلاة من خير ما تزكى به النفس، خاصة المكتوبات، يقول النبي ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[5].

---

(1) سورة طه ، الآيات ٧٥-٧٦ .

(2) رواه الترمذي (٥/ ٦٠٧) وأحمد (١٧/ ٣١٠)وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ١٥٨، بترقيم الشاملة آليا) .

(3) سورة النور ، الآية ٢١ .

(4) سورة فصلت ، الآية ٦ .

(5) رواه البخاري (١/ ١١٢) ومسلم (١/ ٤٦٢) واللفظ له .

والصدقة الواجبة والمستحبة من سبل تزكية النفس، يقول الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}[1] .

وغض البصر عن رؤية الحرام مما تزكو به النفس، يقول الله سبحانه: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[2] .

والدعاء سبب قوي لحصول التزكية؛ فقد كان النبي ﷺ يدعو بهذه الدعوات ويعلِّمها أصحابه: «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[3] .

ومراقبة الله جل وعلا واستحضار قربه مما تزكّى به النفوس، بل فسّر النبي ﷺ تزكية النفس به؛ فقد سأله رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان»[4] .

ومحاسبة النفس سبيل لتزكيتها، يقول ابن القيم: "إِنَّ زَكَاتَهَا وَطَهَارَتَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا؛ فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا.

قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَاللَّهِ لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا. وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ".

فَبِمُحَاسَبَتِهَا يَطَّلِعُ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا"[5].

---

(1) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

(2) سورة النور، الآية ٣٠.

(3) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٨).

(4) رواه الطبراني (١/ ٣٣٤)و البيهقي (٢/ ٢٠١)وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٨).

(5) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨).

والتوبة إلى الله والإنابة إليه جادة التزكية، يقول الله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون}[1]

.

يقول شيخ الإسلام: "وَكَذَلِكَ تَرْكُ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ فِي الْبَدَنِ، وَمِثْلُ الدَّغَلِ فِي الزَّرْعِ، فَإِذَا اسْتَفْرَغَ الْبَدَنُ مِنْ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ كَاسْتِخْرَاجِ الدَّمِ الزَّائِدِ تَخَلَّصَتْ الْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَاسْتَرَاحَتْ فَيَنْمُو الْبَدَنُ، وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إذَا تَابَ مِنْ الذُّنُوبِ كَانَ اسْتِفْرَاغًا مِنْ تَخْلِيطَاتِهِ حَيْثُ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَإِذَا تَابَ مِنْ الذُّنُوبِ تَخَلَّصَتْ قُوَّةُ الْقَلْبِ وَإِرَادَاتُهُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَاسْتَرَاحَ الْقَلْبُ مِنْ تِلْكَ الْحَوَادِثِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ[2]".

أيها المؤمنون: والتزكية وصف خفيّ استأثر الله سبحانه بعلم حقيقته؛ فلا يُجزم بتزكية مخلوق مهما بلغ في تقاه، يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ}[3] .

قال ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُوَ مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، فَيَأْتِي الرَّجُلَ لَا يَمْلِكُ لَهُ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَيَقُولُ: وَاللَّهِ! إِنَّكَ كَيْتَ وَكَيْتَ!! وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ وَمَا مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ" ثُمَّ قَرَأَ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ}[4]، وأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ

---

(1) سورة النور ، الآية ٣١ .

(2) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧) .

(3) سورة النساء ، الآية ٤٩ .

(4) سورة [النساء ، الآية ٤٩ .

صَاحِبِكَ» مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»[1] .

بل كره أهل العلم أن يُسمّي المرء باسمٍ فيه تزكية له كمؤمن وزكي وإيمان وصلاح الدين، قال مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ رحمه الله: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنهما: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَبَ»[2] .

وبعد –معشر الإخوة– فهذا بيان لحقيقة تزكية النفس وثمارها ووسائلها وما يمنع فيها؛ فالله الله بتلك التزكية؛ فإنما الفلاح بها. وأجمل حالٍ بلغتَ به *كمالاً وعزاً بإمكانية جهادٌ لنفسك تسمو به * وحرصُك دوماً على تزكية النفس تكن ممن جاهد في الله حق جهاده

اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّهَا أنت خيرُ من زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نَفْسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد

كتبه د. ابو الحسن علي بن مُحَمَّد المطري حفظه الله ورعاه ١٧رجب ١٤٤٥

قبيل صلاة الفجر

حامداً مصلياً

---

(1) رواه البخاري (٣/ ١٧٧) ومسلم (٤/ ٢٢٩٦) .

(2) رواه مسلم (٣/ ١٦٨٧) .

الفهـرس

المقدمة ٢

مقصد التزكية في الدعاء النبوي ٤

التخلية قبل التحلية ٤

أليات التزكية ٧

وقفة مع النفس ٨

التزكية فلاح وراحة بال ١٠

السعادة في التزكية ١٠

من مقاصد القران الكريم تزكية النفس البشرية ١٢

تزكية النفس في أدعية النبي ﷺ ١٦

دُعَاءُ تزكيةِ النَّفْسِ ١٩

مقاصد السنة النبوية في تزكية النفس ٢٢

مقصد التزكية في الدعاء النبوي ٢٤

خطوات عملية لإصلاح النفس الأمارة بالسوء ٢٤

سياسية تهذيب النفس ٢٧

كيفية التغلب على النفس ٣٠
تزكية النفس لطالب العلم والبعد عن التعصب ٣٢
من تزكية النفس إخلاص الإخلاص ٣٣
ومن تزكية النفس معالجة النية ٣٨
من تزكية النفس عدم ترك الطاعة خوفا من الرياء ٤٠
من تزكية النفس التذكير بالإخلاص الفينة بعد الفينة ٤٢
من تزكية النفس معرفة أهمية النية ٥٢
كيفية تصحيح النية ٥٤
من تزكية النفس احتساب الأجر عند الله في كل عمل ٥٦
من تزكية النفس أن تكون الحياة كُلها لله ٦٠
أثر التوحيد في تزكية النفس ٦٣
معية الله ولطفه مع مجاهدي نفوسهم من أجل صلاحها على طاعة الله ونيل رضاه ٧٠
التزكية ربع الرسالة ٧١
الفلاح معلق بالتزكية ٧١
الرسول ﷺ يدعو بالتزكية ٧٢
كيفية مجاهدة النفس ٧٤

أنواع النفوس ٧٥
أولا: النفس الأمارة ٧٥
ثانيا: النفس اللوامة ٧٥
ثالثا: النفس المطمئنة ٧٦
مراتب مجاهدة النفس ٧٧
عدة المجاهدة ٧٧
سوء الظن بالنفس ٨٠
وجاهد النفس والشيطان واعصهما ٨١
مجاهدة النفس على ترك المعاصي والأخلاق السيئة ٨٣
التزكية ثمرة من ثمار العقيدة الإسلامية الصحيحة ٨٧
معالمُ في منهج السلوك والأخلاق عند السلف ٩٠
من معالم السلف في السلوك ٩١
ومن معالم السلوكِ الشرعي ٩١
أهم الصفات الأخلاقية عند السلف الصالح تزكيةُ النفوس ٩٣
وتزكيةُ النفوسِ تتحققُ بأمورٍ كثيرةٍ منها ٩٥
التوحيدُ ٩٥

الصلاةُ وفعلُ الواجبات والنوافل ٩٥

ومن وسائل تزكية النفس تركُ المحرَّمات عموماً ٩٦

ومن وسائل تزكية النفس محاسبةُ النفس ٩٦

قصص حول تزكية النفس ٩٨

والاستغفار وسيلة محورية في تزكية النفس ٩٩

قصة معاصرة حول تزكية النفس ١٠٠

مـــا حُكم تزكية النفس ١٠١

محاسبة النفس ١٠١

تزكية النفس ومدحها بين الجواز والنهي ١٠٢

الجمع بين الآيات الآمرة بتزكية النفس والآيات الناهية عن ذلك ١٠٣

نفوس الكبار كبارا ١٠٥

مدح النفس ١٠٧

الاستعاذة من شر النفس ثلاثا صباحا ومساء وعند النوم وقرنها بالشيطان ١١٢

موعظة تخاطب النفس ١١٣

تزكية النفس ثبات في قلب المعركة ١١٤

غنى النفس كنز لامثيل له ١٢١

أثر التوحيد في تزكية النفوس ١٢٣
أثر العبادات في تهذيب النفوس ١٢٩
أثر القرآن في تزكية نفس المسلم ١٣٢
أثر القرآن على سلوك المسلم ١٣٤
أثر سماع القرآن الكريم ١٣٥
بعض المواقف الدالّة على تأثير القرآن على النفس ١٣٦
نفع القرآن الكريم ١٣٧
أثر الإيمان في تزكية النفس ١٣٧
صفات المؤمنين ١٣٩
المنافع العائدة على الإنسان للإيمان بالله ١٤٢
سعة آفاق النّظر ١٤٢
الأنفة وعزّة النّفس ١٤٣
ثالثة هذه الفوائد: إبطال الآمال الكاذبة والعقائد الفاسدة ١٤٤
الفائدة الرابعة للإيمان بالله: طمأنينة القلب ١٤٥
الفائدة الخامسة للإيمان بالله: الشجاعة والجرأة ١٤٦
وقفة تربوية فقه تزكية النفس ١٤٨

حكاية التزكية ١٤٨

صفات التربية الإيمانية ١٤٩

شوائب ومنغّصات ١٥١

اثر الصلاة في تزكية النفس ١٥٢

١-الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه ١٥٢

٢-مناجاة العبد لربه: ١٥٤

٣-طمأنينة النفس وراحتها :.....١٥٥

٥-الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات:.....١٥٨

٦-الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس ١٦٠

٧-الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد: ١٦١

أثر الإخلاص في تزكية النفس ١٦٢

ومن صور تلك الحظوظ المهلكة: ١٦٣

اثر الإحسان في تزكية النفس ١٦٩

أثر الزكاة في تزكية النفس.....١٧٦
الزكاة ١٧٦
ومن الآثار التربوية للزكاة: ١٧٧
أثر اليقين في تزكية النفس ١٧٩
اثر التمسك بالسنة في تزكية النفس ١٨٣
مقصد التزكية في الدعاء النبوي: ١٨٤
اثر الصدقة في تزكية النفس ١٨٥
أثر التقوى في تزكية النفس ١٨٨
أثر الكلمة الطيبة لا إله إلا الله في تزكية النفس ١٩٣
عشر نصائح مهمة لمن أراد تزكية النفس بصدق وإخلاص وتجرد ١٩٦
اثر قيام الليل في تزكية النفس ١٩٨
قيام الليل سبب تزكية النفس ١٩٨
اهمية تزكية النفوس ١٩٩
الأسباب المعينة على قيام الليل ٢٠١
١) صدْق النيَّة، والعزم على القيام، ومُجاهَدة النفس في ذلك: ٢٠١
٢) التبكير بالنوم، وتعاطي أسباب الاستيقاظ: ٢٠٢
٣) الوضوء قبل النوم، والمحافظة على أذكار النوم: ٢٠٣

٤) ذكر الله عند الانتباه: ٢٠٤

٥) المبادرة إلى ذكر الله – عز وجل – حين الاستيقاظ، والتأسِّي به ﷺ في هيئة النوم: ٢٠٥

٦) المبادرة إلى التخلُّص من آثار الشيطان بالاستِنثار، وغسل الكفين ثلاثًا:.....٢٠٥

٧) ترك المعاصي والآثام: ٢٠٦

٨) التقلُّل من الأكل والشرب: ٢٠٧

٩) أن يكون همُّ الآخرة هو الغالب على قلبِه:.....٢٠٧

١٠) التفكُّر في أهوال الآخرة، مع قصر الأمل: ٢٠٧

١١) معرفة فضل قيام الليل: ٢٠٨

١٢) تحقيق محبة الله جل وعلا:.....٢٠٩

١٣) الدعاء والتضرع إلى الله: ٢٠٩

لماذا تزكية النفس ٢١١

بعض أسرار العبادات ٢١٣

١)سر التوحيد في تزكية النفس ٢١٣

٢)سر الصلاة في تزكية النفس ٢١٣

٣)سر الصدقة في تزكية النفس ٢١٤

أثر النوافل في تزكية النفس ٢١٥

١- المناجاة بين العبد وربه، والتحقق بمقام العبودية: ٢١٥

٢-غذاء القلب وزيادة الإيمان:.....٢١٨
٣-شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها: ٢٢٠
ماذا تعنى تزكية النفس؟ ٢٢٤
اجمل ما قيل عن تزكية النفس؟ ٢٢٤
أثر العلم في تزكية النفس ٢٢٦
المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم: ٢٢٩
اثر الصيام في تزكية النفس ٢٣٢
أثر الصوم في حفظ النفس ٢٣٢
أثر الحج في تزكية النفس ٢٣٨
أولاً: وسائل التزْكية قبل العبادة: ٢٤٠
ثانيًا: وسائل التزكية أثناء العبادة: ٢٤٠
ثالثًا: وسائل الثبَات على التزكية بعد العبادة: ٢٤٢
من آثار الحج في تزكية النفس:.....٢٤٣
أثر أسماء الله الحسنى في تزكية النفس ٢٤٨
أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك المؤمن ومواقفه ٢٤٨
أثر التواضع في تزكية النفس ٢٥٧
والتواضع يكون في أشياء، منها: ٢٥٨

١. تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً ٢٥٨
٢. تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ٢٥٩
٣. التواضع في اللباس والمشية ٢٥٩
٤. التواضع مع المفضول فيعمل معه ويعينه ٢٦٠
٥. التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها ٢٦٠
٦. التواضع مع الصغار وممازحتهم ٢٦٠
٧. التواضع مع الخدم والعبيد ٢٦١
أثر التواضع على الفرد والمجتمع ٢٦٢
أثر التواضع على الفرد:.....٢٦٢
أثر التواضع على المجتمع:.....٢٦٢
أثر الخوف من الله في تزكية النفس ٢٦٣
درجات الخوف ٢٦٥
الدرجة الأولى: خوف العقوبة:.....٢٦٥
الدرجة الثانية: خوف المكر: ٢٦٥
اثر خشية الله في تزكية النفس ٢٦٧
الآثار الإيمانية المترتبة عند الخشية من الله:.....٢٧٢
أثر الصبر في تزكية النفس ٢٧٤

تعريف الصبر: ٢٧٥
فضيلة الصبر والصابرين:..... ٢٧٥
السلف الصالح والصبر..... ٢٧٧
دوافع تعين على الصبر:..... ٢٧٩
أثر الصدق في تزكية النفس ٢٨١
ومن أهم فضائل الصدق:..... ٢٨٤
٢- الصدق يهدى الإنسان إلى البر والخير:..... ٢٨٤
٣- الصدق فيه النجاة:..... ٢٨٥
٤- الصدق فيه الربح والفوز: ٢٨٥
مراتب الصدق ٢٨٦
آثار الصدق ونتائجه: ٢٨٧
أثر الإستغفار في تزكية النفس ٢٩٠
الآثار في فضل الاستغفار:..... ٢٩٤
تزكية النفس تولد الأمانة العامة ٣٠٠
والمعنى الخاص للأمانة:..... ٣٠١
اثر الكسب الحلال والطعام الحلال في تزكية النفس..... ٣٠٦
الأصل في الأشياء الإباحة..... ٣٠٦

لا تحرموا الطيبات ٣٠٧

شريعة ترفع الحرج وتبيح الطيبات ٣٠٨

أفضل الكسب ما كان من عمل اليد ٣٠٩

افضل كتاب في تزكية النفس ٣١٢

المؤمن السالك طريق الهداية..... ٣١٣

بين الخوف والرجاء ٣١٣

أ – الرجاء ٣١٣

البخل والشح ٣١٥

علاج البخل ٣١٨

السخاء والكرم ٣٢١

الأحاديث الواردة في (السخاء) منها: ٣٢٨

الخاتمة نسأل الله حسنها..... ٣٣٠

الفهـرس ٣٣٥